



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



المجلس الأعلى للغة العربية

الأستاذ عبد الحميد سرحان

الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين

منشورات المجلس 2017

الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين

عبد الحميد سرخان

منشورات المجلس 2017

**كتاب: الرواية والمجتمع الكولونيالي في الجزائر
ما بين الحربين**

- إعداد: عبد الحميد سرحان
- قياس الصفحة: 23/15.5
- عدد الصفحات: 320

الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2017
ردمك: 3- 89 - 821 - 9947 - 978

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرونكلين روزفلت - الجزائر

ص. ب: 575 الجزائر _ ديدوش موراد

الهاتف: 021.23.07.24/25

الفاكس: 021.23.07.07

مقدمة المترجم

إن هذا الكتاب يكشف عن ملامح ومظاهر المجتمع الكولونيالي، من خلال كتابات المؤلفين الكولونيين ويسجل مواقفهم وملاحظاتهم وتحليلاتهم عن هذا المجتمع، وهو دراسة موضوعية قيمة تقدمها الدكتورة فضيلة يحياوي، وجهد معتبر يميّط اللثام عن فترة رهيبة وقاسية في حياة الجزائر، وعن أفكار هؤلاء الكتاب حول المجتمع الخليط الذي أراد الاستعمار أن يكونه ويبشر به هنا في الجزائر، من جهة، وعن الجزائريين الذين كانوا يعانون من ظلم وتعسف هذا الاستعمار الفرنسي، البغيض، الذي كان يتبجح بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة، الفرنسية، من جانب آخر، يتغنى بهذه المبادئ في فرنسا للفرنسيين، وينصب أعتى وأقبح استعمار ديكتاتوري في الجزائر عندما يتعلق الأمر، بالجزائريين.

إن نصوص الرواية الكولونالية تمثل سلاح القلم المؤازر لسلاح البندقية في الحرب الاستعمارية التي قامت بها فرنسا ضد الجزائر وشعبها.

إن عملية الاستعمار، هي وإن ادعت التحضير والتمدين والترقية، في أهدافها، فهي لا تعدم أن تحمل في نواياها العدوانية، والعنصرية، والشر لل شعب الجزائري. "فظهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب".

إن هؤلاء الكتاب الكولونيين، على مختلف طبقاتهم، قد أداروا ظهورهم لنصوص ثورتهم الفرنسية، التي تزعم أنها جاءت بالحرية، والعدالة، والأخوة، وقد تركوا هذه المبادئ من وراء البحر. لقد انسلخوا منها في الجزائر، واتخذوا منحى آخر يتبنى ثقافة القوة والعنف والعداوة والحرب، من أجل استعمار واستعباد الجزائر والجزائريين. فظهر الوجه الفاحش القبيح لهذه الثقافة.

لقد مرغوا مبادئهم هاته ودفنوها في الجزائر وتبنوا مكانها ثقافة استعمارية استلهموها من تاريخ أجدادهم الرومان التي تقوم على الأسياذ والعبيد، الغزاة هم السادة، والأهالي هم الخدم، فكانت ثقافة تحارب كل ما هو أصيل لهذا الشعب. وتبجل كل ما هو دخيل للمعمرين.

كان اهتمام الكتاب الكولونيايين ينصب على المعمرين الأوروبيين. أما الجزائريون وثقافتهم، فهم لا يعتبرون ولا يستحقون الاهتمام إلا بالقدر الذي يحط من قدرهم وإذلالهم واحتقارهم.

لم تكن الثقافة الفرنسية، متممة وملقحة ومساعدة للثقافة الجزائرية في الجزائر على التطور أبدا. بل كانت صراعا، في إطار "الغالب والمغلوب"، تعمل على طمس هوية البلد تمهيدا لإلحاقه بالوطن الأم (المتروبول) من جهة، وخلق جدار متين وهوة عميقة بين الجماعة الأوربية والجماعة الإسلامية في جميع الميادين، وهذا حتى يظهر الفرق واضحا بين "الأوروبي" المثقف المتطور الرفيع المستوى الذي يقتدى به، وبين "العربي" الأمي المنحط الذي يضرب به المثل في الانحطاط والتخلف والكسل، ومن ثم ينبغي تجنبه.

إن تطرفهم في هذا الاتجاه وفي هذه النظرة المحقرة، كان يولد تطرفا في الجانب الآخر لدى الأهالي المسلمين، الذين كانوا يتمسكون أكثر بأصالتهم ويقاومون ثقافة الغزو هذه التي تريد أن تلغيهم بعناد وبشراسة، ويواجهون حربهم الشرسة بالأخص دينهم الحنيف.

لقد كان العدو اللدود للكتاب الكولونيايين، هو "هذا العربي" المخيف، وهذا الدين الذي لا يختزل، ولا يمكن تجاوزه حسب رأيهم.

إن الدوائر الاستعمارية المغرضة قد جندت سياسيتها ومفكرها ومنظريها، ووظفت شتى العلوم، من تاريخ وجغرافيا وطب، وانثروبولوجيا

...إلخ⁽¹⁾، من أجل أن تعرف الكثير عن هذا "العربي" المقاوم الشرس للتمكن من إخضاعه والسيطرة عليه.

لقد اعتقد الاستعماريون الفرنسيون أن المدرسة ستسهل عليهم عملية الاستعمار، وعملية إدماج الجزائريين، لكن انقلب السحر على الساحر، فالأهالي المتعلمون بالفرنسية، والذين تمكنوا من هذه اللغة، شعروا بالوعي أكثر، فراحوا يعتززون بشخصيتهم العربية الإسلامية، وراحوا يدافعون عنها أمام هؤلاء الفرنسيين الغزاة علانية، فهذا رمضان الطاهر، طالب في الطب، يقول: "إن علوم الطب هي علومنا، علوم المسلمين"⁽²⁾.

فعلا، إن هذه النصوص تكشف الكثير عن مظاهر المجتمع الكولونيالي، فهي فضلا عن إظهار فئات الأوروبيين المتنافرة غير المندجة مع بعضها، وغير المنسجمة، تبين كذلك المجتمعين الأوروبي والجزائري المنفصلين والمغلقين عن بعضهما البعض.

لم يكن الكتاب الكولونياليون يتمسكون بالإنسانية ولا بالموضوعية تجاه الأهالي، إلا بالقدر الذي يخدمون به مصالح فرنسا، فهم لا يتحدثون عن الأهالي إلا بمنظار المصلحة الفرنسية.

فما مقدار التهديد الذي يشكل هؤلاء الأهالي على الوجود الفرنسي في الجزائر؟ وما الفائدة التي تجنيها فرنسا من سياستها المعتمدة تجاه الأهالي؟

إن دليلهم إلى الهدف في الكتابة هو "مصلحة فرنسا" الأم لا غير، حتى وإن كان انتقادهم الجزئي لبعض التصرفات والسلوكات للمظاهر الاستعمارية، فإنهم لا يختلفون عن الاستعمار في المبدأ، فهم يتفقون

¹ يمكن الإشارة إلى مؤلف القبطان نيفيو، الصادر في 1845، النظام الديني لدى المسلمين الجزائريين، مطبعة غيوت، باريس 1845.

² لويس لكوك : خمسة في عينك، باريس، ريدر، 1925، ص. 137.

على عملية الاستعمار ويعتبرونها إيجابية ولكنهم يختلفون في الكيفية والشكل على مختلف طبقاتهم.

لم تكن معركة القلم أقل ضراوة وشراسة من معركة السلاح، فكانت المعركة ذات شقين، كان القتل والنهب والتخريب من جهة، وعملية الطمس والتزوير والتشويه وقلب الحقائق من جهة أخرى، عمليتان تسيران متوازيتين. لقد نظمنا أنفسنا في الجزائر خلال قرن، من غير اعتبار للإسلام، وقد خربنا الكثير من الأشياء، التي لا تعوض⁽¹⁾

لقد رصدت فضيلة يحيى أوي هذه المعارك القلمية، في شهادات عنها، في دراستها الموضوعية القيمة الدقيقة، بعنوان المجتمع الكولونيالي من خلال الرواية الكولونيالية، لقد تتبعت بدقة الدور الذي قام به هؤلاء الكتاب في قيادة وتوجيه السياسة الفرنسية من أجل المحافظة على "جزائر فرنسية" منذ بداية الاحتلال، منذ ميسات وبيراترند إلى إلى بومي وليس لوكوك وألبيرت كاموس... وغيرهم.

لقد صدق حدس الكتاب الفرنسيين، في أغلبهم، في أن السياسة الفرنسية المنتهجة في المستعمرة، والمعاملة القاسية والفظظة للكولونيين، ستولد رد فعل قوي لدى الأهالي، وسيدفعون بالأوروبيين بالقوة ويقذفون بهم إلى البحر من حيث جاؤوا⁽²⁾، وكان هذا التنبؤ صادقا، فقد انفجرت الثورة في وجه هؤلاء الطغاة، ودحرتهم بالقوة إلى ما وراء البحر. وكانت التجربة الاستعمارية فاشلة بشهادة كتابها.

عبد الحميد سرحان

¹. كلود موريس - روبرت "كتاب ملحد، الأيام المغربية إفريقيا، أبريل 1930.

وقد كتب الأيام المغربية من قبل الأخوين طارود.

². لويس بيرتراند: على طريق الجنوب، باريس، فايارد، 1936، ص. 58، 59، 71، 72.

من أجل فهم أفضل للمجتمع الكولونيالي لجزائر ما بين الحربين، تلجأ المؤلفة إلى الآداب الكولونيالية الموظفة كمصدر، كشاهد، وكوثيقة.

إذا كان من المهم دراسة ردود وانعكاس و مضاعفات معارك النضال و الصراع السياسية على الحياة الاجتماعية للبلد. فإن الأهمية ليس بأقل، لتحليل تطور أفكار الروائيين الكولونيين، تبعاً للنزاع الكولونيالي.

ليست لهذه المناولة أهمية إلا بقدر ما تعكس من اتخاذ المواقف والأحكام المسبقة المتحيزة لطبقة معينة من أوروبيي الجزائر، التي يمثلها الكتاب الكولونياليون.

منذ نهاية الحرب العالمية، كان أوروبيو الجزائر المتجمعون في الحركة الجزائرية [1919-1935] يقترحون "الملاحظة الدقيقة والصحيحة للفعل والواقع الجزائري كهدف. ماذا يلاحظ؟ أن هؤلاء الكتاب الكولونيين، المنحرفين والمتحولين عن الأهداف الأصلية الأولية قد ارتبطوا أساساً بتطور ما كان يسمى في ذلك الوقت "بالقضية الأهلية".

إن صعود الوطنية الجزائرية، وتطور المسار المزدوج الذي يشتعل ويعتلج ويتحرك في حضان الجماعة الأهلية: استرداد الشخصية والهوية الوطنية والتجنيد الاجتماعي، ومطالبة النخبة الجزائرية بتنظيم، من جهة أخرى، للسلطة السياسية، كانت تلك هي المواضيع المعالجة من قبل بعض الكتاب الأوروبيين الذين لم ينجحوا ويوفقوا في إخفاء وتغطية قلقهم وانزعاجهم. كيف راح هؤلاء الكتاب يبررون عملية الاستعمار؟ كيف راح المعمرون يواجهون الأضرار والتهديدات لامتيازاتهم ومصالحهم وسيطرتهم و تسلطهم؟

المؤلفة. فضيلة يحيى اوي متحصلة على شهادة الكتوره من الدرجة الثالثة، دكتوره في تاريخ الأدب في القرن العشرين. تدرس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجزائر.

الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين

ترجمة: عبد الحميد سرحان

المؤسسة الوطنية للكتاب - GAM

"هل ترى الموج يرتفع عندما يلامسه الطير بجناحه؟ إنها صورة مروره بإفريقيا..."

(الأمير عبد القادر إلى بيجو 1840)

مدخل:

إن اقتراح استخدام الرواية الكولونيالية، منتوج التخيل، في الغالب، الموضوع الأدبي المرمز جدا كمصدر، شهادة قادرة على المساعدة على التعرف على المجتمع الكولونيالي لجزائر ما بين الحربين العالميتين قد يبدو غريبا. فعلا، إن الأدب الكولونيالي قد اشتهر بإخفاء بعض الأوهام، وبعض التحيزات، في نقل و نشر نوع من الإيديولوجية. حقا، كلنا نعرف أن أكثر هذه النصوص تعكس الإيديولوجية الكولونيالية التي ستكون لنا، فضلا عن ذلك، الفرصة لاستعراضها. لكنها تقدم للقارئ مشهدا حقيقيا عن مختلف المظاهر الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية للجزائر آنذاك. إن التاريخ الذي يسمح بتقويم نوعية بعض التأويلات والتفسيرات للكتاب الكولونيين، يكشف لنا أن الإيديولوجية والحقيقة تتواجدان متداخلتين بدقة في كتاباتهم.

إن هذا العمل قد ارتبط بدراسة للمحتوى ومقاربتنا هي ذات طابع اجتماعي تاريخي، وليست لسانية ولا حتى دراسة شكلية للتراكيب.

إن عنوان المصنف: *الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين العالميتين*، يفضي إلى التحديد بدقة ما هي المعطيات الإنسانية للجزائر في هذا السياق بالضبط وإلى أن مثل الدراسة التاريخية هي التي تكشف عنها: هناك طائفتان اجتماعيتان تتجاوران، وتنفصلان عن بعضهما البعض بماضيتهما، بأصلهما، بثقافتهما، وكان القاسم المشترك الوحيد الذي بقي بينهما هي علاقة السيطرة كما كان يريدتها العقد الكولونيالي. كان المجتمع الإسلامي الذي شهدت بالتأخر الديمغرافي فيه في نهاية القرن 19 كل الوثائق التاريخية⁽¹⁾، المهتز بعنف في قواعده الاقتصادية وبنياته الثقافية والدينية، ضحية سياسة مدبرة من الظلامية والعبودية قد راح يتأكد أكثر وأكثر ويقف في مواجهة "الطائفة" الأوروبية. كانت هذه الجماعة الأوروبية في الواقع مؤلفة من شعوب مختلفة، ومن أصول بالنسبة للأغلبية منها، من الدول الأوروبية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط.

¹ Mostefa Lacheraf: Signale que les épidémies et famine ont provoqué plus de 500.000 victimes pour la seule année 1867_1868 , *l'Algérie nation et société* , Français Maspero ,Paris ,1965, p. 180.

Le Compte d'Hérison :Officier français écrit : « commencerons-nous par tuer les gens et ruiner le reste pour essayer de les civiliser après ? Ce sont des traditions néfastes ... La grande guerre est fine, on ne signale plus face à face , on se traque à vingt contre un , on s'assassine et ce ne sont pas toujours les barbares qui paraissent les plus impitoyables. »

Préface VII et VIII, *la Chasse à l'Homme , Gurre d'Algérie*, Paris , Ollendorf, 1891.

وقد كان منذ نهاية الحرب العالمية الأولى العديد من العناصر الأوروبية قد أحسوا بالحاجة إلى تناول الريشة والكتابة . كانوا كلهم يحددون لأنفسهم غاية بأن يؤسسوا أعمالهم على " الملاحظة الدقيقة " لواقع الجزائر (1). لماذا كان هذا الشغف لازما بالنسبة للجزائر؟

لو أخذنا التاريخ معكوسا وعدنا إلى السنوات الأولى للعدوان الكولونيالي لوجدنا أن الجزائر كانت لا تزال "تتنشق قليلا" . لكنها كانت موضع البحث . إنه زمن " علم العراقة العسكرية : " كان يراد " الاستعلام عن الخصم الذي كان العراك معه آنذاك". إن المقاومة الضارية المتلقاة من جراء التوغل الفرنسي كانت تقتضي بحثا معرفيا "صادقا بقدر الإمكان" عن هذا الذي يسمى من الآن فصاعدا "العربي"، وعبر البحوث (2) المنجزة عن التاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبية كان الاتجاه إذن إلى اكتشاف الجزائر.

وابتداء من 1871م، بعد سقوط الإمبراطور الثاني، وانهزام الجيش الفرنسي أمام بروسيا، بعد نهاية عصيان سكان قرى قسنطينة، ومع التنصيب التدريجي للمستعمرة، انصب اهتمام الكولون على كل ماله علاقة بالأرض. كان الهدف إذن هو الإسراع في مسار تمليك الأرض و"الأدب" الذي يأتي بعد هو في الأساس إنتاج تشريعي . ثم إن تطورا قد وقع في الكتابة عندما كانت فرق الجيش الكولونيالي تهاجم جنوب البلاد. إن الجزائري "موضوع البحث" يصبح "موضوعا للوصف". إن أسلوب الاستعلام المباشر، هذه المرة من قبل مهندسين وموظفين، وجامعيين يستمر بثبات، لكن

¹ . Robert Randau : « Constitution de l'association des écrivains algériens » Afrique, septembre 1940.

² . On peut signaler l'ouvrage du Capitaine Neveu ,paru en 1845, ordre religieux chez les Musulmans de l'Algérie, imprimerie Guyot, Paris ,1845.

إلى جانب وبالموازاة فإن "آدابا كاملة عن الجنوب" كانت تتطور يسميها الكثير مع نوع من التحقير بـ "آداب الغريب" (1).

هذه الآداب تكشف عن اجتذاب و استمالة المثقفين القادمين من فرنسا من أجل "الحياة في الجنوب"، من أجل الفضاء الصحراوي لكن أيضا من أجل البنى التقليدية للمجتمع الإسلامي التي هي في طريق التدمير التدريجي من قبل الاستعمار، فهم ينددون من غير أن يوجدوا أية علاقة لهذا مع النظام الكولونيالي، أما القيمة الوثائقية لضيق و عوز الأهالي ونقائص وفساد العنصر الكولونيالي، فإن أعمال اوجين فرومانتان (صيف في الصحراء 1857)، وألفونس دودي (تارتاران دو تاراسكون 1891) مثلا، فهي يقينية، لا تقبل الجدل . لا يمكن أن تنسى الإشارة إلى حكايات الأخوين جيروم وجان طارود الذين كانا يعبران فيها عن امتعاضهما وقلقهما أمام "المساعي الظلامية" المخالفة للحضارة العربية الإسلامية: لقد نظمنا أنفسنا في الجزائر خلال قرن، من غير اعتبار للإسلام، وقد خربنا الكثير من الأشياء التي لا تعوض أبداً. (2)

وهناك كتاب آخرون مازالت أسماؤهم ترتبط ارتباطا قويا بالتاريخ الأدبي للبلد: اندريجيد، بالنسبة لرواياته المتعلقة بالجزائر (الأطعمة الأرضية 1897) و (الأخلاقي 1902) و (أمينتاس 1905)، نصر الدين ديني،

¹ . Cf. au chapitre III : l'Algérianisme .Il s agit des écrivains coloniaux qui se nommaient eux_mémés les « Algérianistes », confisquant ainsi le terme algérien,

² . Claude Maurice- Robert : « Un livre impie : Heures Marocaines » Afrique , avril 1930.

Heures Marocaines est un ouvrage écrit par les deux frères Tharaud , « ils furent documentés par l'apostat Hadj Dinet » commente l' écrivain colonial CM, Robert .

الرسام الشهير، الكاتب بالاشتراك مع صديقه سليمان بن إبراهيم با عمر (مشاهد وصور الحياة العربية)، وإليزابيت إيبيرهاردت¹ التي اعتنقت الإسلام تماما مثل نصر الدين ديني.

وقد كان نوع آخر " من الآداب " ينشأ في نفس الوقت في الجزائر، كتب من قبل بعض المعلمين في الأغلب ينعتون بمعرفتهم بالإسلام وبالحضارة العربية الإسلامية إسلامولوجي ابتدائي بالأحرى يهتم فجأة بالأساطير وبالحياة المرابطية وبالممارسات السحرية، ويهرول إلى استنتاج بعض الخلاصات عن الإسلام. " هذا الاكتشاف للجزائري من جديد، في نهاية القرن التاسع عشر، أفضى إلى إنكار ورفض أبعاده الاجتماعية والثقافية والدينية، وإلى التصور الإيديولوجي للتأخر. " إن التخلف الذي يتهم به المجتمع الأهلي قد يعود إلى الذهنية المتخلفة للإسلام.

وكان الأمر يتعلق بالخط من قيمة الجزائريين وبتمجيد "فضائل" الوافدين المهاجرين. إنه عهد الانتصارية الأوروبية في المستعمرة. فالرواية الكولونيلية نشأت في هذا السياق الإيديولوجي لبداية القرن. وقد لفت الانتباه آنذاك ثلاثة منشدين مداحين من الطائفة الأوروبية هم: لويس بيرتراند، أوغيست روينيت، وروبير راندو. وهؤلاء لا يهتمون في أعمالهم إلا بالسكان القادمين حديثا. أما السكان الأهليون فلا يوجد لهم ذكر ولا يشار إليهم إلا تبعا

¹ . Isabelle Eberhardat : arrive en 1897 à Bone (Annaba) en Algérie , se marie en 1900 à El - Oued avec Slimani Hanni, Maréchal Spahi selon le rite musulman . Elle meurt en 1904 à Ain Sefra emportée par les eaux d' un oued crue . Son ouvre : Dans l'ombre chaude de l' Islam ,Notes des routes , Contes et paysages ? au pays des sables , Pages d' Islam, Amra le forca,l' Anarchiste, Trimardeur, Mes journaliers... Sa vie suscite de nnomreuse biographies discordantes jusqu'à aujourd'hui .

لردود أفعالهم تجاه الاستعمار. وبالعكس، فإن أغلبية الكتاب الكولونيين لفترة ما بين (1920—1930) كانوا ينادون كلهم بإدراج الجزائر كـ "موضوع وحيد للتأمل" وبالاهتمام بكل "القوة المعنوية والفكرية" التي كانت توجد فيها. ويتجمعون في عام 1921 حول روبير راندو، جان بومي، ولويس لوكونك، لتأسيس حركة أدبية تسمى آنذاك "الجزائريانية"⁽¹⁾ لإنشاء، في نفس هذه السنة جمعية الكتاب الجزائريين ولإصدار مجلة، هي المجلة الإفريقية في 1924، هذه الحركة ستنهار منذ 1935، وستعوض بـ "مدرسة شمال إفريقيا للأدب" حسب ألبير كاموس.

ويكشف جان بومي عن أنه كان يفتش عن الجزائر العميقة، جزائر الشارع، جزائر المدينة والبلاد، جزائر الإنسان والأرض⁽²⁾. وكان يحدد الأهداف منذ ماي 1925 للحركة الجزائرية "فالآداب الكولونيالية لهذه الأيام تضطلع أخيرا بالمعرفة الجهورية للإنسان في تنوع سلالاته وأصله"⁽³⁾. ويعلنون "استقلاليتهم الجمالية" لأنهم يقولون "إن الآداب المنتجة من قبل المستعمرة هي وحدها تعبر عن المستعمرة". وبالتالي فهم يطالبون بممارسة من غير تقاسم "حق تحليل الجزائر" إذ من هم هؤلاء الآخرون الذين يصدرن أحكاما على هؤلاء الكتاب الذين كانوا يستطيعون أن يتكلموا أفضل عما كان يعينهم والأهالي الذين (أو الذين بجانبهم) كانوا يعيشون معهم، ويشدد

¹ . Gabriel Audisio situe la fin de l' algérianisme en 1937. « l' Algérianisme a cessé d' exister en 1937, remplacé par l' Ecole d' Alger » ,dans « la Littérature algérienne », Afrique, mars 1945.

² . Jeean Pomier : Chronique d'Alger (1910-1957)ou le temps des Algérianistes , Paris, Pensée universelle,1972,p.15.

³ . louis Lecoq : « journaux et revues », Afrique, mai 1925.

روبير راندو ليوضح جيدا "حسن نيته" في أن الفرنسي يريد أن يتفهم الأهلي كما يتمنى أن يكون مقيما من نفسه .

ويتعلق الأمر إذن بالنظر (إن كان يمكن أن يسوغ لنفسه هذا التعبير) في أي إجراء كان هناك الاتصال والتواصل بين الرجال من المراتب الاجتماعية الاقتصادية، ومن المراتب الثقافية والدينية المختلفة في إطار تنازعي مثلما هو في السياق الاستعماري؟ لقد حاولنا تجميع الأكثر من المعلومات الممكنة عن أصل الكتاب، عن حياتهم وعن التأثيرات التي كان يمكن مكابقتها والخضوع لها لكي يتمكنوا من التمتع هم أنفسهم، وتقويم وتحليل نصيب الموضوعية في وصفهم للمجتمع الجزائري، إن كان هناك... وكذلك جانب الأفكار الجاهزة، والأحكام المسبقة، التي لم تكن تنعدم في كل آداب من هذا النوع.

وبالتصدي لهذا الموضوع، قد لا حظنا أنه لم يكن أي عمل قد وضع خلاصة لمجمل هذه الفترة والتي يمكن أن تعطينا بيانات وتوضيحات عن العلاقات المتعقدة (أو لا) من قبل كلتا الطائفتين. كان يجب علينا إذن تجميع أولا مدونة للروايات الممثلة النموذجية ومنها تعيين الحدود.

كان من اللائق الرجوع قليلا في الزمن للتوقف عند عمل أوغيست روبينيت (كاجايوس)، المستحسن جدا في المستعمرة، حتى بعد 1920 . إنها أحداث و فكاهاات قصد التسلية، تدعى عادة أثرا مرمقا (تأليف أدبي مكتوب بسرعة) موقع بالاسم المستعار ميزات . هذه المرمقات قد ظهرت ابتداء من 1896. ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك، أن يجهل لويس بيرتراند القادم في عام 1891، إلى الجزائر، والذي، كان منذ 1898 يصدر بعض الصفحات عن *دم الأجناس في مجلة باريس*، هذا الذي قد مارس تأثيرا كبيرا جدا على "التيار الجزائرياني" وحتى لا نحتفظ في هذه الدراسة، برواياته،

الموضوعة عن الجزائر. فإن روبر راندو مع لويس لوكوك، شارل هاجل، شارل كورتان ماكسيميليان، هيلر راوول سطيفان، مارت كلوزيار، أنا كولونا ... هم من بين الكتاب الذين ولدوا في الجزائر، الأكثر تمثيلا للتيار الأدبي موضوع الدراسة .

و من جهة أخرى، فقد بدا لنا من الصعب الاحتفاظ بالروائيين المولودين بالجزائر وحدهم وأن اللجوء إلى بعض المؤلفين المولودين بفرنسا مثل فرديناند، دوشين، ألبير تريميفوس، لوسيان فافر، جبريال أوديزيو، كان ضروريا . إنه للتوضيح بدقة منذ الآن أن ألبير تريميفوس ولوسيان فافر لا يمكنهما أن يكونا مدججين في الجزائرية، حتى ولو كانت هذه الأخيرة قد نالت *الجائزة الكبرى للأدب للجزائري*، على مجمل عملها عام 1931 . و ينتمي جبريال أوديزيو أكثر إلى *مدرسة الجزائر* تماما مثل إيمانويل روبلس، ألبير كاموس، جيل روي ...

هذه الفترة لما بين الحربين العالميتين كثيفة على الخصوص بالكتابات المعالجة الواصفة للأهالي، و للأوروبيين، وللإسرائيليين، وبالتالي كل السكان المتعاشين المتجاورين بالجزائر. لكن هذه النصوص مثلما كنا قد استدرجنا والمجذبنا إلى التحقق منها، ليست أعمالا فنية أو قصصا خيالية صرفة بوجه من الوجوه . فكل الروائيين يتبنون الجنس الأدبي، في الواقع، لنقل رسالة، للشرح والتأويل، للبرهنة، وللتديد . كانت الروايات تظهر كونها، بالنسبة للأغلبية منهم وخاصة أولئك الكتاب المولودين في الجزائر، قضايا و أطروحات حقيقية حيث تلعب المقدمات، فضلا عن ذلك، دورا مهما جدا . فهذه الكتاب الأوروبيين واضح : في اغتصاب الكلمة "الجزائرية"، باختيارهم تسمية تجمعهم الأدبي "الجزائرية" عاملين على تسمية هم

أنفسهم "الجزائريون" وهكذا يدعون تمثيل هم أنفسهم على مستوى المعجم "الجزائر أمام فرنسا". يريدون فعلا وصف الجزائر لفرنسا "يحدد بدقة، جان بومي و، لأجل ذلك يقول" يجب أن نكون متيقظين حذرين من تطور الجزائر، من تقدمها، حتى في تدرجها لقيادتها ". كان يجب عليهم لفت انتباه الحكومة الفرنسية إلى كذا أو كذا مشكلة محكوم عليها من قبلهم أنها مهمة حتى توجه السياسة الكولونيالية لفرنسا . ومن ثم فأدبهم بقصد السياسة .

ولفهم معلمات ودوافع عدد كبير من هؤلاء الكتاب أفضل ينبغي الرجوع إلى التاريخ الرسمي للجزائر، غداة الحرب العالمية الأولى، والتأكد من أن التاريخ غني بالأحداث السياسية . فعلا فإن عاملا جديدا يدخل سنة 1919) بالضبط : فالجزائريون يعلنون بحزم وجرأة عن إرادتهم في المشاركة في حياة البلد ويطالبون بمشاركة أكثر اتساعا في السلطة السياسية، ويقدم "الشبان الجزائريون " وعلى رأسهم الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر، إلى الحكومة الكولونيالية برنامجا طلبيا، البرنامج الذي كانوا قد أطلعوا عليه في جوان 1912 بعنوان "بيان الشبان الجزائريين"¹)

لقد كانت الحكومة قد فرضت عليهم واجبات (لقد كانوا قد حاربوا إلى جانب فرنسين في أوروبا) كانوا يطالبون بما كانوا يعتقدون أنه، في هذا الوقت بالذات من حقوقهم، يعني في التمثيل، لكن مع احترام قانون الأحوال الشخصية . كانت ردود الأفعال، في الوسط الكولونيالي قوية ونشطة . كان الأوروبيون عبر ممثليهم المنتخبين، يرفضون، طبعاً، كل تغيير في التشريع القانوني وفي ظروف المجتمع الإسلامي . إلا أن هؤلاء الأوروبيين الذين كان لهم التفوق الاقتصادي والسياسي لا يقبل المنازعة، قد أحسوا باستمرار،

¹ . CF. chapitre II : contexte historique.

بأنهم مهددون ديموغرافيا. إن السلطة السياسية التي كان الشبان الجزائريون يطالبون باقتسامها، كانت تسمح لهم حتى الآن بضمان سيطرتهم و سيادتهم . وإذن فالسؤال الذي يطرح : كيف راح الكولونياليون يواجهون " هذه التهديدات" ضد تفوقهم ورجحانهم؟ ألم يكن الروائي الكولونيالي بصفته عضوا في هذه الطائفة الجشعة، ذات الامتياز، يجب عليه أن يقوم برد فعل معارض هو نفسه بالذات، ومن ثم ينورنا عن رأي واعتقاد مواطنيه؟ ألم يكن ممثلا فاعلا في "اللعبة التي كانت تلعب في الجزائر" ولاسترجاع أقوال أحدهم، لويس لوكوك. هذا القلق الذي يدعو إلى التيقظ والانتباه أكثر، نحن هنا في بلد السبي، في موطن الحرب وليس في أرض النعيم الدائم"⁽¹⁾ . فالمشاكل السياسية التي تنمو و تتطور حينذاك بالجزائر سوف لن يكون مشعورا بها بجدة أكثر من قبل الكتاب الكولونياليين .

لقد كانت نهضة حقيقية للمجتمع الإسلامي تحدث وتم داخل البلد فقد أخذت عدة مسارات تتحرك وتنطلق، إذ فضلا عن مسار استرجاع الشخصية والهوية الوطنية، كان يضاف ما للتعبئة الاجتماعية من قبل إنشاء النادي المشترك المتعدد (2). ففي فرنسا سنة (1923)، كان نجم شمال إفريقيا يطالب باستقلال الجزائر...ومن ثم فإنه من المهم ملاحظة انعكاس و صدق هذه المعركة السياسية عن الحياة الاجتماعية للجزائر و التقصي عبر

¹ . louis lecoq : « L'algérie en France », Afrique, 28 juin 1927.

² . il y a toujours et une « conscience politique » et une certaine forme de lutte politique chez les Algériens, ne serait- ce qu'à travers les pétitions adressés au gouvernement de Paris ; celle notamment de 1887, « œuvre des représentants de la population de Constantine, parlant au nom de toute l'Algérie ». cette pétition réclamait « le respect de la personnalité juridique et des institutions algériennes ». La pétition. Etait provoquée par « un projet de loi relatif à la naturalisation en masse des Algériens ». CF, p. 185.

الكتابات، كانت إيديولوجية الروائيين قد تطورت تبعا للنزاع الكولونيالي . إن دراسة هذه الإيديولوجية ليست لها أهمية إلا بقدر ما تعكس نوعا من أفكار الطبقة الأوروبية التي يمثلها الكتاب.

كيف راح الكاتب الكولونيالي، المستعمر إجمالا، أمام التظاهرات من خلال نبرة "الأخر" المستعمر، يبرر عملية الاستعمار ويسعى إلى "التهدئة وإعادة السلم" لنوع من العلاقات الاجتماعية "حيث جرد أحد الشركاء في المأساة الكولونيالية مما هو أكثر أساسيا ألا وهي، الأرض؟ ماذا كان يقدم له تعويضا عن ذلك؟

إنه في هذا الوقت بالضبط، الذي تتدخل فيه الأساطير والتي ينشأ فيه الاستيهام والتصور التخيلي . كان البعض من الكتاب قد شعروا بالحاجة إلى تبرير "الحضور الفرنسي في الجزائر". فقد لجأوا إلى المسلمة التي تقول حسبها "إن الحضارة الغربية هي أرقى من الحضارة الإسلامية" وإلى "خرافة" الرسالة التحضيرية للمعمرين ". نحن نؤكد إذن من أن بعض الأعمال المكرسة للاحتفال بـ "تمجيد الإمبراطورية" إلا أنها كانت تعبر عن انشغالات وقلق كاتبها بشأن "مصير المستعمرة" وكذلك الاحتجاجات ضد "البعض من مظاهر عملية الاستعمار" وبالتالي، فإن هؤلاء الكتاب لم تكن لهم الثقة التامة في نجاح المؤسسة الكولونيالية وهذا، منذ غداة الحرب العالمية الأولى . إنه في هذه الاحتجاجات وهذه الانشغالات التي تكمن، بالنسبة إلينا، أهمية الموضوع.

وتعبر أغلبية الكتاب الكولونيين عن غيظها وحنقها إزاء صلابة المقاومة من قبل الحضارة العربية الإسلامية لكل استيعاب وإدماج. فهذا هو لويس لوكوك ينصح ويعظ "يجب التقليل والتخفيض في معاكسات ومعاداة العرق، واللغة، والدين، التي تمثل خطرا على احتفاظ فرنسا بالجزائر"، في المجلة

الإفريقية، لتاريخ 28 جوان 1927⁽¹⁾. كان روبير راندو، ولويس لوكوك، وجان بومي، وشارل كورتان، وآخرون أيضا يوضحون وبينون عشية الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر: إن الإسلام يشكل "سدا منيعا يتعذر عبوره" من أجل بلوغ هدف "الانصهار" و"الاندماج التام لكل السكان" يجب التذكير بأن المشكل السياسي، في الجزائر، في ذلك الوقت، كان يدور حول موضوع الإدماج بعد التخلي (أولا) عن الشخصية الإسلامية. إن المعركة على الإسلام "كما كان يقترح هؤلاء الروائيون على الحكومة الكولونيالية سوف لن يكتب لها النجاح. ويعبر روبير راندو في سنة 1936، ليست مقاومة الجزائري لكل إدماج فحسب. بل أيضا تصميمه وعزمه في مواجهة المعمر في روايته الأستاذ مارتان، البورجوازي الصغير للجزائر وهكذا " فالأمر يتعلق بسلوك تام شامل قوي فعال ماكر ومخاتل لشعب يريد أن يثبت ويستمر ويؤكد بإبهام وبغموض أنه آخر لكي يبقى هو ذاته"⁽²⁾. وأمام هذه المعاينة وهذا الإثبات، لهذا لم يكن الكتاب الأوروبيون يعترفون بانهم مهم ويقترحون الفتح والغزو المعنوي خارج كل تبشير ديني⁽³⁾. إنه دائما في نفس هذا النسق من الأفكار الذي يتحدث فيه رجال من السياسة، مثل موريس فيوليت، الحاكم العام للجزائر في سنة 1927، ومؤلف كتاب هل ستعيش الجزائر؟ الصادر في 1927، يتحدث عن الفتح وعن الغزو المعنوي والفكري الذي يجب أن يمر عن طريق "فتح وغزو المرأة المسلمة" لأنه "إذا مسنا قلب

¹ . louis Lecoq : l'Algérie en France, Afrique, 28 juin 1927.

² . R. Randau : Le professeur Martin, petit bourgeois d'Alger, Alger, baconnier, 1936.

³ . louis Lecoq : l'Algérie devant la France » Afrique 28 juin 1927.

المرأة الأهلية، يكتب موريس فيوليت سوف نكون قد ربحنا المعركة نهائياً⁽¹⁾.

أما لويس بيرتراند، فهو يستبعد الأهالي منهجياً من حقل ملاحظاته. إن لم يكن هذا لملاحظة لا مبالاتهم واستخفافهم أو عداوتهم تجاه الأوروبيين: إنه من الواضح بالنسبة إليهم أننا نتواجد أقل من حصى الطريق " (2). كان يفسر اتخاذ موقفه في كتابه " *على طريق الجنوب* " هكذا " منذ غداة وصولي، أحسست فيه العدو، عدو لم يكن لينسى شيئاً، لم يصفح عن شيء والذي لم يلق السلاح ... قد يجب يوم يعدون معهم... لم يكن للأهالي إلا رغبة في أن يقذف بنا في البحر المتوسط... " ⁽³⁾. ويفضل بيرتراند الفرار والابتعاد عن حقيقة الراهن، ألا وهي " العداوة الخرساء للجزائريين " ويعتصم في إعداد وتهيئة الأسطورة . نحن نكتشف التعبير عن هذا الشعور العدواني، عداوة الأهالي وعداوة لطبيعة " في أغلب كتابات الكتاب المولودين بالجزائر.

إنه من أجل العزم على تجنب هذا المصير، مصير كونهم يلقون في البحر " وهم جاهزون تماماً للإقامة على أرض لم تكن أرضهم يسعى الكتاب الكولونياليون ويفتشون عن الشرعية الاستعمارية لها. إن الأوروبيين القادمين إلى الجزائر ليس لهم لا ماض، ولا مستقبل، ولا لغة، ولا ثقافة. لقد راح الكتاب أولاً وقبل كل شيء يصنعون لهم ماضياً، وشجرة نسب، انطلاقاً من "جد مشترك" سيكون مختلفاً حسب المؤلف. فبالنسبة لبيرتراند إنه

¹ . Maurice violette : l'Algérie vivra-t-elle ? Paris, F. Alcan, 1931p. 260, (notes d'un Gouverneur général).

² . Louis bertrand : africa, Paris, Albin Michel , 1933, p. 156, paru en 1905, sous le titre : Le jardin de la mort, Paris Ollendorf.

³ . louis Bertrand : sur les routes du sud, Paris, Fayard, 1936, pp. 35,58-59, 71-72.

"اللاتيني". وبالنسبة لراندو، إنه "مغربي عربي مسلم" متمسح من دون أدنى شك. ثم بعد ذلك راحوا يصطنعون صيرورة ومصيرا، وعلى الأوروبيين أن ينصهروا ويندمجوا ويشكلون "وطناً" يختلف حسب الأحلام والتخيلات والاستيهامات لكل واحد منهم.

وسيتعلق الأمر "بالوطن الجزائري" بالنسبة لبريرت راندو وألير كامو، لإفريقيا اللاتينية، بالنسبة للويس بيرتراند، "الفرنسيستانية"، بالنسبة لجان بومي... كل واحد يجهز ويرسم كذلك نظريته "لشعب جديد" انطلاقاً من "سلالة عرقية" وحسب خياراتهم السياسية. بالنسبة لروبير راندو، فالجزائري "الأكثر تمثيلاً للوطن الجديد" قد يكون *قصارو*، الكولون الكبير. أما لويس بيرتراند فيختار (بييت)، ممثلاً للشعوب اللاتينية الجديدة، أرباض وضواحي الجزائر، لاسيما باب الوادي. ويمتدح ويوصي لويس لوكوك وجان بومي بالتوسع الكثيف في تعمير المستعمرة من قبل فرنسيي فرنسا الذين قد يكونون حسبهم الضامن الكفيل للاحتفاظ بفرنسا في الجزائر⁽¹⁾. الكلمة الجزائرية، لقد رأيناها، قد صودرت وحجزت لصالح الأوروبيين. أما الجزائري فقد أصبح "العربي"، "الأخر". وتكون خطوة جديدة قد قطعت خلال ما بين الحربين العالميتين. فالأوروبيون يصبحون بريشة بيرتراند الأصليين⁽²⁾، فيما بعد بريشة كامو الأهالي⁽³⁾. يتعلق الأمر في الواقع،

¹ . Louis Lecoq : « l'Algérie en France » Afrique, 28 juin 1927.

² . Louis Bertrand : Préface à notre Afrique, Paris, monde moderne, 1927.

³ . Albert Camus : Actuelles III, chroniques algérienne 1939-1958, Paris, Gallimard, 1958, p. 202. « D'après l'importance et l'ancienneté du peuple français, les Français d'Algérie sont, eux aussi, et au sens fort du terme, des indigènes. »

الوهمي الذي كان يترجم الحصر والقلق الذي كان يعانيه الكتاب بشأن مصير المستعمرة.

إلا أنه يجب التحديد بدقة أن عددا من الكتاب مثل لوسيان فافر، وألبير ترميفيس، ولويس لوكوك، وجبريال أوديزيو لم يلتحقوا بهذه النظريات . فهم ينددون عبر كتاباتهم ببعض الأمراض المتولدة، حسبهم من خلال عملية الاستعمار. فهي إذن أعمال احتجاج كانت تبدو في الوقت نفسه، حيث كان القيام بالاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال، وحيث كان الارتياح الذاتي يخيم في الوسط الكولونيالي الأوروبي. ولم يضع هؤلاء الكتاب في أي وقت من الأوقات النظام الاستعماري نفسه موضع الاتهام لكنهم كانوا يقترحون بعض الوصفات ذات الطابع الاقتصادي وكانوا ينسبون الكل إلى السياسة الرديئة لفرنسا فيما يخص عملية الاستعمار، مفترضين من ثم أنه يمكن أن تكون سياسة جيدة كولونiale.

كان تقريبا كل الكتاب حوالي 1930، يطورون ويكتبون عن موضوع التجميع لمختلف سكان الجزائر، في إطار "عملية إنسانية أخوية"، وهكذا كانوا يأملون إفراغ المشكل الأساسي: المواجهة بين المعمر والمستعم، والوضعية الاستعمارية ذاتها. كان البعض من الكتاب يحاولون الحوار غداة الذكرى المئوية. في حقيقة الأمر، إنه طعم وجذب حوار سيدور قصيرا. لم يكن الكلام أبدا عن "الإنسانية والأخوة"، في المجلات الثقافية الصادرة بالاشتراك: فقد راح الجزائريون كما أشار إليه جيدا، راندو نفسه، في عام 1936، يؤكدون على "أختلافهم مع الأوروبيين ليقوا هم أنفسهم".

إن المثقفين الجزائريين يريدون أن يسترجعوا تاريخهم، وماضيهم ويواجهون كذبة فظة جارحة لمختلف نظريات الكتاب الكولونيين لاسيما

نظرية إفريقيا اللاتينية" لبيتراند. لقد ألح وأكد ابن باديس، ومبارك الميلي، وتوفيق المدني حتى لا نذكر إلا هؤلاء، على أصالة الجزائري. ويوصون الشباب الجزائري بأن لا ينسوا أبدا شخصيتهم العربية الإسلامية. وكانت هناك آداب مقاومة كتبت بالفرنسية بالتأكيد لكن من قبل جزائريين، فهي آداب وطنية تتطور وتنمو وتتوسع.

الفصل 1 الآداب الكولونiale

أ / تقديم الكتاب الكولونialeين.

1/ كتاب "جزائريانيون" وغير "جزائريانيين" (1895 – 1935).

ينصب بحثنا على فترة ما بين الحربين العالميتين، غير أنه ينبغي علينا أن نرجع إلى أوغيست روبينيت المعروف بالاسم المستعار ميسات، الذي كان قد مارس تأثيرا مؤكدا على عدد من الكتاب. لقد ولد ميسات بالجزائر (1862 – 1930). كان مفتشا للمساعدة الاجتماعية، وصحافيا بجريدة الفانوس (la lanterne). نشر من سنة 1895 حتى سنة 1920 سلسلة طويلة من المرمقات (pochades) حيث يسرد بالتفصيل المغامرات قاصدا مضحكات بطله كجايو، العنصري، المناهض للسامية، والديماغوجي. هذه المرمقات تكون في الواقع، نوعا من الأخبار والوقائع عن الحياة الكولونiale. فهي تعكس الذهنيات المتنافرة غير المتجانسة لأروبيي الجزائر وللأحداث التاريخية لهذه الفترة. فمثلا، إحدى كراسات كجايوس المناهضة لليهود، الصادرة في 1898، إذن، في فترة الأحداث المناهضة للسامية في نهاية القرن في الجزائر، كان يبتغي "مسليا". إذ أن كجايوس يساند صراحة العمل ضد اليهود. ويلاحظ جبريال أوديزيو أن هذا البطل "قد يكون داعرا، سيئ التربية، ولكنه تجسيد حيوي للدهماء الفرنسية الجديدة في الجزائر... وعلاوة على ذلك فهو نموذج شعبي حقيقي"⁽¹⁾.

1. Gabriel Audisio : *Cagayous de Musette* , texte recueillis par Gabriel Audisio, Paris, Balland, 1972, p.11.

2. G. Audisio : *Jeunesse de la Méditerranée* , Paris , Gallimard, 1935, p.113.

وكجايوس هذا يستعمل الكلام الشائع العادي للشعب الفرنسي المبرقش الجديد، خليط من الفرنسية، والعربية، والاسبانية، والمالطية. فهو يجسد إذن شخصا محمدا بدقة، هو شخص ضواحي الجزائر العاصمة. ويدعى كجايو أيضا "سلاويتش"، و"التافه"، ومع ذلك فهو يعتبر نفسه "أرفع" من المسلمين ومن الإسرائيليين، إذ كيف يفسر إذن الفعل الذي يختار به صحيته دائما لـ "دعاباته" من بين الأهالي ومن بين الإسرائيليين؟ بالإضافة إلى ذلك، فبطل ميسات هذا، في السؤال "هل أنتم فرنسيون؟" كان لابد من أن يرد "لا، جزائريون نحن".⁽¹⁾ وهذه الإجابة تدرج في الاتجاه "الانفصالي" الذي ظهر آنذاك في الجزائر. فقد كان بعض الفرنسيين يريدون "استقلال الجزائر" على طريقة جنوب إفريقيا. كان على جبريال أوديزيو أن يقوم، في 1931، بإنجاز **منتخبات كجايوس** (المعاد طبعها في 1972 بباريس). بالنسبة لهذا الأخير كما بالنسبة لميسات، ولويس لوكوك، "الجزائر هي خلاصة الأجناس والأعراق المتاخمة، إنه البلد حيث يختلط ويمتزج السكان القادمون من بلدان المتوسط". كتب جبريال أوديزيو في 1935. يقول: "هناك انصهار طبيعي للدم"⁽²⁾. كان لكجايو، رجل الأقدام السوداء، من باب الوادي تعاطف واستئناس مع العديد من الكتاب الكولونيين، مثلا، تعاطف بول أشارد الذي نشر **رجل البحر**، في 1931⁽³⁾ و**سلاويتش**، **الاستحضارات الجذابة للحياة الجزائرية في 1900** المنشورة بالجزائر 1941 وأعيد طبعها في باريس في 1972⁽⁴⁾. وفيما يخص **رجل البحر**، يشير جيل روي الكاتب الذي ولد

². G. Audisio : Op.cit,p.113.

³. Paul Achard : *L'Homme de Mer* , Paris, Edition de France, 1931.

⁴. Paul Achard : *Salaouetches, évocation pittoresque de la vie algériens en 1900*, Alger , Baconnier ,1941, Réédition Paris Balland ,1972.

في 1907، في روفيقو بضواحي الجزائر العاصمة، في 1933، في مقاله أناس الجزائر، إلى ملحمة كجايو: "إنني إفريقي التي قد جددت له هذه الصفات الفظة زمنه حيث كان طفلا صغيرا يحك على حافة الرصيف ويسن منقارا عصيا لخدروف"¹. فعلا، فإن بطل رجل البحر، المدعو تيتوس (1931) هو أخ كجايو (1895). وما بين الاثنين كان سيولد ببيت العشيق في 1901، بطل لويس بيرتراند، وبروميتش، في 1921، بطل لويس لوكوك، وباكايلا، الموصوف من قبل لوسيان فافر في باب الوادي، 1926.

سنعالج بعض الروايات للويس بيرتراند لأن هذا نفسه قد شارك في الحياة الأدبية للمستعمرة ما بين الحربين العالميتين. لقد كان في 1921، رئيسا شرفيا لجمعية الكتاب الكولونيين. وقد أسس هو نفسه، في نوفمبر 1924، جمعية الروائيين الكولونيين. وقد اعتبره الجزائريون كموجه لهم وقد كانوا هم يتوسلون إليه لكتابة مقدمات كتبهم. وهكذا حرر في 1925 مقدمة لمنتخبات ثلاث عشر حكاية جزائرية أو إفريقيتنا وفي 1932، مقدمة رواية لويس لوكوك مولوش. وأصدر رواية الفتح في 1930، ليعرض، مرة أخرى، إيديولوجيته الاستعمارية بجرأة... فضلا عن ذلك، فإن أغلب كتبه قد أعيد طبعها ابتداء من 1920 - 1925. وكانت حديقة الموت الصادرة في 1905، قد أعيد طبعها تحت عنوان أفريكا، في 1933. وقد انتخب في الأكاديمية الفرنسية لكرسي موريس بباريس.

ينحدر لويس بيرتراند (1866 - 1941) من أسرة بورجوازية من اللورين. قدم إلى الجزائر يوم 29 سبتمبر 1891، وشغل منصب أستاذ للأدب بثانوية الجزائر العاصمة. كان قد تأثر بعصره وتشبع بالإيديولوجية

¹ Jules Roy : « Choses et gens d'Alger...Cagayous », Afrique, mai 1933, p.99.

الامبريالية وبالأفكار التوسعية التي كانت قد انتشرت بفرنسا في نهاية القرن. ويبين روبير راندو أن فرنسا، غداة ارتكاسات 1870، وجدت في توسعها الكولونيالي تعويضا عن مرارة، الهزيمة⁽¹⁾. وبالفعل، ففي مقدمة كتابه مدن الذهب (1927)، يؤيد بيرتراند نحن نمثل إفريقيا الأكثر علوا، والأكثر قدما. إن النصب الرمزي للبلد، ليس المسجد، إنما هو قوس النصر⁽²⁾. فهو لا يتحرج في أن يقفز بمرح عدة قرون من تاريخ الجزائر، في البحث عن خرافة، وراثه اللاتين. يفهم من ثم أن هناك نوعا من الانتقام من لوران، من هذا الذي قد أصبح منهزما.

وكان للويس بيرتراند قراءات مفضلة: إفريقيا الرومانية (1895) لجاستون بواسير، الجزائر الرومانية (1890) لجوستاف بواسير، الجزائر في العهود القديمة (1903) لاسطيفان جيزل... كل عمله الروائي سيكون متأثرا أيضا بعمل جوستاف فلوير، عن طريق الرواية سلامبو خاصة.

إنه المعجب المتحمس لمنظار العنصرية ومؤلف المقالة عن عدم تساوي الأجناس الإنسانية، مواطنه ومعاصره جوزيف آرثور جوبينو. نشر هو نفسه في 1909، كتابا عنصريا: "وهم الشرق"⁽³⁾ حيث يعبر عن ازدرائه وعن إحساسه بالتفوق إزاء العربي والمشرقي. فهو يهتم كثيرا بمؤلف نيتش. إن مقدمات بيرتراند هي مهمة بقدر أهمية رواياته، بشأن دراسة إيديولوجيته لأنها تسمح له بعرض مذاهبه وعقائده.

¹. R.Randau :Littérature coloniale , hier et aujourd'hui », Revue des Deux-Mondes,15 juillet 1929, p.416.

² .L.Bertrand :Les villes d'or ,15^e édition, Paris , Artheme Fayard, 1927,préface,p.9.

³ . L. Bertrand : Mirage oriental, Paris , libraire académique,Perrin,1909.

وعلى مستوى التاريخ الاجتماعي للعلاقات الإنسانية بين الطائفتين، فإن عمل لويس بيرتراند كان سلبيا لأنه غير وارد بالنسبة إليه "الخلط والمزج بين الوافدين والأصليين"، هو الذي كتب "أذوق عذوبة خاصة في الشعور بالقرب مني برجل من جنسي وعريقي ومن دمي"⁽¹⁾. لا يسعه إلا أن يوصي ويدعو الأوروبيين "للاتحاد ضد العدو". لأن لويس بيرتراند كان له الإحساس بالعدو، وكان يلاحظ إذن أن "الأهالي كانوا هناك ملاحظين لهم ومنتظرين ساعتهم"⁽²⁾. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يحدد بدقة في روايته على طريق الجنوب، دائما "بأنهم (الأصليون) كانوا يخبثون ويتخفون في الأرض كذلك، سواء كان ذلك خوفا من الغازي المجتاح، أو سواء ازدراء واستخفافا من الكافر والفرع والكره من الاتصال به"⁽³⁾. يستبعد ويقصي بيرتراند الأهالي من وصفه للمستعمرة، إلا أن كل سطر من رواياته يكشف عن "خوفه" أمام "عدوانية بكماء" لهؤلاء الآخرين حتى نعيد تعابيره الخاصة.

وبالمقابل، يتحمس لويس بيرتراند لإعمار المدن بالأوروبيين عبر العديد من مؤلفاته : (السينا) 1901 دم الأعراق (1899)، بيتيت العشيق (1901) أعيد طبعها في 1920 تحت عنوان بيتيت وبالتهزار، امتياز السيدة بيتيت جاندي 1912، تظهر بشفافية إذن "عبادة العمل" و"روحانية الشعب الجديد". فعلا، سيكرس بيرتراند وقته خاصة لإنشاء إعمار مختلف جديد على "الطريقة الأمريكية": "أريد أن أربط كل اقتلاد، يقول، مؤسس حقا

¹ .L. Bertrand :Les villes d'or, 15^e éd., Paris, Arthème Fayard,1927, préface, p.9.

² . L. Bertrand :Sur les routes du Sud, op.cit.,p.71.

³ . L.Bertrand :Op,cit, p.58.

وطنا إفريقيا مقترحا على أناس هذا البلد (فرنسا) نماذج من الأفعال الرجولية⁽¹⁾. كان يعمل على خلق هذا الإعمار من انصهار واندماج السلالات و الأعراق اللاتينية في البوتقة الجزائرية، يوضح بدقة . إنه في الواقع، رسم لعالم كامل من الضواحي والأرباض متكون من قبل مهاجرين اسبان، ، مالطيين، مازالوا لم يندمجوا تماما مع الفرنسيين. لقد أفرغ جهده في وصف ذهنياتهم، طريقة معيشتهم وتصرفهم . ونعثر على "آثار" هذا العالم المركب في روايات لوكوك، في بروميتش والقبائلي 1923 خاصة، وفيما بعد في كتب لوسيان فافر، وفي كتب جبريال أوديزيو، هذا الأخير كان عليه أن يكتب، في 1936، فيما يتعلق بمثلي العنصر الأوروبي بيبيت وبالتهزار : " نذل ونغل " سمتان تبدوان ملازمتين في هذا الامتزاج والاختلاط من السلالات، ومن التصرفات ، ومن العادات، ومن المفردات اللغوية و اللهجات⁽²⁾.

ويندد بيرتراند بـ (مدرسة الغريب) هذه التي اهتمت كثيرا بالأهلي، حسبه، وبالمقابل، فهو يريد، كشف صور " حقيقية " للكولون . فهو يوسع ويطور إذن موضوع " الرجولية"، فالكولونياليون في امتياز السيدة بتيت جاندا: هم عمليون أفضاظ، جشعون " فهم يقاومون ضد عداوة الطبيعة و عداوة الناس". كانت هذه الخصائص والسمات ممجدة مفخرة في كتاباته و ستنتعش من قبل عدد من الكتاب حتى سنة 1954.

يقول روبير أرنود (1873 – 1950) قد ولد راندو بالجزائر . ويمثل مع لويس بيرتراند " سلطة ثقافية وأدبية " مؤكدة في المستعمرة. إنه اشتراكي، ماسوني. فهو يتصرف تصرفا مخالفا للتيار الأدبي الدخيل والغريب، مثل

¹. L.Bertrand : La Cina, 1ère partie , Lettre XXXIX,p.98.

². G.Audisio :Op, cit., p.109.

بيرتراند، ومثل كل الكتاب الجزائريين بعد ذلك، من جهة أخرى . إنه ضد "آداب المحطات، السياحة...⁽¹⁾ . وقد قام روبر راندو بمهام في موريتانيا وفي إفريقيا السوداء " . ثم كان محافظا إداريا للبلدية المختلطة في الجزائر، فحاكم المستعمرات في 1919.

يتموقع إنتاجه الأدبي بين 1900 — 1937 . ينشر روايات الوطن الجزائري : الكولونياليون 1907. الجزائريانيون 1911، كسارد البربري 1921، الفوضويون 1925، ثم كتابان آخران : المعلم الكبير 1929، والمكتشفون 1929 . هذان الكتابان الأخيران لا يعنيان الجزائر بصفة خاصة . ويكتب في 1920 مقدمة لمنتخبات ثلاثة عشر شاعرا جزائريا، كانت هذه المقدمة بيانا حقيقيا للحركة الجزائرية، وسيوضح بدقة أكثر جان بومي مؤسس هذه الحركة مع روبر راندو ولويس لوكوك ،أن راندو هو الذي أبداع الكلمة "جزائرية"⁽²⁾ . وكان روبر راندو يحي في هذه المقدمة "مولد شعب جديد فرنسي بربري" . يقول، مصنفنا يجب أن يكون مبدئيا هو التمثيل الأكثر فعليا للروح البربريسكية " . ويرز راندو الأصل البربري للكولون كسارد . إنه حول هذا الأصل الذي يجب أن يكون الانصهار والإدماج لكل الناس الذين يعيشون في الجزائر . "نحن جزائريون وليس باريسيين" يكتب روبر راندو في روايته، الجزائريانيون . فروبر راندو إذن هو مثل ميسات "استقلالي انفصالي" . فهو يصف في مؤلفاته الكولونياليين والأهالي . فهو مع "خليط و مزيج" من سكان مختلفين لكن "المسار سيكون طويلا" حسبه هو . وستكون النخبة المسلمة مدججة شيئا فشيئا في "السلالة الجزائرية الجديدة"،

¹ .R.Randau : « la vie intellectuelle dans le Nord de l'Afrique », revue Afrique ,septembre 1940.

² . J.Pomier : Chronique d'Alger ou le Temps des Algérienistes , 1910-1957,P.U.,Paris, 1972.p.16.

قد تكون هذه السلالة فظة، جشعة، عملية، صريحة، يقرر⁽¹⁾ . فعلا، فالكولونياليون قد وصفوا في رواياته بالعنف والجشع، والفساد . فبطله الكولون الكبير جوس لافيو، في كتاب الكولونياليون كان قد أصبح غنيا بفضل "تدبيرات متمحلة"، إنه مساعد من قبل روحه المتفانية القايد أحمد، الجشع مثله . ويعمل جوس لافيو على مناداته "سي قدور"، لغته مطعمة و منحوتة من كل اللهجات : عربية، بربرية، صبيرية، رطانة... "إنه شرس، شهواني شبق، عديم الذمة . إنه شهادة قيمة ، معتبرة عن ذهنية الملاك الكبار للأرض . هذا الكولون يشبه، للكولون لويس بيرتراند . إن الإيديولوجية هي شيء آخر تماما: "فهو يدعم دور الاستعمار، ليس تكوين رعايا ولكن تحويل الأهلي وتغييره إلى عقليته الخاصة، بحصافة وفطنه، وبقدر من الذكاء." لأن "الجزائريين"⁽²⁾ ليسوا محامين خطباء لكنهم دعاة"⁽³⁾ . إذ أن روير راندو كونه محافظا إداريا للبلديات المختلطة، كان قد أدرك الحقائق الاجتماعية الاقتصادية للرجل الأهلي، وكان يعرف أن الأراضي التي يفلحها بطله الكولون الكبير جوس لافيو، وكسارد جاءت من المشروع الكبير الواسع، لنزع الحيازة للجزائريين من قبل السلطة الكولونيالية في القرن التاسع عشر.

غير أن روير راندو يريد أن يعطي المثال للصدقة "الفرنسية البربرية"، ويكتب بالتعاون مع كاتب مسلم، حاج هو عبد القادر (هذا الذي كان عليه أن يتخذ اسم فكري فيما بعد) رواية **رفقاء الحديقة** في 1933، و بحثا عن المعاشرة والتواصل الفرنسي المسلم، ويرى إيمي ديبى أنه "أسمى كتاب

¹ .R.Randau : « Pour un recueil de poemes à paraître », Afrique, juillet-aout 1940.

² . Les Européens seulement.

³ .Ibid.

مثالي للصدقة الجزائرية"⁽¹⁾. " في الوطن الفرنسي اللائكي الكبير كان على روبر راندو أن يكتب في 1940، كل الأعراق و السلالات ستكون مجتمعة متحدة، أوروبيون وأهالي سيكونون متساوين في القيمة الإنسانية "⁽²⁾

في سنة 1936، ظهر مؤلفه الأخير، الأستاذ مارتان، بورجوازي الجزائر الصغير . كانت السنة مهمة، إنها سنة الجبهة الشعبية والمؤتمر الإسلامي . سنقدم بعض التفاصيل التاريخية الدقيقة التي تثير كتابات وردود الأفعال للروائيين في نهاية هذا العرض العام. وقد أخبر راندو في هذه الرواية عن القلق و الضيق الذي أحس به آنذاك في الجزائر . فبطله، الأستاذ مارتان يملك حدسا و شعورا، منذ أن وفد على الجزائر، بحضور عجيب، غير عادي معادي، خفي، غير منظور، ذكي، ينتظر حوله ساعة التكشف "

وهكذا يوجد التعبير كذلك عن هذا الإحساس " بالعداوة الصماء" في حكاية روبر راندو في 1936.

لقد شارك راندو مشاركة نشيطة في إنشاء الحركة الجزائرية، في 1920. وقد كان لويس لوكوك، مؤسس جائزة الأدب الجزائري في 1921، يريد أن تمنح له في نفس السنة من إنشائها (حسب الرسالة الشخصية لجان بومي) . ويعترض بعض الكتاب الآخرين لأن راندو "انفصالي استقلالي"، وهم إدماجيون". وبالمقابل، فروبير راندو هو أول رئيس لجمعية الكتاب الجزائريين (ج. ك. ج) 1921⁽³⁾. كان لا بد له من الحصول على جائزة

¹ Aimé Dupuy : L'Algérie dans les lettres d' expression française ,op.déjacit., 96.

² . R.Randau : « La vie intellectuelle dans l'Afrique du Nord »,Afrique septembre 1940.

³ . Nous écrivons dorénavant A.E.A., l'Association des Ecrivains Algériens.

الأدب الجزائري عن مجموع عمله في 1929⁽¹⁾. وقد أقام راندو من 1920-1930 إقامة قصيرة بالجزائر. في 1931، كان مندوبا مع جان بومي ولويس لوكوك من قبل مؤتمر الكتاب الكولونيين. في المعرض الكولونيالي لسنة 1931 لباريس، حسب عمود "الصدى" في المجلة الإفريقية، مارس 1931. وقد حصل كل الثلاثة على مداليتين ذهبيتين، واحدة عن "النشر" والأخرى عن "المبادرة العامة و الخاصة، من أجل التنمية الفكرية و الأدبية".

وقد كان روبير راندو ينشر مقالات في المجلة الإفريقية ابتداء من 1930. وفي جانفي 1933، صدرت رواية المتشرد في إفريقيا الشمالية. إنه العرض عن خمس صفحات لمختلف الروايات، منذ روايات ميسات 1900 إلى روايات لوسيان فافر 1930. وستتبع مقالات أخرى، لاسيما سنة 1940، "من المتوسط الجديد في الآداب الجزائرية، (جانفي 1940) من أجل مصنف شعري للجزائر في الظهور" (جويلية - أوت 1940) "الحياة الفكرية لشمال إفريقيا" (سبتمبر 1940) و"تأسيس جمعية الكتاب الجزائريين" (سبتمبر 1940). وكان جان بومي هو نفسه يخصص في المجلة الإفريقية مقالا طويلا، في جويلية 1929 "روبيرت راندو، فنه وفكره".

لقد ذكرنا حاج هو عبد القادر (أو فكري)، كاتب مسلم باللغة الفرنسية، جزائرياني مثل صاحبه روبيرت راندو. كان أيضا اشتراكيا وماسونيا. وقد ولد بمليانة في 1891 وتوفي بالجزائر في 1953. كان عبد القادر فكري أستاذا بالجامع الكبير بالجزائر، ومدرسا باللغة العربية، لقد

¹ . Jean Pomier : Op.cit.,p.22.

مارس كذلك مهنة الترجمة الشرعية بمستغانم (وهران)⁽¹⁾ . ينشر الزهرة زوجة المنجمي في 1925، مقدمة من قبل ألبيرت بوفورفيل، أخ الطاوس في مختارات ثلاثة عشر حاكيا جزائرا، إفريقيتنا في 1925 أيضا، يساهم في المجلة الإفريقية المؤسسة في 1924. لا بد من أن يكون أحد الأهالي القلائل مع جميلة ديبش، كاتبة أخرى باللغة الفرنسية، مؤلفة عزيزة 1955، وليلى فتاة الجزائر 1947، محمد زروقي، رابح وأكلي الزناتي، مؤلفو بوالأنوار 1945⁽²⁾ . وقد شارك البودالي صفير، في هذه المجلة⁽³⁾ . كان فكري عضو (ج. ك. ج) . وقد أصبح حتى نائب الرئيس لـ (ج. ك. ج) هذه، في 1927⁽⁴⁾ . إنه مع "إدماج الأهالي" . في إطار احترام شخصياتهم لأن " اليهودية والمسيحية والإسلام يقول فكري هي ثلاث محطات و مراحل في ارتقاء الإنسانية نحو الكمال"⁽⁵⁾ . إنه فارس ميدالية الشرف، ضابط المعارف العامة. حصل على تنويه من أجل زهرة و رفقاء الحديقة التي كتبت بالاشتراك مع راندو حين توزيع الجائزة الأدبية الكبرى للإمبراطورية في 1940 . وقد ترك غير مطبوع رواية معجزة مراد وحكايات وقصصا عربية القط والأخرس⁽⁶⁾ .

ربما ، كان ينبغي التوقف ، قبل مواصلة التقديم لمختلف الكتاب الذين وقعت دراستهم، على (ج. ك. ج)، وعلى جائزة الآداب الجزائرية والمجلة

¹ . Revue Afrique : Rubrique « Echos :Abd-el-Kader Fikri », novembre 1933.p22.

² . Zenati :Rabah est le père d' Akli ,ils écrivent Bou-El-Nouar. Le Jeune Algérien , Alger , La Maison des livres ,1945.

³ . Jean Pomier : Chronique d'Alger (1910-1957),op, cit.,p.26.

⁴ .Afrique : « Echos », mai 1937.

⁵ .J.Pomier :Op, cit.,p.26

⁶ .J.Dejeux : Article « Hadj Hamou (Abdelkader) »,Recherches biographiques , Algérie ,n°0, novembre 1983.

الإفريقية، وعلى الرجل أخيرا الذي سير المجلة خلال ثلاثين سنة 1924 — 1955، يعني جان بومي (1886 — 1977). هذا الأخير قد ولد في تولوز، شاعر وصل إلى الجزائر، في 1910، لاستلام مهامه في عمالة الجزائر. والتقى هناك بلويس لوكوك، المولود، في الجزائر، "رفقتنا من بداية 1910 — 1914، قد تجددت بعد 1918 : وقد قربت بيننا العلاقة الثلاثية، شاعر، موظف، اشتراكي" يتذكر جان بومي في رسالته .

وينتهي شهادة اللسانس في الحقوق في 1918، ويعيش ما يقرب من خمسين سنة في الجزائر 1910 — 1957. يجمع مذكراته في عمل مثقف ومهذب جدا، وقائع الجزائر (1910 — 1957) أو زمن الجزائريين، ويؤسس في 1921 مع لويس لوكوك، وروبير راندو وشارل هاجل (1882 — 1938)، ألبيرت تيست (1888 — 1943) ليو لولو (1876 — 1944)، ألفريد روس الكاتب العام لجريدة "صوت الكولون"⁽¹⁾ لوران روبا، شارل كورتان، وآخرون أيضا ... **جمعية الكتاب الجزائريين** (1921)، المرؤوسة أولا من قبل روبرت راندو، ثم لويس لوكوك وأخيرا من قبل جان بومي . و يشارك كل الكتاب المذكورين تقريبا في **منتخبين** . الأولى ، **منتخبات ثلاثة عشر شاعرا جزائريا** ، 1920 مقدمة من قبل روبرت راندو، تجمع، شارل كورتان، ديليبازو، راوول جينيللا، أنيت جودان إيدموند غوجون، شارل هاجل، ما كسيميليان هيلر، لويس لوكوك، ليو لوبس، لوسيان بيلاز، روبرت راندو، ألفريد روس، ألبيرت تيست . **المنتخبات الثانية لثلاثة عشر حاكيا جزائريا أو إفريقيتنا** 1925، مقدمة من قبل لويس بيرتراند، في المقدمة ك" باقة من الأصليين "تجمع حكايات عبد القادر فكري، سطينان شاسيرا،

¹ . Roland Ferdj : La Revue Afrique 1924-1960, thésede 3° cycle, Bordeaux III, 1979.

مارث كلوزيار، مارسيال دويل، شارل هاجل، ماكسيميليان هيلر، لويس لوكوك، ريموند ماريغال، لوسيان بيلاز، جان بومي، روبرت راندو، ألفريد روس، راوول سطيفان .

كثيرا ما سنعثر على أسماء هؤلاء الكتاب أسفل المقالات في المجلة الإفريقية . هذه المجلة التي تأسست في 1924، تزعم أنها "نشرة للنقد وللأفكار" و"لسان مشترك للأفكار الشخصية" . وستكون الدعامة " لفكرة الجزائر نوعا ما"، وستكون على الخصوص مجلة الجزائرية، الحركة الأدبية التي أطلقت من قبل روبرت راندو، جان بومي، ولويس لوكوك حوالي سنة 1919 - 1920 . كانت عقيدة "المجموعة الجزائرية" تدافع عن مبدأ إدماج كلي لمختلف السكان . وقد التحق شارل عقون يهودي، اشتراكي، وبيار فالان شاعر من أصل فرنسي (بوجولي) إلى الجزائريين بعد 1925 . وقد قدم شارل عقون "مقتضيات طرق الجزائريين" في جويلية 1929، في مجلة الإفريقية. ويحدد بيار فالان "الروح الجزائرية" في نوفمبر 1931 في المجلة الإفريقية دائما . ينشر بيار فالان الكاهنة القبائلية، مجموعة حكايات من منشورات سويرون، الجزائر، فيفري 1932.

توجد جائزة الآداب الجزائرية الممهورة من قبل مفوضية الكولونيين، حسب، جان بومي، منذ جانفي 1921، " بفضل جهودات لويس لوكوك"⁽¹⁾، سيكون جان بومي هو مقرر الجائزة منذ 1934. " كل شيء جاهز لدخولنا إلى الملعب، يصرح جان بومي، هناك جمعية، مجلة (وسيلة تعبير)، جمهور مستنفر ومجد بواسطة الإعلام والإشهار السنوي للجائزة الأدبية، تبقى العقيدة"⁽²⁾. يحدد جان بومي المناقشة ابتداء من أول

¹ . J.Pomier : Op.cit.,p.13.

² .J.Pomier :Op.cit.,p.14

عدد للمجلة الإفريقية في أبريل 1924، تحت عنوان "الجزائريانية". إنها مناقشة يقول، للفتح وللدعم أمام كل رجال بلدنا ... وأمام فرنسا⁽¹⁾. وقد ركز موضوع التفكير و التأمل على الجزائر "نحن نعتبر من خاصتنا كل متحرك ميدان الجزائر"⁽²⁾، يصرح في وقائع الجزائر. لقد كلف بومي بالأرشيف العمالي بعمالة الجزائر خلال ثلاث سنوات، خلال الحرب العالمية الثانية معوضا من قبل بيار بويير⁽³⁾.

ويوقع كل الكتاب الجزائريين مقالاتهم في المجلة الإفريقية، ما عدا عندما يتعلق الأمر بالمقال المكتوب بالاشتراك. نجد (إ) بالنسبة للمجلة الإفريقية و(ج.ك.ج) بالنسبة لجمعية الكتاب الجزائريين.

سنذكر، سريعا، النشاطات الأدبية الملحقة للجزائريين. كان قد سبقت هناك منذ 1919 مؤسسة كتاب شمال إفريقيا تنشط من قبل لويس لوكوك، شارل هاجل، و ألفريد روس (المشارك المستقبلي في تأسيس ج.ك.ج) و من أصل "تونسي". ويرى جان بومي أن هذه المؤسسة تقوم بوظيفة مزدوجة والتي كان عليها فيما بعد أن تلح وتؤكد على الخصوصية الجزائرية⁽⁴⁾ وتقع القطيعة مع مؤسسة كتاب (F.N.) في 1921، ويؤسس "الجزائريون" جمعيتهم الخاصة.

ويؤسس جان بومي مع الشاعر ألبرت تيسست وبيار فالان الدار الكولونيالية للشعر في 1933⁽⁵⁾. يصبح جان بومي رئيسا لصالون الشعراء

1 . J.Pomier :Op.cit.,p.15.

2 . J.Pomier :Ibid.,p.15.

3 . J.Pomier :Lettre citée,mai 1974.

4 .J.Pomier : « Cain, roman par Luis Lecoq »,Afrique janvier 1931.

5 . Afrique : Rubrique « Echos », La Maison coloniale de Poesie, novembre 1933.

الجزائريين الذي كان قد تأسس في 1934⁽¹⁾. ويسير أحد أعضاء (ج. ك. ج.) الكسندر شوفالي مؤسسة الفنون الجميلة⁽²⁾. في 1936، يطلق روبرت راندو صالون الكتاب الجزائري⁽³⁾. في 1936 دائما تنشيط (ج.ك.ج.) "أيام الخميس الأدبية" لدار الكتب، بالجزائر، بمكتبة يديرها التولوزي، السيد صوبيرون⁽⁴⁾. (ج.ك.ج.) تجتمع بمقر لجنة التحرير لمجلة الجزائرية "لسان حال المكتب الجزائري للعمل". تصدر هذه المجلة كل شهرين وتكلف بتنظيم "عمل الدعاية والإعلام والتنمية". والمقال الوحيد الذي وجدناه عن الكاتب الفرنسي فيرديناند ديشين صدر عن المجلة الجزائرية، نويل 1961.

وقد كانت بعض المجلات الأخرى في علاقة ضيقة مع (ج.ك.ج.). إلا أن حياتها كانت وقتية، سريعة الزوال. إنها حال المجلة اللاتينية الصادرة من 1921 إلى 1924 المستوحاة من المواضيع البيتراندية، والمسيرة من قبل القبطان قاردي⁽⁵⁾.

ويشير جان بومي أيضا إلى مجلة شمال إفريقيا 1921 - 1922 المسيرة من قبل الكولونيل سيمون قوديشوت، عضو جمعية الكتاب الجزائريين. كانت لجنة تحرير هذه المجلة هي (ج. ك. ج.).

وهكذا، كما كنا قد رأينا، فإن النشاط الأدبي لجان بومي كان واسعا كثيفا. ما هي أفكاره؟ كان عضوا في رابطة حقوق الإنسان، اشتراكيا، ماسونيا.

¹ J. Pomier : « Un Salon de Poetes à Alger », Afrique, mars 1940.

² Afrique : Rubrique « Echos », juillet-aout 1952.

³ Robert Randau : « La vie intellectuelle dans l' A.F.N. », Afrique , septembre 1940.

⁴ J.Pomier : « L'expression du livre algérien », Afrique, juin 1936.

⁵ J.Pomier : Op,cit.,p.13.

يشارك في منتخبات ثلاثة عشر حاكيا جزائريا 1925، ينشر خاصة أشعارا: أشعار للجزائر 1966، بسبب الجزائر 1966، مسيرة إلى النجم 1971، لون المعجزات (خمس حكايات 1969) ووقائع الجزائر 1972. يكتب العديد من المقالات والمواضيع النقدية من 1924 إلى 1955 في المجلة الإفريقية.

يعبر جان بومي، اللائكي، الملحد عن الأمل في توحيد ثقافي، وحدة الروح والثقافة. "فالأديان يجب أن تكتفي بميدانها الخاص بها، يصرح في فيفري 1925 في المجلة الإفريقية⁽¹⁾. لقد كان أنفصالياً مثل روبيرت راندو: "ستصبح جمهورية فرنسا الشريك لفرعها: الجمهورية الجزائرية"⁽²⁾.

فهو لا يذكر الشعب الصغير للضواحي والأرباض ولا الكولونياليين، من جهة أخرى، لكن الموظفين. هؤلاء على العموم، هم مرسلون من فرنسا. فهم يمثلون "الهيئة الأكثر وطنية بالتأكيد. إنهم الضمان للوجود الفرنسي في الجزائر"⁽³⁾.

وستفقد المجلة الإفريقية "حيويتها و قدرتها" منذ الذكرى المئوية: ويريد جان بومي أن يؤسس عبثا الجائزة الجزائرية للرواية في باريس 1954. وكان لابد على جائزة الآداب الجزائرية أن تختفي في نفس السنة. وقد كان الحائز الأخير لهذه الجائزة مارسال موسي، ولد بالجزائر في 1920. كان معلما بباريس. وقد منحت له الجائزة على هذين الكتابين: الدم الساخن، وعرقول أو الأرض الموعودة 1953⁽⁴⁾. وقد رجع جان بومي إلى فرنسا

¹ .J. Pomier : « Le Maraboutisme »,Afrique , fevrier 1925.

² . J.Pomier :Op.cit.,p.27.

³ .J. Pomier : « Luis Bertrand et l'Algérianisme »,Afrique , janvier 1942.

⁴ . Dépêche algériennedu 23 février 1954.

في جوان 1957. لقد كان الفائز بجائزة الأكاديمية الفرنسية (جائزة طوارق لمجموع عمله) في 1966.

وقد كان الفائز بالجائزة الأولى للآداب الجزائرية في 1921، هو فيرديناند دوشين، الذي ولد في 1868 في هوت فيان (فرنسا). كان، في 1895، مستخلفا لقاضي دلس (الجزائر). في 1932، كان مستشارا بمحكمة الاستئناف بالجزائر. فهو إذن قاض، عمل أكثر من ربع قرن في "البلد". فهو يكتب من غير احتمال في النشر أبدا. كان قليل الشهرة، مغمورا، عندما استلم الجائزة، في 1921، عن رواياته : البرابرة، تاميلا، على وقع الخطوات البطيئة للقوافل، رواية مداح. وقد توجهه مدينة باريس الجائزة الأدبية الجزائرية للذكرى المئوية، في 1931. كانت رواياته عديدة، نذكر منها : عند أقدام جبل الخلود 1925، قمير امرأة عربية 1926، الركبة، قصة ثار قبائلية 1927، منى، كسير وكسكس 1930. كان عليه أن ينشر أيضا حتى عام 1946. في عام 1927، كان ضمن لجنة الدراسة التشريعية في الحكومة العامة. لم يكن عضوا في (ج.ك.ج) ولم ينشر في المجلة الإفريقية. تعلم دوشين "العربية، والقبائلية، من أجل اختراق المتقاضي تماما، يقول، للقبض عليه من وراء جدار مزدوج، تصنع، موارد، تجاوز الآخر : الذي يختلف عنك في الكلام" (1).

لقد قام بـ "تصوير أخلاق الأهالي". يريد أن يمنح حكاياته "قيمة وثائقية فريدة من نوعها، لا تضاهى". "إنها ليست جملة موضوعة في فم رجل أهلي، لا يمكن أن تكون مترجمة إلى العربية المستعملة، يكتب دوشين (2). فهو يظهر قوة و ترسخ العادات في الجبال القبائلية، عقبة

1 . Marcel Giraud : « Ferdinand Duchéne, magistrat algérien, homme de lettres », Algeria , Noel, n°61,p.27,32et54.

2 .Ibid : Marcel Giraud, article cité,Algeria, Noel 1961, n°61,p.56.

وتعارض العناصر التقليدية الأهالية للسلطة الفرنسية وتطور النخبة الثقافية التي، " يمكن أن تكون مدججة، يصرح". ويجتهد أيضا في أن يرسم " صورا شخصية" للنساء المسلمات في كتاباته التي لا تخصي. في منى، كسير وكسكس 1930. كان عليه أن يصف " عالما كاملا، يهوديا اسبانيا موريسكيا " الذي هو تسجيل لنوع من حقيقة المجتمع الكولونيالي في الجزائر الفرنسية في المدن الكبرى . فيرديناند دوشين كان من أجل الاتحاد الأخوي في الجزائر الفرنسية " (1) . ويشير مراسل جيروود كاتب المقال عن فيرديناند دوشين إلى أحد الكتب الأخيرة للكاتب : **قصة طاليطهو العجيبة الشاحبة** (غير موجودة) حيث يعرض دوشين تأملاته، يعني "الاستحالة على المسلم أن ينصهر و يذوب في رجل واحد، القديم والجديد، الشرق وأوروباً أن يصبح بشكل ما في تأليفية، توقيعية". كانت هذ إذن معاينة فشل وإخفاق وخيبة قام بها فيرديناند دوشين.

كتاب آخرون ولدوا بالجزائر، هؤلاء، قد كرسوا كتبهم للكولونيين وإلى البادية الجزائرية : إنها حال شارل كورتان، وآنكولنات ولويس لوكوك . وقد ولد شارل كورتان بالبليدة في 1885، وهو "جزائرياني"، عضو (ج.ك.ج)، منذ 1921 . كان قد حصل من قبل على جائزة القصة في تونس (2) . نحن لا نعرف عنه إلا ما قاله لنا جان كازيناف في مقال ليوم 1928، منشور بمجلة شمال إفريقيا المزيينة بالرسوم وتعليقات المجلة الإفريقية . وقد حصل في 1927، على جائزة الأدب الجزائري عن روايته " الغابة التي أكلت الرجل " . ينشر حكايتين إفريقيتين: في بلاد الكسل 1933. ومقهى المور 1939.

¹ .Idée développée dans au pied des Monts éternels,analyse des romans.

² .Jean Cazenave : « Le Grand Prix littéraire d'Algérie : Charles Courtin » revue Afrique du Nord illustrée, n° 352,28 janvier 1928.

وكان جان بومي وروبيرت راندو، في مقال مشترك صادر في المجلة الإفريقية في جانفي 1940، يصرحان "شارل كورتان كأحد الباعثين الموجهين الطليعيين للآداب الجزائرية"¹. وقد كان كورتان معارضا "لإدماج الأهالي"، إلا أن خطابه لم يبتعد كثيرا عن أولئك الذين يمدحون في الواقع "نوعا من الترتيب للتمييز العنصري لأننا سنرى فيما بعد أن نظرية الإدماج ليست في الواقع إلا استراتيجية.

آنا كولنات المؤلفة لرواية واحدة فقط صادرة في 1936، فيرجيني ديبارك، مالكة أرض في الجزائر، هي من فيليبيل. لم تشارك في الحياة الأدبية للمستعمرة. لقد عثرنا على مقال تقريظي مديحي واحد يتعلق بموضوعها في المجلة الإفريقية، جانفي 1940، هو مقال كلود موريس روبيرت، روائي كولونيالي، هو نفسه، ومعنون "فيرجيني ديبارك": ملحمة ومآثر، الأرض الجزائرية.

نذكر لويس لوكوك هنا للتشابه الذي تقدمه كتابته مولوش 1932 أو بصفة المطبوع بعد وفاته، باسكولات الجزائري 1934 مع تلك الكتابات التي لشارل كورتان وأنا كولنات. وكان الموضوع المركزي هو موضوع الأرض، غرض الاشتهاء، والرغبة و الطمع من قبل كل أبطال مختلف الروايات: المهاجرون الوافدون والأهالي.

ويذكر هؤلاء الكتاب أمثال لويس بيرتراند، وأمثال روبيرت راندو، عناد الكولونياليين وإرادتهم، إلا أنه مع درجة من التمايز، فأبطالهم الكولونياليون "يحبون الأرض وهم لا يستغلونها على عجل مثل

¹ . J.Pomier et R.Randau : « La Nouvelle Méditerranée dans la littérature », Afrique, janvier 1940

الكولونيين الآخرين". وتندد روايات شارل كورتان، آنا كولنات، ولوكوك "بنوع" من الكولون، الكولون الكبير. خلافا لروائين آخرين، فهم ينددون بالكولونيين في مجملهم.

ويتعلق الأمر أولا وقبل كل شيء بألبيرت تريميفيس الذي له رواية نزل السرسو، نقد خاص بالنسبة للاستعمار، ستصدر في 1930، في الذكرى المئوية إذن. كانت رواية نزل السرسو، الجنوب الجزائري هي التنديد بالمجتمع الأوروبي، لاسيما الكولونيين. وبالمقابل، فهو يذكر المشاكل التي تعترض وتواجه المجتمع الإسلامي، مشكل الفقر، البؤس، الشقاء، ومشكل الاستغلال. ويعكف في مؤلفات أخرى مثل إخوان الأسود، و مشهد الحياة في بسكرة 1931، وفرحات، المدرس الأهلي 1935، على الجماعة الإسلامية في المدن، وعلى الطفولة البائسة المشردة المتروكة لنفسها، المهمل، وعلى النتائج "لسياسة مدرسية سيئة رديئة". يطرق لويس لوكوك هذه المواضيع هو أيضا في خمسة في عينيك 1924، و شمس 1928.

من هو ألبيرت تريميفيس في الواقع؟ هو فرنسي من فرنسا. ولد في 17 سبتمبر 1873 في الريمولان في القارد" وصل إلى الجزائر قبل 1914، تكتب إيفون تورين في مقالها "الأداب الملتزمة و مناهضة النزعة الاستعمارية في جزائر الذكرى المئوية": الحالة المتفردة والتميزة لألبيرت تريميفيس⁽¹⁾. كان هذا مفتشا ابتدائيا للإطار الأوروبي، ثم للإطار الأهلي. كان اشتراكيا، ماسونيا، من المذهب الديني الاسكتلندي، تابعا للمحفل

¹ .Y.Turin : « Littérature engagée et anticolonialisme dans l'Algérie du Centenaire : le cas singulier d'Albert Truphémus », revue d'Histoire moderne et contemporaine, novembre-décembre 1976.

الشرقي الكبير لفرنسا، دائما حسب إيفون تورين. و فضلا عن الروايات فهو ينشر مقالات في الجرائد، مثل صوت المتواضعين (جريدة المدرسين الأهلين). فهو يبشر و يوصي " بالأخوة العالمية مثلما تعلم في المحفل ". لم يكن ألبيرت تريميفيس عضوا في جمعية الكتاب الجزائريين . نحن لم نعثر على أي مقال، ولا حتى في المجلة الإفريقية . فنحن نسجل أن أعماله النقدية بخصوص أوروبيي الجزائر تثير استياء وسخط بعض الكتاب الجزائريين". وسيعنفه و يلومه جان بومي، وف . كورنيتز، عليه في نقد نزل السرسو لألبيرت تريميفيس"⁽¹⁾ . (المجلة الإفريقية، مارس 1930، أبريل 1930) عن "نشر روايته في وقت الاحتفال بالذكرى المئوية"، وفي وقت تمجيد الاستعمار إذن . ومات ألبيرت تريميفيس في 1948 .

ولدت لوسيان فافر في باريس في جانفي 1896 . عمل لوسيان فافر، روائية أخرى من أصل فرنسي، فهي تقترب من تلك الأعمال التي لألبيرت تريميفيس . إنها آداب "ملتزمة" في الحدود بحيث تقوم ضد نوع من المظاهر الاستعمارية لكنها لا تجعل نظام الاستعمار نفسه موضع اتهام ، فهي ليست أكثر من ألبيرت تريميفيس، من جهة أخرى، فهي تقوم إذن بالتنديد بالطائفة الأوروبية في الجزائر، وتبدي اهتماما كبيرا بالنسبة لحياة وأخلاق الطائفة الإسلامية. تكرر رواية المشرقى 1930 للنساء الجزائريات في قصة الجزائر. وتكتب أيضا كل المجهول عن قصة الجزائر(1933)، القصة 1937، الرجل وراء الجدار1926، باب الوادي 1926 . وتصف هذه الروايات الأحياء الشعبية، الحي الأوروبي لباب الوادي، والحي الأهلي للقصة، وتصف الإسرائيليين في حمام اليهود 1939، وتصدر مراد

¹ . Il s agit en fait de deux article portant le même titre: le premier paru en mars 1930 de J. Pomier, et le second de V.Cometz, avril 1930.

1944⁽¹⁾، وتكون هذه الروايات شهادات حقيقية عن مختلف السكان لسنوات 1920 – 1940 .

كانت لوسيان فافرامرة قاضية ممارسة في الجزائر، فهي تلاحظ وتحلل تحصلت على جائزة الآداب الجزائرية عن عملها في 1931، في نفس الوقت لروائية أخرى جان فور ساردات . كانت عضوا في جمعية الكتاب الجزائريين لكنها، لم تنشر في المجلة الإفريقية . يكتب روبيرت راندو بشأنها في جانفي 1933 في "الرواية التشردية في شمال إفريقيا". أريد أن أضع في مكان الشرف في السرد السريع جدا لكتابتنا عن الحياة الشعبية، لوسيان فافر⁽²⁾ . وقد عادت لوسان فافر إلى فرنسا، سنة 1944-1945، وماتت في 1950 بباريس .

وعلى النقيض من لويس بيرتراند، ومن ميسات، وبول أشارد، وجيل روي، و لويس لوكوك، لم يكن لها أي تعاطف مع الشعب الصغير المركب لباب الوادي . فهي تظهر ممثلا لهذا الشعب "باكيلا" المناهض للسامية إلى حدود الفاشية، "الملك المناهض لكل شيء وولايات باب الوادي، تشخيص لرجل الشوارع . نموذج إنساني حقيقي جدا" ، يوضح روبيرت راندو بدقة⁽³⁾ . بعد "كجايوس" ميسات 1895، كان لدينا "بييت" بيرتراند 1920، "بروميتش" لويس لوكوك 1923، "باكيلا" 1930 لوسيان فافر، "تيتوس" بول أشارد 1931. في الواقع، إنهم يتشابهون كلهم، كما كنا قد أشرنا إلى ذلك سابقا. مثل جان بومي، ولويس لوكوك (فيما بعد)، ألبيرت

¹ Lucienne Favre eut une certaine importance à l'époque .De nombreux articles dans les Jouraux Français , « ananlysaient »,ses ouvrages ,entre 1925-1935.

² . R.Randau : « Les romans picaresques dans l'Afrique du Nord »,Afrique, janvier1933.

³ .R.Randau :Ibid.

ترميميس، فهي تسجل تفضيل جلي و واضح بالنسبة " لفرنسيي فرنسا " الذين يعيشون في الجزائر . وتشير لوسيان فافر في الأغلب من رواياتها " إنهم هؤلاء الآخرون الذين لهم اتصال مع الجماعة الأهلية". وبالعكس فإنها تلاحظ أن أوروبيي الجزائر كانوا هم مناهضين للفرنسيين⁽¹⁾ .

ويعالج روائييون آخرون مثل سطيفان راوول في حكايته " انسحاب المحاميد" 1925. مارث كلوزيار في " الجدي" 1925، ماكسيميليان هيلر في البحر الأحمر 1923، مشاكل الزواج المختلط بين أشخاص من أديان مختلفة " مسلمين ومسيحيين، إسرائيليين ومسيحيين". ويثير لويس لوكوك أيضا هذا المشكل في بروميتش والقبائلي في 1925. إنه الوحيد في إظهار "التفاؤل"، لأن الزواج المختلط ليس " قابلا للحياة و للاستمرار في الروايات المذكورة آنفا، كما في روايات ألبيرت ترميميس (فرحات، المدرس الأهلي 1935، مثلا)، الزناتي ر. أ.(بو الأنوار، الشاب الجزائري، 1945) للوسيان فافر (المشرقي في 1930) .

وتلاحظ ماكسيميليان هيلر، من أصل يهودي، ولدت بفسنطينة في 15 سبتمبر 1889، تصور أخلاق طائفها الخاصة أن هذه الأخلاق كانت مجانسة ومماثلة لأخلاق الأهالي. وكذلك اللغة واللباس أيضا.
وتدرس ماكسيميليان هيلر أيضا علاقات (أوعدم) الإسرائيليين مع السكان الآخرين للجزائر". قالت على لسان الشيخ اليهودي جنون " البحر

¹ L'Analyse de ce centiment « anti-Français » des Français d'Algériea été faite par Pierre Nora dans son livre Les Français d'Algérie , Paris René ,Julliard,1961,252p.

الأحمر هو رمز الهوة التي تفصل الإسرائيليين عن الآخرين...⁽¹⁾. لقد أبدت نزعة واقعية، وبينت العنصرية ومعاداة السامية لأوروبيي الجزائر، لكن أيضا رد فعل جيل الشباب اليهودي . فهذا لا يقاوم ولا يصارع، تحكي " فقط من أجل فرض نفسه على الأوروبيين فحسب، لكن من أجل الدفاع عن المسلمين كذلك " .

وقد حصلت روايتها " البحر الأحمر " على جائزة الآداب الجزائرية في 1922. كانت ماكسيميليان هيلر عضوا في جمعية الكتاب الجزائريين . مع أنها لم تنشر إلا قليلا جدا في المجلة الإفريقية. ويبدو أنها لم تكن قد كتبت كثيرا من الروايات . بالعكس فقد أصدرت منذ بداية القرن، نصوصا وأشعارا في عدة مجلات فرنسية و"إفريقيا الشمالية" . فهي تساهم في مجلة شمال إفريقيا المزينة بالرسوم ، و في الحوليات الإفريقية، في الكاهنة، في صدى الجزائر. وتشارك في منتخبات ثلاثة عشر شاعرا جزائريا (تقديم روبرت راندو) في 1920، وفي منتخبات ثلاثة عشر حاكيا جزائريا، وإفريقيتنا 1925، مدرجة فيها حكايتها "التعزيم" . نشير إلى مقالها " في الاستماع إلى راوول سطيفان " . الصادر في المجلة الإفريقية، ماي 1936، وتعيد فيه نشر المحاضرة المقدمة من قبل راوول سطيفان في مكتبة "جيبيرت جون" في باريس 1935 . وكان سطيفان راوول قد عرض فيها تأملاته عن " ثلاثة أفارقة كبار: إيزابيل إيبيرهاردت، ولويس لوكوك، وروبيرت راندو " . وقد مست ماكسيميليان هيلر أيضا في كتابها موضوع استغلال الرجل الأهلي من قبل الكولونيين. فهي تطالب مثل لوسيان فافر، وألبيرت

¹ .Maxmilienne Heller : La mer rouge , Paris , Bernard Grasset ,1923.p.300.

تريميفيس، وروبير راندو، ولويس لوكوك : " بعدالة وإنسانية أكثر في المستعمرة ". هذه المستعمرة حيث يكون فيها مجرد اتخاذ موقف في صالح مسلم منزوع الملكية تعسفا يعتبر " انتحارا حقيقيا ". و بالفعل فإن بطل البحر الأحمر، شاب محامي يهودي يرى مهنته محطمة من قبل " المناورات القذرة الدنيئة " للأوروبيين وينتحر من أجل الدفاع عن أحد الأهالي.

2/ كتاب " مدرسة الجزائر " (1935 - 1939)

إنه ابتداء من سنة 1935، التي لم تكن الأعمال فيها بصفة عامة مركزة على جزائر المدن والأرياف لكن على البحر والحياة في الشمس، وبالأحرى عن الحياة في المدن الساحلية، منها في المدن الداخلية للبلد . ويتحدث جبريال أوديزيو حينئذ عن " مدرسة الجزائر " ⁽¹⁾ . وقد استعيد هذا التعبير من قبل ألبيرت كاموس تحت " مدرسة شمال إفريقيا للأدب " ⁽²⁾ .

وقد ساهم جبريال أوديزيو في التيارين الأدبيين. وقد حصل في 1925، على الجائزة الأدبية عن : ثلاثة رجال ومنازة، ولم يتمسك دائما بنفس الخطاب " مثل الجزائريين. بالنسبة إليه، فالجزائر ليست " محتلة " لكنها مستعمرة " يقول في شباب المتوسط " لا أومن بالأعراق الصافية " ⁽³⁾ ، خائضا هكذا على النقيض، من لويس بيرتراند، " لكن في أصالة الشعب الجزائري، ويضيف " هذه التي تركز على خليط سابق مشكوك فيه ⁽⁴⁾ . وفي الرواية المذكورة أننا نعثر أيضا على نقيض الخرافة لأطروحة لويس بيرتراند، يكتب " بركة ومستنقع بالتأكيد، لكن ليست بركة ومستنقع الرومان، وبالأحرى

¹ .G.Audisio : « La littérature algérienne », Afrique, mars 1945.

² . J.Dejeux :La littérature algérienne contemporaine,Paris, PUF, 1975,p.38.

³ . G.Audisio : Jeunesse de la Méditerranée,Op.cit.,p.13.

⁴ .G.Audisio :Ibid.

ليست بركة ومستنقع الإغريق التي تصنع لنا بفضل السهولة المفرطة للتننة، بهجوم واستفزاز⁽¹⁾. كان يؤمن "بالوطن المتوسطي" و"بانصهار واندماج الطوائف. يؤكد وهو مفعم بالحماسة" كان الانصهار بصدد التكون و الترسخ⁽²⁾، في 1936. لكن في مقالته النار الحية (المتعشة) 1958، قد أفضت به إلى التأكد من أنه "وهم كبير". يقول "إنني أجده مؤلماً لأن التخلي عن وهم، هو التخلي عن أمل". لقد كان هو أيضاً "واعظاً موصياً" بالأخوة الإنسانية "في الجزائر".

لقد ولد جبريال أوديزيو في 1900 بمرسيليا. وقد نجح في (1920) في مسابقة الكتاب المحررين للعماله وعين بقسنطينة، وكان محرراً لدى الحكومة العامة للجزائر، في (1921). وبقي جبريال أوديزيو في الجزائر حتى 1940. وكان قد نشط هو وأبوه خلال اثنتين وأربعين سنة الحياة المسرحية، والفنية، والثقافية الأوروبية للجزائر. أخذ يتعلم العربية عن عمر 22 سنة، وحصل في كلية الآداب للجزائر على شهادة التاريخ والحضارة للبلدان الإسلامية الغربية. يقول لنا في رسالته الشخصية ليوم 16 ماي 1974 "كان ذلك يبدو لي نافعا للرغبة في إدارة السكان....". في 1924 يؤسس النادي "أحباب الأدب" و يدعو إلى المسرح البلدي للجزائر الذي يديره أبوه، رجال أدب مثل جيل رومان، روني لالو⁽³⁾. إنه الناشر بيار سويرن كما قد رأينا أنفا الذي أخذ المناوبة في (1936)، منظماً أيام الخميس الأدبية. وفعلاً، قد

¹ .G.Audisio : Op. cit., p.12.

² . G.Audisio :Op. cit.,p.109.

³ .G. Audisio : Lettre personnelle déjà citée, qui nous a été adressée par Gabriel Audisio.

انتدب جبريال أوديزيو إلى "المكتب الجزائري" بباريس لكنه كان يتردد على الجزائر للإقامة بها .

يترك جبريال أوديزيو عند موته (1978)، أعمالا غزيرة . لقد كتب محاولات، مثل ملح البحر، 1936، حب الجزائر 1938، روايات مثل 1928 رقيب الشمس، العرافون 1932، الأوبيرا الخرافية 1970، قطع إذاعية صوتية (أكثر من 20)، كتب تاريخية، حياة ابن خلدون، رحلات بن بطوطة ...، قبيلة مسيردة 1925، الجزائر الأدبية (الموسوعة الاستعمارية والبحرية)، 1943 ... وكان قد أشير إلى محاولته كجايوس أنفا . وتمنحه باريس في 1975 جائزة الأكاديمية الفرنسية عن عمله الشعري .

ولم يكن لألبيرت كاموس أية علاقة مع الجزائريين. ولد بالجزائر في 1913. مع أن عمله في جزئه الأكبر لا يعني مباشرة الجزائر. إلا أنه قبل انتقاله إلى فرنسا في 1940، كان يساهم في النشاط الأدبي الأوروبي للجزائر. كان كاموس قد ألقى محاضرة بدار الثقافة للجزائر، في 8 فيفري 1937. كان عليه أن يشدد، حسب رأيه، على ضرورة عدم وضع في روما، ما ابتدئ في أثينا وإيجاد نوع من الحضارة المشتركة لسكان ضفاف المتوسط⁽¹⁾. في أبريل 1937 ظهرت النشرة الأولى لدار الثقافة بالجزائر: الشباب المتوسطي. وينشر فيها ألبيرت كاموس محاضراته. عام من بعد، تصدر مجلة أخرى، الضفاف، مجلة الثقافة المتوسطية، المؤسسة من قبل جبريال أوديزيو، وألبيرت كاموس، وإيمانويل روبلس، كانت قد أطلقت من قبل الناشر إيدموند شارلوت. وهكذا يقدم ألبيرت كاموس العدد الأول للصفحة:

¹ . J. Dejeux : « La revue Algérienne Soleil(1950-1952), fondée par Jean Sénac et les Revues culturelles en Algérie , de 1937à1962 », Recue Littéraire n°19,1979,p.7.

كل قوى التجريد والموت هي مطلقة ومرفوضة باسم قوانا في الحياة⁽¹⁾. وقد اختفت هذه المجلات باقتراب الحرب العالمية الثانية. قد لا يكون صحيحا تماما القول إن كاموس⁽²⁾ قد أشاح بوجهه عن المشاكل الحقيقية للجزائر. يبين أحد كتبه المنشور في 1958، الراهن III، وقائع جزائرية، 1939 – 1958، أنه قد اتخذ التزاما سياسيا في هذه الفترة. فعلا، في 1939، كان صحافيا آنذاك في الجزائر الجمهورية⁽³⁾. وقد كان ينشر فيها مقالات عن بؤس القبائل، ومرافعات من أجل "حرائق أوريبو"⁽⁴⁾. وقد شرح جان بومي في وقائع الجزائر 1910 – 1937، مدعما برسالة كاموس، لماذا "اتخذ هذا الأخير كقاعدة البقاء على الحياد، بعيدا عن الفعل الرسمي الجزائري". يروي بالتفصيل "كان كاموس قد تعرض بصفته صحافيا جزائريا، لضغط ولتهديد الحكومة العامة"⁽⁵⁾. يقول كاموس "لقد كلفني موقفني من الاستقلال في هذا الوقت في 1939، أن أكون محالا على البطالة، وكانت لي أم مريضة، على نفقتي تماما"⁽⁶⁾. وفي وقائع الجزائرية 1939 – 1958. يعبر ألبيرت كاموس عن أمنيته في أن يكون الأوروبي والأهلي متعارفين أفضل، ويضيف، إذ أنه

¹ . Ibid, p.5.

² . « Albert Camus vu par un algérien », étude faite par Monsieur Taleb Ibrahim Ahmed, dans de la colonisation à la révolution culturelle , 1962-1972, Alger, S.N.E.D., 1973, pp.161-186(Conférence à Alger , février 1967).

³ . Alger-Républicain avait des positions « progressistes ».

⁴ . « Incendiaires » algériens condamnés au bagne pour très peu de choe.

⁵ . J. Pomier :Op, cit., p.131.

⁶ . Albert Camus :Lettre du 26 février 1954, citée par J.Pomier dans Chronique algérienne 1910-1957, op, cit., p.131.

يجب أن يقال ذلك جيدا، فإن المعرفة المشتركة المتبادلة لم تكن قد وقعت ومن هنا تتضح أخطاء سياستنا... وإلينا يرجع العمل على إسقاط الجدران التي تفصل بيننا⁽¹⁾. حينئذ كان جبريال أوديزيو يكتب في *النيران الحية (المتعشة)*، "الطائفة الجزائرية لا توجد". ولم يكن ألبيرت كاموس يريد أن يرضخ إلى تلك الكتابة التي لم تكن المناقشة فيها ممكنة⁽²⁾. ومات ألبيرت كامو في 1960.

سنذكر سريعا معاصرا وصديقا لألبيرت كاموس، إيمانويل روبلس ولد بوهران في 1914، من أصل إسباني، يتأخر في انتسابه إلى عالم البحر المتوسط: "إنني ابن الجزائر، مثلما أنني ابن إيطاليا، واليونان، أو اسبانيا"⁽³⁾. ينشر العديد من الروايات، والقصص، والقطع المسرحية، و سير ذاتية. كل عمله الأدبي كان مصوغا "إكراما للإنسان". كانت العناوين كاشفة، موحية: *الفعل* 1937، *عمل الإنسان* 1942... كان عليه أن يبلغ أكاديمية جونغفورت خلال الحرب التحريرية الوطنية. كان آنذاك في باريس. وتبدي *المجلة الإفريقية* "إزاء مدرسة الجزائر" نوعا من التكتّم و التحفظ فهي لا تتعرض إلا لصدور بعض الأعمال لجبريال أوديزيو، وجيل روي، وإيمانويل روبلس، ومارسيل موسي. وتتجاهل مثلا، أعمال ألبيرت كاموس، ماعدا الطاعون.

¹ .Albert Camus :Actuelle III, Chronique algérienne 1939-1958,P laris ,Gallimard ,1958,p.64.

² . Albert Camus :op, cit., (Conférence prononcée à Alger, le 22 janvier 1956), p.176 . « Il n'y a plus de discussion possible »,voilà le cri qui stérilise tout avenir et toute chance de vie, dit Camus.

³ . J.Dejeux : Op, cit., p.42.

لقد كان الكتاب الكولونياليون، لاسيما الجزائريون، عبر التقديم المجلد الموجز الذي كنا قد قمنا به، قد "اقترحوا" إذن التعرف على الجزائر في مجملها". لقد عكف كل روائي، حسب "ميوله الشخصية" على مظهر واحد أو عدد من مظاهر البلد. فقد رسم هؤلاء وأولئك لوحة عن المدن وعن البوادي. لقد حللوا و وصفوا العلاقات القائمة (أو، لا) مع مختلف السكان للمستعمرة فيما بينهم. لقد عرضوا، طريقة الحياة "للشعب الأوروبي الصغير" للضواحي والأرباض، لقد بسطوا و تعمقوا ذهنية مختلف الطوائف. وكثيرا ما كان الكولونياليون موضع دراسة لهم. وتختلف تقديرات و أحكام الكتاب حسب مثلهم، وإيديولوجيتهم إجمالا. لكن سمات الشخصيات الموصوفة في رواياتهم كانت تقريبا متشابهة. فالرواية الكولونيالية يمكن إذن أن تستخدم و تفيد، إن عاجلها مجذر بسبب الإيديولوجية التي تحملها غالبا، في معرفة المجتمع الكولونيالي في مجمله.

3/ اختيار لويس لوكوك خاصة:

إنه في هذا المنظور الذي يكون فيه عمل لويس لوكوك مهما على الخصوص. قد اخترنا أن نرجع إليه غالبا في مساق دراستنا، من أجل التنوع وغنى مواضعه. لا يمكن أن نمتنع عن استحضار هذا الكاتب بما يكفي في الغالب. لأن عمله يشبه وحده، تقريبا كل المواضيع المتناولة في سرد و حكايات مختلف الكتاب. لقد ولد لويس لوكوك بالجزائر، في 22 مارس 1885، من أب فرنسي، ومن أم إسبانية، كان يدعى بريدو القنطرة. استقرت أسرته في الجزائر منذ 1835. وكانت متواضعة بسيطة⁽¹⁾.

¹ .Chqrles Delp :Article « Chronique des les lettres : l'ouvre de luis Lecoq », Dépêche algérienne du 22janvier 1932.

سوف لن نعود هنا إلى "أهمية الدور الملعوب من قبل لويس لوكوك، في تأسيس الحركة الجزائرية . سنشير فقط إلى الإنشاء في 1942، لجائزة لويس لوكوك من قبل وزير التربية على مبادرة من جان بومي.

لقد نشر لويس لوكوك على مدى عشرات السنوات كتباً غزيرة جداً : بروميتش والقبائلي 1921، (مصنف أربع حكايات)، سيدي غراب، سورقوربو، 1923، خمسة في عينيك، متصدرة في 1924، كل سائل يتبع الانحدار 1925، شمس 1928، قابيل 1930، مولوش 1932، صادرة بعنوان باسكولات الجزائري في 1934 . نظم أشعاراً : أضواء 1908، وشارك في انتخابات ثلاثة عشر شاعراً جزائرياً 1920 . يحرر عروضاً وتقارير للجرائد، وللمجلات، وتعاليق حول الأعمال التاريخية الصادرة في هذه الفترة، مثل تاريخ فرنسا لجاك بان فيل (المجلة الإفريقية أوت 1925)، حملة الجزائر للجنرال بول أزان (المجلة الإفريقية، أبريل 1930)، الجزائر الفرنسية لفبكتور بيكيت (الإفريقية، جوان 1930)، تعاليق على الكتب أيضاً، مثل إيليس كافر لماريوس، أري لوبلاندي . (الإفريقية، أوت 1976) والغابة التي أكلت الرجل ، لكورتان (الإفريقية، جوان 1930)، يوقع مقالاته "هلال" مكنياً عن اسمه بالحروف (ل . ل) في المجلة الإفريقية . فهو يعرض إيديولوجيته ببطء في مقالاته بهدف الإقناع . كان لويس لوكوك ، هو نفسه ، موضوعاً لعدد من المقالات في الإفريقية . وسيستحضره مختلف الروائيين : إنه حال ماكسيميليان هيلر (مقال، ماي 1936)، وموريس أوليفان (فيفري 1928، ولوسيان بيلاز (نوفمبر 1925، جان بومي (جانفي 1931، ديسمبر 1934، جانفي 1935، أوت 1942)، ألفريد روس (مارس 1935)، راوول سطيفان (أبريل 1932، أبريل 1935)، ألبرت تيست (فيفري 1932) . ويحرر

لويس بيرتراند مقدمة روايته **مولوش** 1932 . وسيكون نشر هذا الأخير على حلقات في **المجلة العالمية** خلال السنة 1933.

لقد أتاحت لنا الأشعار، والروايات، والمقالات التعرف على لويس لوكوك الذي يشهد راوول سطينان " أنه معنى ، من جراء قلق سري، لقد أفرط في التحليل. فهو يفتش عن مصرف في الحلم بالفعل" (1) .

كان لويس لوكوك أحد الكتاب النادرين للعصر، مع ألبيرت تريميفيس، ولوسيان فافر، وماكسيميليان هالر، في عدم كونهم متروكين ومستسلمين للأحلام "تسيطر عليهم . وأيضا هل استطاع أن يكشف للأنظار، جزائر "العرب التقليديين"، و"العرب المتطورين"، جزائر الشعب الأوروبي الصغير، النازح من كل ضفاف المتوسط، والكولونيين الوافدين مباشرة من فرنسا، جزائر الأعيان الوجهاء المحليين والإدارة الاستعمارية .

إنه في هذا المسعى من المقاربة الواقعية اليومية التي يظهر فيها لويس لوكوك إبداعه وأصالته، وابتكاره بالنسبة لأغلب الجزائريين، وبالنسبة أيضا إلى كبرائه ، روبرت راندو، ولويس بيرتراند، وبالنسبة أيضا إلى هؤلاء الذين يتبعون، جبريال أوديزيو، وألبيرت كاموس، وإيمانويل روبلس، وجيل روي ... بالفعل، فقد كان عمل لويس لوكوك ملتزما بجوية في الراهنية . لم يكن الأمر أيا ما كان "الانفصال عن المتربول (الوطن الأم) كما بالنسبة لروبيرت راندو، وميسات، ولويس بيرتراند . بالعكس فهذا العمل كان يراد منه عمل نضالي، وكان يدرج في المعركة السياسية لهذا العهد، حول موضوع الإدماج . وكان الكاتب، هو نفسه يوضح، "إن التصرف بالنسبة لي، كانت هي الكتابة".

¹ . Raoul Stéphan : « Trois Gands Africains : Isabelle Eberhardet , L. Lecoq, R.Randau », conférence , Afrique , avril 1935,p.8,9.

وقد كانت بعض الأعمال للويس لوكوك قد لاقت "نجاحا بارزا" لدى الرأي العام الكولونيالي الأوروبي لذلك العهد . لقد كانت روايته الأهليانية " ⁽¹⁾ خمس في عينيك قد تميزت في وقتها بالحصول على جائزة الآداب الجزائرية، في 1924 . وكان كتاب آخر قابيل قد اقترح لجائزة جونكورت في 1930 . من جهة أخرى، قد استمرت بعد اختفاء الكاتب، مقالات تخطيطية في الظهور في *المجلة الإفريقية* . وقد كتب روبرت راندو عن "ذكرى لويس لوكوك"، مقالا منشورا في *المجلة الإفريقية* في ديسمبر 1934. ونشر شارل ديلب، صحافي وعضو جمعية الكتاب الجزائريين عدة مقالات في البرقية (Dépeéche algérienne) الجزائرية، ليوم 22 جانفي 1932، كان يحلل عمل لويس لوكوك . في مقال 22 مارس 1933، ويذكر شارل ديلب مقدمة لويس بيرتراند لمولوش، رواية لويس لوكوك وأخيرا في طبعة يوم 7 ديسمبر 1934، ينشر مقالا عن لويس لوكوك دائما بالتعاون مع روائية كولونiale لوسيان كريسيين باريكاند .

وكان ألفريد روس، صحافيا آخر وعضوا في جمعية الكتاب الجزائريين، يكتب في 1935 "يظل لويس لوكوك أحد الكتاب الأقوياء لجزائرننا التي أزاح عنها اللثام من أجل اكتشاف الوجه والروح لإفريقيتنا الذي قد أتقن رسمها بنبوغ كبير" ⁽²⁾ . وبالتالي قد يكون من الحسن، معرفة لماذا كانت تستحق هذا الإقرار والاستحسان من غير تحفظ، في المستعمرة .

¹ Indigéniste :Expression utilisée par Gourdon (H),Henry Lorcerie (F), « Roman colonial et idéologie coloniale en Algérie »,Revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, Alger , n°1, mars 1974.

² . Alfred Rousse : « Commentaire du roman de Luis Lecoq : Pascualette l'Algérien », Afrique, mars 1935,pp.14-15.

غير أنه، قبل التصدي لدراسة الأعمال نفسها، علينا أن نحدد بدقة السياق التاريخي وإضاءة المناطق التي ستسمح بفهم الروايات الرئيسية أفضل، والوضعيات الروائية لاسيما التي تدرج في حقيقة تاريخية من بين تلك، الإشارات إلى سياسة الإدماج، ترجع في جزء كبير منها إلى الروايات، ثم تأتي ظروف المعيشة الاقتصادية (بؤس الأهالي، وطعم الكسب، للكولونيين، حسب رأي لويس لوكوك، وألبيرت تريميفيس خاصة). كانت الإشارات إلى تنوع السكان الذين يشكلون المستعمرة عديدة أيضا. ويندد لويس لوكوك، مثل لوسيان فافر، وألبيرت تريميفيس بالطائفة الأوروبية (المركبة، المنقسمة، المنفصلة) وبلامبالاتهم واستخفافهم. ينهض لويس لوكوك، خاصة، ضد توسع استعماري رأسمالي هائج يبعد ويقصي، حسب رأيه، العلاقات الإنسانية ويجعل من المستحيل إذن كل إدماج للأهالي بعد تطور في "الحاضرة الفرنسية". كان يكتب في حكايته الأولى *الحريق* (1921): "عوضا عن حماية هذا الشعب الضعيف، غير المؤهل للدفاع عن نفسه، يبدو أن الكولونيين لم يكونوا هنا إلا ليغتنوا وليثروا سريعا، بكل الوسائل"⁽¹⁾. فنحن نسجل، عبر كتابات هذا الكاتب الكولونيالي، الأهمية التي يوليها للمجتمع الإسلامي في مجمله، ولحياة الأهالي أيضا في البوادي كما في المدن. فهو يلتقي إذن في ذلك بلوسيان فافر وألبيرت تريميفيس. إلا أنه مع بعض الفوارق الدقيقة التي ستظهر في فصل: تحليل الروايات. من جهة أخرى، كانت الوضعية المدرسية مظهرها هاما في حياة المسلمين في عمل لويس لوكوك. إنه أحد الكتاب الكولونيين

¹ L.Lecoq :L'Incendie, Paris ,Fayard 1921,p.101.

القلائل مع الروائيين من أصل فرنسي، ألبرت تريميفيس، ولوسيان فافر الذين ذكراها .

فهو يحلل أيضا الظاهرة الوطنية التي تكمل هذه اللوحة، التي يربط فيها الكاتب في مرحلة أولى الإسلام وتأثيره على الفكرة الوطنية. يقول في كتابه *خمسة في عينيك* 1942 مثلا، على لسان الطالب الداخلي في الطب حبيب رمضان: "الطب دائما كان علمنا، علم المسلمين" ⁽¹⁾. فالنخبة المسلمة، المتطورة، تتذكر إذن ماضيها الرائع المجيد ولا تتخلى عن حضارتها الخاصة. لذلك يوصي لويس لوكوك فيما بعد، في 1927، باحترام الشخصية الإسلامية، لأن الإسلام في النهاية، يمثل في رأيه خطرا أقل بالنسبة للجزائر الفرنسية "من الشيوعية ونجم شمال إفريقيا" ⁽²⁾.

لقد عبر عمل لويس لوكوك عن رفضه، مثل عمل ألبرت تريميفيس، ولوسيان فافر الانتماء إلى الطائفة الأوروبية للجزائر، التي ينسب إليها كل المساوئ والأمراض الكولونيلية.

لكن لوكوك سيفتش أيضا عن التبرير للامبريالية الفرنسية. وهذا ما يفسر لنا التعقيد والغموض في عمله كما ستتاح لنا الفرصة لرؤية ذلك.

¹ . L. Lecoq :Cinq dans ton œil , Paris, Reider, 1925,p.137.

² . Etoile Nord –Africaine :mouvement nationaliste algérienne.Cf, Contexte historique.

1.* :Membre de l'Association des écrivains algériens (A.E.A).

2. Nous nous sommes basés sur la listes de jean Pomier , donnée dans Chronique d'Alger (1910-1957)ou le Temps des Algérienistes et sur les précisions appotrées par Monsieur Jean Dejeux.

3. Mamillienne Heller n'était pas algérieniste encore, lors de l'attribution du Prix .

4.Jean Pomier est rapporteurdu Prix de 1924à1952.

- 4 / قائمة الفائزين بالجائزة الأدبية الكبرى للجزائر (1921-1961)
- 1921 - فيرديناند ديشين، على الخطى البطيئة للقوافل، باريس، أ. ميشال، (رواية).
- 1922، (رواية)
- تامبلا، باريس، أ. ميشال، 1923 (رواية)،
- "الروح الخفية"، مجلة الشمال الإفريقي، أول نوفمبر 1921 - أول فيفري 1922 (رواية) .
- 1922 - ماكسيميليان هيلر، البحر الأحمر، باريس، غراسيت، 1923، (رواية) .
- 1923 - جبريال إسكير، احتلال الجزائر، إعادة الطبع، لاروس، 1929، (تاريخ، قصة).
- 1924 - لويس لوكوك، خمسة في عينيك، باريس ن ريدر، 1925، (رواية).
ثلاثة رجال ومنازة
- 1925 - جبريال أوديزيو، باريس، ريدر، 1926 (رواية) .
- 1926 - ألبرت تيسست، ثمانية مقتطفات (مصنفات) من الشعر بعنوانين مختلفة : المتوسطيات، ناشرون مختلفون، 1906 - 1926، (أشعار) .
- 1927 - شارل كورتان، الغابة التي أكلت الرجل، باريس، طبع فرنسا، 1929 (رواية) .
- 1928 - لا توزيع ،
- 1929 - ريبير راندو، مجموع العمل، الكولونياليون، باريس، سانسوت، 1907، (رواية)، الجزائرانيون، باريس، سانسوت، 1911، (رواية)، كسارد البربري، باريس، الحروف الجميلة (الآداب) ، 1921، (رواية) .

- 1930 — شارل هاجل، مآسي إفريقية، الجزائر، صوبيرون، 1930، (قصة)
 . الأكاديمية الفتية
- 1931 — جان فورد سارديت، امرأتان، باريس، ، 1930 (رواية) .
- لوسيان فافر، مجموع العمل (الأثر) : ديميتري والموت، باريس، فرانتزي،
 1925، (رواية) : باب الوادي، باريس، كريس، 1926، (رواية)، الرجل
 وراء الجدار ، باريس، كريس، 1926، العرس، باريس، غراسيت، 1929، ()
 رواية)، المشرقي 1930، باريس، غراسيت، 1930، (رواية) .
- 1932 — من غير توزيع .
- 1933 — أ . طوني زانيت (الاسم المستعار لأنطوان زانيتسي)، كاميلو،
 باريس، طالاندي، 1934 (رواية) .
- 1934 — كلود موريس روبرت، إكليل العوسج ، الجزائر، صوبيرون
 1932، (أشعار) سحر الجنوب، الجزائر، 1934، (رحلة)، في الهدوء
 والضوء، الجزائر، صوبيرون، 1934، (رحلة) .
- 1935 — ماجلي بوانسارد، مجموع أعماله :
- الوندالية، باريس، سانسوت، 1907، (رواية)، الكسلاء ، باريس ،
 سانسوت، 1909، (مقالة)،
- الإنذار في الصحراء، الحياة الصحراوية، حرب (1914 — 1918)،
 باريس، بيران، سانسوت، 1909، (مقالة، دراسة)،
 معديث، أمينس، مالفير، 1921، (رواية)،
 الولد الصامت، أمينس، مافير، 1922، (رواية)،
 رواية الكاهنة، باريس، نشر، فن بيازا 1925، (رواية تاريخية)،

- رواية خلدون، باريس، نشر، فن بيازا، 1930، (رواية تاريخية، سلطان
توقرت، باريس، جيتنر، (وقائع رومانية)،
1936 – بول آزان، مجموع العمل :
سيدي إبراهيم، باريس، شارل لافوزيل، 1906، إعادة النشر، 1930،
(تاريخ، قصة)،
الأمير عبد القادر، باريس، هاشيت، 1925، (تاريخ)،
حملة الجزائر، باريس، بلون، 1930، (تاريخ)،
بيجو والجزائر، باريس، الباريسي الصغير، 1930، (تاريخ)،
فتح وتهدئة الجزائر، باريس، مكتبة فرنسا، 1931، (تاريخ)،
جند الجزائر الكبار، أورليان، بيجيلي، 1931، (تاريخ)،
1852 جيش إفريقيا لسنة 1830 إلى سنة 1952 . باريس، بلون، 1936،
(تاريخ)،
1937 – بول أشارد، رجل البحر، باريس، نشر فرنسا، 1931، (رواية)،
1938 – روني ليسبيس، وهران، باريس، ألكان، 1938، (دراسة عمرانية).
المؤلف كان قد أصدر الجزائر. الجزائر، كاربونال، 1925، إعادة النشر.
ألكان، 1930، (دراسة عمرانية)،
1939 – من غير توزيع،
1940 – روني جانون، القذرون، طنجة، نشر، العالميات، س . د (رواية).
1941 – محمد سيفي، (الاسم المستعار علي بلحاج)، ذكريات طفولة
بلدي، (رواية)، هذا المخطوط لم يكن قد نشر أبدا .
1942 – إيمانويل روبلس، عمل الرجل، الجزائر . شارلوت، 1942،
(رواية) .

- إيدموند برويا، ذكريات الكوكب، الجزائر، ف . هيتنز، 1942، (أشعار) .
- 1943 – لوسيان جان داروي، مجموع العمل : زواج الأنسة مائة هكتار، الجزائر صوبيرون، 1929، (رواية)، في حديقة أبي، الجزائر، أمبيرت، 1942 ،
- ر. و أ. الزناتي، بو الأنوار، الشاب الجزائري، الجزائر، دار الكتب، 1945، (رواية) .
- أرماند لامي القنطرة، فوندا الشلوح، الجزائر، شارلوت، 1943، (رواية) .
- 1944 – ليون لوهيروس، مجموعة أعماله : غناء ونشيد الجيش الإفريقي، باريس (س . ج . ي . أ) / الجزائر، صوبيرون، 1933، مسلمون 1938، زواج في الجنوب الجزائري، الجزائر، باكوني، 1938، (مقالة)، رسائل صحراوي، الجزائر صوبيرون، 1933، الصحراء، واحاتها، الجزائر، باكوني، 1934 - على دروب الصحراء، باريس، بلون، 1928، الصحراء الجزائرية، الجزائر، مينيرفا، 1937، مؤسسو الإمبراطورية، الجزائر، كاربونيل، 1931، في الصحراء مع س. ت شارلوت، باريس، بلون، 1932، الفرنسيون في الصحراء، الجزائر، إقليم الجنوب، 1937، في الصحراء مع الأب فوكولود، الجزائر، باكوني، 1944.
- سعد الدين بن الشنب، الشعر العربي المعاصر، وهران، هنريس، 1945، حكايات الجزائر، وهران، هنريس، 1946،
- 1945 - بيار ويس، حكايات هلال القمر، الجزائر، شيكس، 1945 .
- أليكسندر لويس بريجنوت ، نسر الغابة، الجزائر شارلوت، 1945، (رواية) .
- 1946 – هنري مارشاند، مجموعة الأعمال الشعرية، : مسقط الرأس الجزائر، كاربونيل، 1941 أرض الموري، الجزائر، طباعة الفن، 1942،

- ساعة رمل الفضة، الجزائر، بفيقي و أسان، 1938، معطف البرفير،
الجزائر، طباعة الفن، 1945، شذى الورود، الجزائر، مطبعة، فولوت،
1946،
- جان بابتيسين (لاجان) كانافاجيا، نحن المنتخبون، باريس، غراسيت،
1946.
1947 - 1950، من غير توزيع .
1951 - جورج مارسي، البربرية الإسلامية والشرق في العصور الوسطى،
باريس، أوبي، 1946 .
1952 - 1953 - من غير توزيع .
1954 - مارسيل موسي، الدم الحار (الساخن)، باريس، جاليمارد، 1952،
(رواية) .
1957 - ماكس مارشاند، الزوج الفريد من نوعه (المتعذر استبداله)،
وهران، فوك، 1955، (مقالة) .
1961 - جان نويل، (الاسم المستعار لبييار بيساد)، حلم سيء، الجزائر، شركة
النشر زاديق، 1955، (قصة)، يومية محافظ إداري، في باليسطرو، الجزائر،
باكوني، 1958.

الفصل الثاني: السياق التاريخي

إن عناصر المعرفة الدقيقة التي سنذلي بها هي عناصر من أجل معرفة المجتمع الكولونيالي كما تكشف عنه الدراسة التاريخية. نحن نزود القارئ بهذه العناصر لكي يستطيع الرجوع إليها حتى في نصنا، فيما بعد، ونسترجع، في بعض الأحيان، هذه الإيضاحات بالتفصيل.

أ/ الحياة السياسية المزوجة في المستعمرة: حياة إسلامية، وأخرى أوروبية.

كان الموضوع المطروق في أكثر السرديات الكولونيالية هو موضوع إدماج الرجل الأهلي في الأقلية الأوروبية، علينا إذن أن ننظر، في مرحلة أولى، ماذا كانت الوضعية الكولونيالية للأهالي غداة الحرب العالمية الأولى. كانت الحياة الأدبية قد بدأت في التوسع والنمو آنذاك. ونعتقد أن مشكل السياسة الأهلية (الأنديجانية) يظل مطروحا في الجزائر. فالمسلمون يريدون الوصول إلى حياة سياسية أكثر اتساعا. إلا أن هذه لم تحدث إلا ابتداء من 1919، على مستويين اثنين في الوقت ذاته: على المستوى الشعبي، مستوى الحياة الواقعية، حيث يصبو، ويطمح الأهالي أكثر فأكثر إلى حياة وطنية، على المستوى الرسمي، حياة الشرعية (القانونية)، حياة الإطار الذي يطالب فيه المنتخبون والأعيان المسلمون بالمساواة التامة بين الأوروبيين والمسلمين⁽¹⁾.

سنعالج فيما بعد المشكل الأهلي، ولنتصدى عاجلا إلى الشؤون السياسية.

¹ . kaddache mahfoud : vie politique à Alger, 1919-1939, S.N.E.D., Alger, 1970,p.369.

1/ "الشبان الجزائريون" طلب الإدماج (1919-1939) مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية.

هل كانت سياسة الإدماج قد أصبحت ممكنة للمرة الأولى بتمني نخبة "الشباب الجزائري" ؟ هذا الإدماج، هذا الحلم الذي كان يمكن أن يصبح حقيقة، كان يقول لويس لوكوك في إحدى رواياته "الحريق"⁽¹⁾.

ماذا كانت الوضعية في سنة (1919)، في الوقت، حيث كان الأمير خالد⁽²⁾ و"الشبان الجزائريون" يقترحون البرنامج التالي : "بلوغ الأهالي إلى المواطنة الفرنسية في إطار القانون الشخصي الإسلامي، والتمثيل الأهلي في البرلمان، الإلحاق الصحيح والبسيط للعمالات الثلاث بالمتروبول (الوطن الأم)، إلغاء البلديات المختلطة، إنشاء جامعة عربية، إجبارية التعليم بالفرنسية والعربية"⁽³⁾.

¹ . L. Lecoq : L'incendie, Paris, Fayard, 1921, p. 102.

² . Emir khaled : petit-fils de l'emir Abdel- Kader , herititier donc d'un nom prestigieux, donne « le signal » de la reprise de la lutte politique . L'émir Khaled a participé à la première guerre mondiale dans le rang de l'armée française. Il a été promu officier. Il est élu conseiller municipal en 1919 , puis conseiller général , puis délégué financier . il entreprend de 1920 à 1924, un combat politique sur tous les fronts, contre l'administration policière , les caids féodaux, les colons , les expropriations des terres, l'emir khaled devait dire : « c'est cette masse ignorante et aujourd'hui passive qui aidera un jour proche , je l'espère, à sa propre libération ». mostefa lacheraf , l'algerie, nation et société paris maspero, 1975, pp.193-194. léemir khaled est reçu par le président français millerand en avril 1922, au nom de la municipalité d'Alger, il retire la revendication d'une représentation au parlement français « d'un ton qu'on se plut à décrire irrévérencieux », op cit., p. 135.

³ .m kadache : vie politique à Alger, 1919-1939, Alger S.N.E.D., 1970, p. 369.

كان الأمير خالد، في أبريل (1914)، قد طلب إلغاء قانون التبعية الأهلية (أنديجينا)، ومحاكم الاستثناء، والتمثيل الحقيقي في كل المجالس، واستخدام اليد العاملة الأهلية في فرنسا وحماتها، لكن هذه النخبة الجزائرية كانت قد خاب ظنها من " خجل " إصلاحات الحاكم العام جونارت، وبالأحرى في مقابل مطالبهم (من أجل التخفيف على الجزائريين من الضغط الممارس عليهم من الإدارة الكولونيلية). لقد كانت قد أعطت في (1912) "الدعم" لمشروع تجنيد المسلمين . لقد كان الجزائريون إذن قد أراقوا دماءهم من أجل فرنسا.

إن تاريخ قانون 4 فيفري 1919، كان ذا مغزى، فالحرب الأولى قد انتهت ، ولا يمكن أن تكون مواطنا فرنسيا إلا بعد التخلي عن التشريع القرآني . كان هذا القانون مقيدا أكثر في مجمله، من القرار المشيخي لسنة 1865، المفتوح لكل المترشحين البالغين 21 سنة . فمرسوم 6 فيفري 1919، كان يوسع لتمثيل المسلمين في مجالسهم الخاصة بهم فقط . كان لوكوك ينوح على المتروبول التي تجازف بنفسها بإصلاحات عديمة الفائدة أو مشؤومة، فهي تمنح حقوق انتخابية إلى رعاياها، لكن هذا لا يكون إلا في الإطار الخاص لمجتمعهم، أيضا ألا تعزز و تشجع، من أجل معارضة حتمية، وقريبة، وحدة الإسلام " (1) . أما شارل عقون فقد كان يصرح، في المجلة الإفريقية : " إنه الإفلاس في المناهج الحكومية المطبقة حتى اليوم في بلدنا الإفريقي " (2) .

كانت الحياة الجزائرية منذ ذلك الحين تتجه إلى أن تكون مضطربة من الهيجان (الدوامات) ومن ردود الأفعال، يعلق بيار جودان، المستشار

1 . Louis Lecoq : L'incendie , paris Fayard, 1921, p. 102.

2 . Charles akoun : Article « Nécessité des méthodes algérianistes » Afrique, juillet 1929.

البلدي لباريس في (1928) : " يجب أن يترجم تاريخها رجة المذاهب والعقائد التي ادعت تسييرها، وكذلك الاتصالات الفظة للأوهام وللحقائق⁽¹⁾ .

لم تنقطع النخبة الجزائرية المسلمة عن المعارضة لهذا النظام الجديد، الذي، فلنقله حيناً، سيستمر حتى (1944) . إذن فتوهّمات المنتخين الأهالي ستصطدم باكراً جداً بالواقع السياسي الذي كانت السلطة الكولونيالية تريد تأييده . وهكذا ستعرف الجزائر حتى الحرب العالمية الثانية، حياة سياسية مزدوجة، حياة إسلامية ، وأخرى أوروبية " متجاهلة الواحدة في الغالب الأخرى، ومع أنهما كثيراً ما تخضعان لظروف متماثلة فإنهما ليست لهما نفس الانشغالات " ⁽²⁾ . وحتى قوانين جونارت المعتبرة من قبل المسلمين غير كافية، تثير الاضطرابات في الجزائر الكولونيالية .

وكان شارل عقون، الصحفي والكاتب الكولونيالي، آنذاك، في المجلة الإفريقية، يتساءل : " ألا يحتفظ لهذه الفئات المتميزة من الجزائريين بنقاط تماس واتصال ستسمح في القريب أو القريب جداً بتأثيرات و تناضحات اجتماعية متبادلة؟ على العكس فقد كان يسجل و يرى، أنه قد تضاعفت وتعددت الفواصل و الحواجز العازلة في كل ميدان من ميادين النشاط ⁽³⁾ غير أنه بالمقابل ترى، صدى الجزائر، الجريدة التي جعلت اللسان الناطق باسم الكولونياليين، أن هذه القوانين مرفوضة وغير مقبولة، " فالتفوق الأوروبي قد وضع هكذا في خطر" . إن الجريدة كانت تخشى حتى " من موجة التجنيس

¹ .Pierre Godin : conseiller municipal de Paris dans préface à l'Algérie du centenaire, d'Octave Depont, Paris 1928, Sirey, p.2.

² . M. Kaddache : Vie politique à Alger 1919-1939, op. cit., p. 369.

³ . Charles Akoun : Article « Nécessité des méthodes algérianiste », Afrique Juillet 1929.

الأهلي" ⁽¹⁾، هذه الأقوال تترجم جيدا خوف الأوروبيين من "أن البربري يبتلع الرومي" ⁽²⁾، كما يسجله لوكوك وبومي في نفس الفترة .

2/ رفض سياسة الإدماج من قبل الطائفة الفرنسية في الجزائر .

كان يلاحظ، في مؤتمر الكولونيين في جوان 1919، حتى حركة استقلالية ستتأكد في السنوات الموالية بالمطالبة بـ"برلمان فرنسي / أهلي" . لكن في مختلف المشاريع التي كانت توضح هكذا نسبة الأهالي، التي لا تتجاوز الثلث أبدا . في هذه الأحوال قد يبقى الأهالي هكذا مواطنين من الدرجة الثانية ⁽³⁾ . وكانت سياسة الإدماج قد رفضت من قبل مؤتمر أميار الجزائر الذي انعقد في 27 ماي 1920 .

وقد كان ممثلو البلديات يعتبرون، في الواقع، قوانين جونات، "غير مناسبة وفي غير محلها" ⁽⁴⁾ . وبالمقابل، كان شيوخ البلدية، يقترحون برامجهم : تدعيم الإعمار والاستيطان الأوروبي ، وإنشاء حاميات كبيرة قوية لإبطال تأثيرات القوانين . وهذا يكون متناقضا مع ما كان يصرح به بيار فالان الكاتب الكولونيالي والشاعر، في المجلة الإفريقية: "نحن نمنح بقدر ما نأخذ من الآخرين، وهذا العطاء منا يجعل الانصهار أكثر سهولة، أجدد من أن نمد اليد بالأحرى للكلمة" ⁽⁵⁾ . إذ أن الكولونيين كانوا يلمنون بـ"جزائر على صورة جنوب إفريقيا" .

¹ . Ageron (CH.R) : Les Algériens musulmans et la France , P.U.E. , 1968, p.1 226.

² . Louis Lecoq : L'incendie roman cité, p. 98.

³ . Ageron (CH.R) : Les Algériens musulmans et la France, (1871-1919), P.U.F., 1968,p.1.226

⁴ . Octave Depons : L'Algérie du centenaire, Paris, Sirey, 1928,p.85.

⁵ . pierre vallin : « L'arme algérienne », Afrique , novembre 1931.

لكن يبقى دائما مصممين، الشبان الجزائريون دائما عازمين مصممين على الحصول على ما يرضي، ويقدمون على التوالي في (1922)، وفي (1924)، (سنة إبعاد الأمير خالد إلى فرنسا)، في حكومة هيربوت نفس البرنامج، وقد تكونت في (1927) فيدرالية المنتخبين الأهالي للجزائر. هذه التي عقدت أول مؤتمرها نفس السنة، المؤتمر الذي أعلنت فيه الفيدرالية رغبتها في الدخول في الحاضرة الفرنسية (الأمة) مع البقاء مسلمين تماما⁽¹⁾.

ويوصي لوكوك مجزم في (1927)، " امنحوا صفة المواطن الفرنسي للنخبة المتغربة، كعلاقة أخلاقية معنوية، بما أنكم لا تستطيعون الحصول على العلاقة الدينية، احصلوا على العلاقة الإنسانية والتقدم، إنهما إذن ورقتاكم في اللعب، وإلا سيتهي ذلك إلى الإفلاس"⁽²⁾.

وهكذا فقد كانت المذاهب والعقائد بشأن التطور السياسي للمستعمرة متنوعة . في جويلية (1927)، يتكلم ليون بلوم في غرفة النواب، عن " الحكومة الذاتية"⁽³⁾ . وفي الجزائر يمنح الكولوناليون، بالمقابل، فيوليت مشروع تسجيل، عشرات الآلاف المثقفين المسلمين على القائمة الانتخابية⁽⁴⁾ . أما لويس لوكوك فهو، يدلي بشهادة أخرى : " يتعلق الأمر، يقول، بالأهمية التي تولى للسيد الحاكم العام فيوليت في فرض التجنيس الفرنسي جملة لعدد ما، لا يعرف كم، من الأهالي"⁽⁵⁾ .

¹ . Nouschi (C.R) : La naissance du nationalisme algérien, Paris, éd. De Minuit , 1963, p.63.

² . Louis Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, 28 juin 1927.

³ . J.Mélia : Dans la partie française, la patrie algérienne, Alger, Maison du Livre , 1952, p. 137.

⁴ . Nouschi (C.R) : Op, cit., p. 60.

⁵ . Louis Lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

ودائما فيما يخص السياق السياسي، يستحضر أيضا لويس لوكوك التخوفات من الشيوعيين في جوان (1927)، وسيلاحظ أن "البربري له إحساس حي بالمساواة والعدالة، طبيعته تنزع بسهولة إلى الشيوعية"⁽¹⁾. إذ أنه توجد لدى الحكام الفرنسيين لهذا الوقت نفس القلق. منذ بداية حكومته، قام فيوليت بتوقيف ثلاثين من علية القوم، اتهموا بنشر دعاية ضد الفرنسيين، "البعض منهم لأنهم كانوا يقومون بتمجيد ومدح عبد الكريم، والبعض الآخر لأنهم كانوا قد سعوا إلى جر إخوانهم في الدين إلى الحملة المشؤومة التي قام بها الحزب الشيوعي"⁽²⁾. ويبيدي الحاكم العام، أيضا انشغاله بشأن تأثيرات حرب المغرب والحزب الشيوعي على الأهالي. لقد أصبح الخطر الشيوعي، منذ (1924)، "لازمة" للمدافعين عن الوضع الراهن. لكن نشرة "إفريقيا الفرنسية" كانت قد استثمرت الموضوع.

مبررة كل هذه التخوفات، تطلق موسكو في يوم 23 مارس (1922)، "النداء العالمي الشيوعي من أجل تحرير الجزائر وتونس"، في حين كان نفس الموضوع قد أعيد طرحه من قبل المؤتمر العالمي الشيوعي لكولونيا، في خريف (1924)، ومن قبل فيدرالية الجزائريين للحزب الشيوعي في (1925). بحيث أن وزير الداخلية ألبرت سيروليت، يصرح في (1927)، في قسنطينة: "الشيوعية، ها هو العدو". ويستأنف فيوليت متابعا كلامه: "سوف لن أتحمل مسؤولية تسليم الجزائر إلى مندوبي العالمية الثالثة"⁽³⁾.

¹ . Louis Lecoq : « l' Algérie en France », l' Afrique , 28juin 1927.

² . A.Nouschi : Op, cit., p. 59, (rapport du ministre de l'intérieur dans l bulletin du comité de l'Afrique française, p.124).

³ . A. Nouschi : Op. cit., p. 58.

من جهة أخرى، كانت هذه الفترة على مقربة من الذكرى المئوية، وسوف لن يفوت الحاكم جياربوردي، كخليفته جيل قارد فرصة للاحتفال "بتمجيد" الاستعمار و"رسوخ العمل الفرنسي" في الجزائر. ولم يزعزع طوفان وهران في (1927) و(1928)، في بداية الأزمة العالمية فيها تفاؤهم مع أن الشيوعيين قد استمروا في دعوة المسلمين إلى الانتظام وإلى التظاهر لصالح استقلال الجزائر. وتحثمهم الإنسانية صحيفتهم ليوم 30 أبريل 1930 على الرد على وقاحة الإثارة التي تسببها احتفالات الذكرى المئوية⁽¹⁾، وكان لويس لوكوك يسجل في المجلة الإفريقية، في جوان (1927)، "هذا الاحتفال المئوي الشهير، الغنائي والإجباري، المجدد للعجز الفرنسي في المصالحة مع الإيرادات المكتسبة من قبل العزبات (المزارع الفلاحية)⁽²⁾".

وبإجمال، فإن الشعور بالغبطة تتضح في كثير جد من الاعتبارات، بإنجاز الطرقات، والمستشفيات، والسدود، وبالانطباع بالازدهار وبالرخاء، وبعصرنة وتحديث البلد، وتنمية الأرياف "لصالح الأوروبيين وحدهم.

كان لويس بيرتراند قد أجاد عبر رواياته في وصف "حمى البناء والتشييد" التي عرفتها الجزائر في بداية القرن⁽³⁾، أما لويس لوكوك فقد كان هو شاهد عصره. ويعثر في عمله، على هذا الجو من الابتهاج والمرح ومن نقده.

¹ . C. Julien : Op. cit., p. 119.

² . L.Lecoq : Article cité, Afrique, 1927.

³ . Aimé Dupuy : L'Algérie dans les lettres d'expression française, Op. cit., p.96.

13 تدعيم الاستعمار : الإحساس (الانطباع) بالازدهار والرخاء عشية الذكرى المئوية .

كانت الجزائر على المستوى الاقتصادي مزدوجة أيضا . ستكون الإعانة مستثناة للكولونيين، وبالمقابل سيكون الأهالي "مسعفين مغائين بشح" . إذن فالازدهار والرخاء كان "توهما" ، و "انطباعا" في هذه الحال بالضبط . وكان هذا الانطباع بالازدهار (الرخاء) قد كشف عنه من قبل بعض الكتاب الكولونيين الذين منهم لويس بيرتراند ولويس لوكوك . وآخرين من بينهم . " هذا الرخاء للمستعمرة كان قد حصل بفضل كرومها" ، كان لويس لوكوك يسجل في حكايته شيطان العدل الحق (Le Demon du bon Droit) المنشورة في (1928) ⁽¹⁾ . يكتب لويس بيرتراند في مجلة العالمين ليوم 25 جوان 1931، "إن الجزائر هي حقل واسع من الكروم، معصرة عملاقة، من حيث يتدفق ينبوع حقيقي من الخمر، كما يتدفق ينبوع طبيعي" ⁽²⁾ .

إن البناء الاقتصادي للمستعمرة يرتكز على الزراعة (الفلاحة)، فالصناعة منعدمة ⁽³⁾ . غير أن اتساع هذه الحركة كانت حديثة . منذ بداية القرن، رغم التسهيلات في القروض الممنوحة من قبل الحكومة، كانت المستعمرة راكدة بائرة ⁽⁴⁾ "لم تكن الاستغلالات قد استئنفت" . كان للأوروبيين نزوع إلى "الابتعاد عن الأرض" ⁽⁵⁾ ، فقد كان قانون الاستعمار المحدد بمرسوم 1904، الذي كان يحرز على تنصيب 2000 عائلة

¹ . L.Lecoq : Le Démon du bon Droit, p.23.

² . Aimé Dupuy : cite la revue des Deux Mondes dans L'Algérie dans les lettres d'expression française, Op.cit., p.96.

³ . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, juin 1927.

⁴ . A. Nouschi : Op.cit, p.41.

⁵ .L.Lecoq : Article cité, A frique, juin 1927.

من 1904 إلى 1922⁽¹⁾، قد عدل آنذاك بقانون 9 سبتمبر 1924، وكانت إجبارسة الإقامة بهذا النص على مدى عشر سنوات إلى عشرين سنة مع منع البيع للامتياز لمدة 20 سنة، ومنع استبدال معوض، حتى يحدد ويثبت للأرض أصحاب الامتياز بوثوق أكثر من ذي قبل.

حينذاك باشرت الإدارة سياسة الأشغال الكبرى، لاسيما، المائية (الهيدروليكية). فقد كانت 160 مليوناً من 427 مليوناً قد خصصت لهذا العمل. "سياسة الماء التي قد لا تكون من جهة أخرى إلا مصلحة فلاحية، تتضاعف وتعزز هنا مصلحة البقاء (الاحتفاظ) الفرنسي"⁽²⁾، يقول لوكوك على لسان أحد شخصياته، كولون قد اغتنى، في 1921، في "الحريق": 16 مليوناً، كان يجب، في الواقع، أن تستخدم في "الحصول على أراض جديدة" وفي تهيئة محيط الري الواجب لمساعدة الكولونيين.

لقد كانت السنوات (1920 - 1925) رديئة. وقد نجح الاستعمار بفضل، إجراءات إدارية وبعض العمل الدائب، غير المنقطع، للممثلين الأوروبيين في البرلمان، وفي المجالس المحلية، عشية الذكرى المئوية في تجاوز الأزمة التي انتهت بالتجميع الجديد للملكية على حساب الكولونيين الأقل قوة ونشاطاً. "ويوجد هناك الآن الكولونياليون أقل من زمن بيجوا، ينوح لوكوك، في 1931، في باسكولات الجزائر"⁽³⁾.

ابتداء من 1925 حتى 1930، كانت حركة استئناف العملية الاستعمارية قوية جداً. لم تكن المزارع الكولونيلية (les latifundias) تعكف إلا على إنتاج الحبوب، وعلى زراعة الكروم، مع أن نشرة لجنة

¹ . A. Nouschi : O p. cit., p.38.

² . L. Lecoq : L'incendie , p.98.

³ . L.Lecoq : Pascualette l'Algérien, appelé en un premier temps Moloch, édité par Albin Michel, Paris, 1934, à titre posthume.

إفريقية الفرنسية "قد نددت" في 1924، بـ "خطر" استرجاع الأراضي عن طريق الشراء من قبل الأهالي، في الواقع، أنه قد نتج عن ذلك 74000 هكتارا لصالح الأوروبيين⁽¹⁾.

وكان بنك الجزائر قد وافق، بالرغم من رفض البرلمان الفرنسي، على تقديم قرض 20 مليوناً وراح دعمه للكولونيين حتى للالتزام، ابتداء من 1925، في تسهيل ميلاد مؤسسة جديدة للقرض، موجهة بنوع خاص إلى الفلاحة. وهكذا كانت المستعمرة في أوج توسعها. غير أنه في سنة (1929) قد شعرت "بالتهديد في مصالحها". فعلا، فالنواب كافورت، وكاستيل، يقدمان في الغرفة مشروع التخفيض، من الاستيراد الفرنسي لخمور الجزائر، ما يؤدي، طبعاً، إلى رد فعل قوي جداً من الكولونيين الذين يفلحون الكروم. وكان الصوت قد خفض، عند الذكرى المئوية عن هذه المهاترات و الاحتجاجات. لكن، ريثما يرتفع إنتاج الكروم بتواتر مدهش، في ظرف ثلاث سنوات، من (1927 إلى 1930). كانت الزيادة تعادل في ذلك إنتاج سنوات (1900 — 1921)، من 8 مليون هكتولتر، يقفز، تقريباً، إلى 13 مليوناً⁽²⁾. ويريد قانون 14 جويلية 1931، أن يضع حدا لغرس أشجار الكروم (الدالية)، وتترك الحرية التامة للاستبدال في الغرس للمزارع الأقل من عشر هكتارات، وبالرغم من القانون، فإن زيادة مساحات الدالية (الكروم) ستصل نسباً مفرطة بـ : 42 في المائة، في عمالة الجزائر، 56 في المائة، في قسنطينة، و85 في المائة في وهران⁽³⁾.

بالإضافة إلى ذلك، ينشئ الحاكم كارديس في 1931، الـ (o.f.a.l.a.c) لتسهيل تسويق إنتاج الكولونيين. فضلاً عن ذلك، فقد

1 . A. Nouchi : Op. cit., p.41

2 . A. Nouchi : Op. cit., p.41.

3 . A. Nouchi : op. cit., p.44.

كان تدعيم المستعمرة برؤوس أموال معتبرة . نحن نملك أرقاماً، قد تكون، دالة و معتبرة، فمبلغ الصناديق الجهوية للقروض قد تجاوز (802) مليون، في سنة 1935، إلى 1200 مليوناً، في سنة 1939⁽¹⁾ . كان لوكوك ينصح في (1927) المتربول (الوطن الأم) : " كان عليها أن تحافظ على محابة الأوروبيين، والفرنسيين المهاجرين الذين يكونون إطارات الجزائر التي لم تكن فرنسية إلا لأنهم هنا"⁽²⁾ .

وتسمح بعض هذه التوضيحات بتحديد و تموضع العديد من التلميحات و الإشارات الاقتصادية للأعمال الأدبية .
إنه من الضروري الآن أن نلقي نظرة عن حالة الإعمار والاستيطان الكولونيالي للجزائر الذي يظهر هو أيضاً، غالباً، في مختلف الحكايات و السرد.

ب / سمات و خصيات السكان الفرنسيين للجزائر.

كان " التعمير والإسكان الجديد " للويس بيرتراند، في الواقع، بعيداً عن أن يكون جماعة حقيقية . وكان " السكان الفرنسيون للجزائر " يشكلون جميعاً تجاورياً لمختلف المجموعات الأوروبية . وهكذا يجعل لويس لوكوك وميسات وآخرون من بينهم شخصيات متنوعة تعيش في رواياتهم، جاعلين، أصالتهم وابتكاراتهم متميزة . يصرح الكاتب الكولونيالي، جان بومي، في أبريل 1931، " إن الجزائر ليست فرنسا، ليست امتداداً لفرنسا، لا، لأنه يوجد هناك إسبان، ومالطيون، ويهود، وبربر، وميزابيون، وإيطاليون، وعرب ... لكن لأن الجزائر مازالت لم تكن بعد وطناً"⁽³⁾ .

¹ . A Nouschi : Op. cit., p. 45.

² . L. Lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

³ . J. Pomier : « Prélude à l'exposition coloniale de Paris », Afrique , Avril 1931.

1/ الانصهار والاندماج البطيء لمختلف العناصر الأوروبية.

فعلا، فبهيات أن يكون كل الكولونيين ذلك، فهم ليسوا مهاجرين فرنسيين، بالإضافة إلى ذلك، فالانصهار بين مختلف المجموعات كان ناقصا، غير تام، حتى ولو كان التمهيد له غداة الحرب العالمية الأولى، ميسرا، بواسطة تطور اللغة الفرنسية، والشخصية (الهوية) الدينية، وطريقة العيش⁽¹⁾.

لقد كان أرويو الجزائر، حسب إيمي ديبي، في 1901، بعدد 612000، منهم 558000 من أصل إسباني أو إيطالي. يلاحظ ضعف نسبة "فرنسيي فرنسا". فعلى 558000 أوروبي من أصل إسباني أو إيطالي، هناك 364000 متجنس بالجنسية الفرنسية، وبقي أجنبا⁽²⁾ بعدد 1558000 إسباني، و 39000 إيطالي.

وقد احتفظ الأجانب، من سنة 1906 إلى 1911 بنفس المعدل، أي النصف. وبعد (1911) فمختلف الإحصائيات لا تسمح بالتمييز والتفريق بين الفرنسيين والأجانب، كان المتجنسون في عداد الفرنسيين، لكن ليسيس يقدر أن نسبة الفرنسيين الأصليين كان في المجموع المتحفظ عليه⁽³⁾ وربما يفسر ضعف هذه النسبة، الانصهار البطيء لمختلف العناصر الأوروبية، وكما أن "فرنسي فرنسا" يفصل بوضوح في الوسط الكولونيالي. ويتم العثور على هذه الإثباتات والمعائنات في جل روايات الكتاب الكولونيين لهذه الفترة، لويس بيرتراند، روبرت راندو، جان بومي، لويس لوكوك... وبالمقابل، يكتب جبريال أوديزيو، في *شباب المتوسط*،

¹ . M. Kaddache : Op. cit., p.16.

² . Aimé Dupuy : l'Algérie dans les lettres d'expression française, Op. cit., p.91.

³ . M. Kaddache : Op. cit., p.16.

في (1935)، " لا أريد الاحتفاظ من العرق (الجنس) إلا بالتجمع الأخوي، وليس المتناقض"⁽¹⁾، ويعد في (1921) 791000 أوروبي بالنسبة لـ 4923000 مسلم. وترتفع نسبة العنصر الأوروبي في 15 سنة بـ، 11، 8 والعنصر الأهلي بـ 15، 3

1931	1921	الزيادة (1921 - 1931)
6201000	4923000	المسلمون 3،15 /
946000	791000	الأوروبيون 8،11 /

ويتحدث لويس لوكوك، في مواجهة عدم التوازن هذا للجماعتين، المسلمة والأوربية، على لسان الكولون كومتالو، في الرواية "الحريق" : " نحن نعرف واجبنا، مصلحتنا، إعادة تشكيل أجمة الرومان من جديد، في التشابه مع فرنسا، هناك، إذ إنه من غير ذلك سنهلك، سنهلك جميعا .."⁽²⁾

2/ التفوق (السيادة)، في الجزائر، مفروض من قبل الأقلية الأوروبية
أولا وقبل كل شيء فعقلية "فرنسيي الجزائر" كانت خاصة. في سنة 1923، تسجل البعثة البرلمانية التي زارت الجزائر من جانبها، شكاوى⁽³⁾ . فإذا كان الكولونياليون يطلبون بشدة الامتياز في القروض، فإنهم بالمقابل، يرفضون بنفس الشدة كل زيادة في الضريبة . وفي سنة 1925، يحتجون ضد مشروع مراجعة التقييمات المالية . وفي سنة 1927، ترفض البعثات المالية، المتكونة في معظمها من قبل الكولونيين الكبار، أن تضع على حساب "

¹ . Gabriel Audisio : jeunesse de la Méditerranée, Paris , édition Gallimard, 1935, p.16.

² . L. Lecoq : L'incendie, p. 98.

³ . A. Nouschi : Op. cit., p. 38.

الميزانية الجزائرية " جزءا من القروض العسكرية كما كان يقترحها الحاكم العام فيوليت ⁽¹⁾ . كان غضب هذه المجالس كبيرا، لاسيما أن الحاكم العام يهتم أيضا بالأهالي . يقول لوكوك على لسان الكولون الكبير كومتالوكس في الحريق " إن الإيديولوجيين، المحررين الذين يتمسكون في كل لحظة بالحق الطبيعي في المساواة، بالأذى الذي ألحقوه بهذا البلد، سوف لن تعرفوه أبدا " ⁽²⁾

ويظهر الكولون في هذه الفترة نفس عزم الإرادة في إعادة تشكيل الثروات الغاية للبلد من جديد لصالحهم . ويستحضر لويس لوكوك مرارا المشكل . وما يزال " مشكل الغابات " لم يحل . ويصرح سيناتور عمالة قسنطينة كيتولي بالتصريح التالي في مجلس الشيوخ : " يجب على الإدارة أن تعدل في قانون الغابات، يجب أن تلتطف مواده و تعليماته المفرطة في الشدة " ⁽³⁾ . إذ أن الأقلية ترغب في المحافظة على التفوق والسيادة في كل المجالات . ويلاحظ المؤرخ أجيرون مستشهدا بالكولونيين بالفعل أنه " لو يترك إلى الراعي بالولادة (أهلي) سلاح شبيه بين الأيدي، سوف لن تكون الحاجة إلى اللجوء إلى التمرد " ⁽⁴⁾ ، إذ أن البيئة قد تصبح غير قابلة للسكن والأرض عقيمة، جدهاء، وسيكون الكولونيين مجبرين على الفرار . إنه على أية حال هذا ما يفكرون فيه . يبدو أن المبررات للامتيازات لم تكن قد هجرت و تركت بعد 1920 . وفي سنة 1939، كان شارل كورتان،

¹ . A. Nouschi : Op. cit., p. 39.

² . L. Lecoq : L'incendie, p.29.

³ . Ch. R. Ageron : Op. cit., p.791. Ch, R. Ageron écrit « Déjà le gouverneur jonnart le 28 mais 1904, dans son discours d'ouverture disait : « je puis citer des régions ou les indigènes resserrées entre les terres livrées à la colonialisation et la foret ne peuvent plus se mouvoir sans s' exposer à des procès-verbaux » Op. cit., p .780.

⁴ . Ch. R. Ageron : Op. cit., p. 777.

الكاتب الكولونيالي "يندد" في *مقهى المور*⁽¹⁾ بنزعة "العرب إلى تخریب الغابة لإيجاد مراعى فيها". وهكذا تبدو الصورة السلبية الممجوج، المنشورة على نطاق واسع من قبل المستعمرة "الرهاب والهلح البربري من الغابة" مستمرا.

غير أنه سيذكر أن القرارات المتخذة من قبل لجنة 1905، قد زادت بغرابة قانون (1903)، تفاقما. وقد كان الأهالي من الآن فصاعدا مجبرين في أعمال قلع و قطع الأشجار، وفي إنحجاز مخارق و مسالك، واقية من النار، وفي خدمة دوريات ليل نهار، في غابات الفلين. ويصف لويس لوكوك بواقعية مدركا هذا العناء الجهنمي في كتابه *الحريق*، مضيفا هو نفسه استعارات مجازية "سخرة قديمة، يوضح، لا حتى مؤجرة"⁽²⁾، مفروضة على الجزائريين. بالإضافة إلى ذلك، فإن المؤهلات الأخلاقية المعنوية لحراس الغابات الأوروبيين قد كانت مريبة و مشبوهة⁽³⁾. وكان أوكتاف ديبون، المفتش العام للبلديات المختلطة يلاحظ في 1920، "انحطاطا بالغا جدا في المستوى الثقافي والمعنوي لحراس الغابات هؤلاء". وفعلا، فقد فتحت قوانين 1905 – 1913، هذه الوظائف إلى كل الناجين القدامى من خطر الحملات الكولونيالية. ولا تظهر محاضر الأهالي المحلفين لدى المحاكم⁽⁴⁾. فوق ذلك، فقد كان للإداريين، منذ بداية القرن، حق المعاقبة بالقصاص من قانون الأهليانية (الأنديجانا)، الجناة المفترض عدم استجابتهم إلى النداء والدعوة ضد الحريق. ويصف دوشين هذا الجو في 1925، في *عند أقدام جبال الخلود*: "كان السيد كيارد، المحافظ الإداري، يلوح بسوطه

¹. Charles Courtin : Café maure, Paris , les Editions de France , p.113.

². L.Lecoq : L'incendie. pp.99, 100, 103.

³. Ch. R A geron : Op. cit., p.785__ cite Depont Octave, inspecteur général des communes mixtes.

⁴. Ch. R Ageron : Op . cit., p. 785.

الإداري : قصاص التبعية الأهلية (الأنديجانا)، العزل، المسؤولية الجماعية في حالة الإخفاق المستمر...⁽¹⁾، ويمكن استخدامه واستعباده بناء على استدعاء معنوي وأخلاقي بسيط، وستظل هذه الوضعية طويلا من غير تغيير : ويشرح الكولون الكبير كومتالوس للمحافظ الجديد الوافد من فرنسا، فيرون " إن قانون العالم يتحدد بخضوع البعض لصالح الآخرين "⁽²⁾ .

غير أن هذا الأخير كان بعيدا عن تقاسم نفس "الفلسفة" مع الكولونيين . و سيوضح لوكوك " أنه فرنسي من فرنسا "⁽³⁾ . فيرون هو " كله إنسانية وكرم " . وينقل شارل أندري جوليان هذه الأقوال، " إنه من الصعب أن نسمع الكولون الأوروبي، أنه توجد قوانين أخرى مثل قوانينهم في البلاد العربية، وأن الأهلي ليس جنسا صالحا للسخرة وللإستغلال بلا رحمة وبلا شفقة "⁽⁴⁾ .

كانت الطائفة الكولونالية، في الفترة التي تهمنا، إذن مركبة . وكان الانصهار بصدد التكون " ببطء " . كان من اللازم على جان بومي أن يدون في 1931، " أكثر عاداتنا القديمة ترجع إلى قبعة (كاسكيطة) الأب بيجو "⁽⁵⁾ . من جهة أخرى، فهذه الطائفة تريد أن تحظى وحدها بكل الامتيازات و بكل ثروات الجزائر . إنها مضادة " بيولوجيا" لكل شكل من أشكال المساواة . فهي ضد المساواة الضريبية بإلغاء الضرائب العربية، ضد

¹ . Duchêne Ferdinand : Au pieds des Monts éternels, Paris, Albin Michel, 1925. p.42.

² . L. Lecoq : l'incendie. p. 99.

³ . L. lecoq : l'incendie. p. 101.

⁴ . c. Julien : op. cit., p.30 cite un membre du gouvernement français à la fin du XIXe siècle.

⁵ . j. pomier : « prélude à l'exposition coloniale de Paris », Afrique, avril 1931.

المساواة المدنية بإلغاء قانون التبعية الأهلية (انديجينا)، وضد المساواة الثقافية بتطوير و التمدرس (1) .

إذا مررنا الآن، تاركين الكولون، إلى رسم حياة الأهالي في الأعمال التي درسنا، ستسمح التوضيحات التالية، بتقويم أفضل للمضمون .

2/ حال الجزائريين المسلمين (1919 – 1939)

1 / فقر (فاقته) الفلاحين

سيكون العالم الفلاحي (الزراعي) الأهلي، الفقير من السابق (2) ، في الواقع، الضحية الوحيدة للكوارث المتتالية. كنا قد رأينا أن " الاقتصاد الجزائري " كان قد تحمل، في مجموعته، نتائج الحرب، المتفاقمة فيما بين (1919 – 1925)، من جراء سلسلة من المحاصيل الرديئة .

وقد أنهك واستنفد هذا التكرار من السنوات الكارثية العجاف المدخرات الهزيلة للفلاحين وكذلك موارد الشركات الأهلية للاحتياط، المؤسسة في (1893)، والتي لم يكن دورها في مستوى الظروف الاستثنائية . وراح الحاكم العام آبل حتى إلى التصريح أمام المجلس الأعلى في ماي 1920: " بأن الأهالي قد رأوا ظهور طيف المجاعة والقحط " (3) .

1 . C. Julien : op. cit., p. 31.

2 . Des travaux faits par les chercheurs algeriens : abdelghani Megheribi : La paysannerie algérienne face à la colonisation (Alger, E.N.A.P., 1973) et Djilali Sari : La Dépossession des fellahs (Alger, S.N.E.D., 1977) ont traité des procedes d'expropriation des fellah par la colonisation et exposé la condition « du monde rural » algérien. A. Megherbi explique comment en 1971, déjà, « le monde rural a atteint un seuil critique de rareté économique..... » à 1914 par les moyens et petits fellahs causant ainsi leur ruine.

3 . A. Nouschi : Op. cit., p. 27.

وقد كان لويس لوكوك، ولوسيان فافر، وفيرديناند دوشين، وألبيرت تريميفيس، وماكسيميليان هيلر، وشارل كورتان، وكتاب آخرون متناولين للجزائر... شاهدين على عصرهم في هذا الميدان. ويكتب ألبيرت تريميفيس، حتى لا نستشهد إلا به، في *نزل السرسو*، في 1930: "أن هناك فقرا في المشاتي، ومجاعة بالنسبة للأكثر فقرا. فالأولاد يذهبون إلى السهول لاستخراج الجذور أو للتسول"⁽¹⁾.

ويكتب المؤرخ شارل روبرت أجيرون، "كان الأستاذ كلوريو الشاعر مداح و منشد المستعمرة، في مؤتمر الكولونيين، يعترف "أن هناك في البلاد العربية كثيرا من الناس يقضون حياتهم يموتون جوعا، مواردهم الأساسية هي الفواكه والأعشاب البرية فقط"⁽²⁾.

فعلا، فإن إنتاج القمح الصلب يتراجع من 3 ملايين قنطار في 1919 إلى أقل من 2 مليونين في السنة الموالية. إذا كانت إجراءات 1924، كما رأينا، قد سمحت 1924، للمستعمرة أن تدعم، فوضعية الفلاحين لم تتوقف عن التفاقم.

وهكذا، أنه في ظرف ثلاث سنوات (1926، 1927، 1928)، فهم يبيعون 21000 هكتارا من الأراضي إلى الأوروبيين⁽³⁾. وقد كانت القطعان قد هلكت من جراء الظروف المناخية، فقد انخفضت أنعام المزارع الضأنية بأكثر من 50% في 1919. كان يعد في 1919، 7900.000 رأس لم يبق منها إلا 3.300.000 رأس في 1926⁽⁴⁾.

¹ .albert Truphemus : L'hotel du Sersou, Alger, édition Soubiran, 1930, p.263.

² . Ch. R : Ageron : Op. cit ., p. 845.

³ . A. Nouschi : Op. cit., p. 40.

⁴ . A. Nouschi : Op. cit., Ibid., p. 40.

إذن، من تحويلات الأراضي، إلى ضياع الجوهر الاقتصادي، تنضاف تأثيرات قانون عقاري جديد : هو قانون 4 أوت 1926، الذي يسهل دخول واختراق أراضي العرش . فهو يمنح الافتراض للمالك الذي يشغل الأرض، لكن بالمقابل، يجب على هذا الذي يدعي الملكية أن يقدم البرهان على ادعاءاته . في الواقع، فهذا القانون، فضلا عن ذلك، يسهل في نزع الملكية . يكتب عبد الله العراوي في تاريخ المغرب " أن عدد القرويين الفلاحين، في الجزائر، من غير أرض، محكوم عليه من قبل النظام الاقتصادي الجديد بالبقاء أبديا . كان يرتفع من دون توقف، ويبلغ نسبة 50 / حوالي 1930⁽¹⁾ . واحتجاجا ضد نزع الملكيات وضع الممثلون المليون الأهالي، في جوان 1928، مذكرة سحبت سريعا، خاضعين لبعض الضغوطات . ومن هناك استغلها الحاكم العام بورديس ليؤكد أنه سيكون " من الاعتقاد الفاسد الذي لا جدال فيه التأكيد على أن عمل الاستعمار في الجزائر يقوم على نزع ملكيات الأهالي "⁽²⁾ .

غير أن الحاكم العام فيوليت يشير إلى أن هذا التصرف و النهج، ممارسة " لاسيما عندما يراد توسيع قرية "⁽³⁾ . يتم العثور أيضا، في عدة روايات كولونياالية، على التنديد بنظام المصادرة هذا، وهكذا في رواية **الكولونياليون**، يتحدث روبرت راندو على لسان بطله، كسارد المحافظ الإداري : " في تقاريري للحاكم كنت أقف دائما ضد نزع أراضي الأهالي، إن نزع اليد هذا، إنه مبرهن عليه ، يخرب ويقوض الفلاح ويخلق، بروليتاريا (طبقة شغيلة) عربية "⁽⁴⁾ .

¹ . abdallah Laroui : L'histoire du Maghreb, tome II, Paris, Maspero, 1976, p. 124.

² . A. Nouschi : Op. cit., p. 41.

³ . M. Violette : « L'Algerie vivra t-elle ? », Op. cit., p. 130.

⁴ . Robert Randau : Les Colons, édition Paris, Sansot, 1907, p.178.

ويستعيد شارل كورتان، فيما بعد، في سنة 1930، نفس الأفكار والملاحظات في *الغابة التي أكلت الرجل*⁽¹⁾، وكذلك لويس ماسينيون في *الكلمة الممنوحة (العهد)*، في 1960⁽²⁾.

كان لأزمة الفلاحين، زمن الذكرى المئوية، بعدان، الأول جهوي إقليمي : إنها أزمة أمراض مستوطنة أثقلت الجزائر منذ نهاية الحرب (خاصة السهول العليا والنواحي السبتية)، والأخرى على المستوى العالمي : فالسوق العالمية للحبوب هي، فعلا، كانت متأثرة من (1930 — 1935) بانخفاض معتبر لأسعار الحبوب .

ومن ثم فإن الرخاء والازدهار الظاهر لجزائر الذكرى المئوية كان هشاً وواهياً، ويستخلص لوكوك في *المجلة الإفريقية* " إنه من الوهم الاعتقاد أنه يمكن إدامة وتأييد الفراغ"⁽³⁾.

فكل تقارير الأميار، والمحافظين الإداريين، ورؤساء الدوائر تترجم الكرب الذي يعاني منه الفلاحون، تحتج ماكسيميليان هيلر في 1923، في *البحر الأحمر* : نظامنا الفلاحي والزراعي يجوعهم "⁽⁴⁾.

يجب الانتظار حتى نوفمبر 1932، لاكتشاف قلق، بين أعضاء المجلس العام للجزائر بشأن الأهالي . لكن هذا الانشغال لا يتجاوز التمني في الاهتمام " بالوضعية العابرة لأهالي جنوب الجزائر العاصمة"⁽⁵⁾. أما

¹ . Charles Coutin : La brousse qui mangea l'homme, Paris, éditions de France , 1930, p. 20.

² . Louis Massigon : Parole donnée, Paris, Dossiers des lettres nouvelles, Juillard, 1962.

³ . . L. Lecoq : article cité, Afrique, juin 1927

⁴ . Maximilienne Heller : La Mer rouge, Paris, Grasset, 1923, p. 272.

⁵ . A. Nouschi , Op. cit., p. 46.

الإدارة، فهي لم تغير الموقف : فهي تؤكد ضمناً في ماي 1933، إرادة الكولونيين في التمسك بالأجر الزهيد للأهالي، لا تعطي أية امتيازات لهؤلاء الآخرين حتى لا تتغير ظروفهم . ويبيدي روبرت راندو، حتى لا نذكر إلا هذا الكاتب، اختلافه : " في رأي، يقول، في كسارد البربري (1) أن الجزائر سوف لن تنعم بالرفاهية أبداً إن لم يكن الأهلي معنا، إن لم يصبح كائنا مفكراً، عاملاً، واعياً وشاعراً بنفسه كما نشعر نحن، كل سياسة للحرية فهي أفضل السياسات ". إذ أن الكولونيين لا يفهمون إزاء ثلاثة ملايين رجل سياسة أخرى غير سياسة الضغط و الزجر (2) .

كانت أجرة العمال الزراعيين الأهالي 8 فرنكات في 1925، في نواحي الجزائر . وكانت في أماكن أخرى، حيث يكثر العمال تنخفض إلى 7 فرنكات . وكان سعر الخبز في 1925، (1،75) فرنكا، والزيت (8،30 فرنكات) . ويقفز سعر الخبز في 1930، إلى (2،35) فرنك، والزيت إلى (9،50 فرنكات) (3) ، نفهم إذن فقر العالم الزراعي الأهلي أفضل .

وحينئذ يفرالعمال الزراعيون، اليد العاملة غير المتخصصة، المطاردة من قبل المكننة إلى المدينة، للتكدس في القطاع الثالث (التجارة، الخدمات)، من غير أن تكون البنية الاقتصادية، حقاً معدلة، أو يحاولون البحث عن الهجرة إلى فرنسا . إنها، حسب رأي الروائية الفرنسية لوسيان فافر " هجرة وحشية"، تحاول أن تتوسع و تتنامى نحو الشواطئ الفرنسية (4) .

1 .R . Randau, Cassard le Berbère Paris, les Belles Lettres, 1921, p. 91.

2 . C Jullein : Op. cit., p. 30 et Ch. R . Ageron , Op. cit., p.1. 232.

3 . M. Violette : Op. cit., p. 130.

4 . Lucienne Favre : Dans la Casbah, Paris, édition Bernard Grassert, 1937, pp.88 et 89.

2 / التكس والازدحام في المدن . عدد الوفيات قوي ومشكلتة "ياولد"

في الجزائر العاصمة، إنها القصة هي التي تستقبل النصيب الأكبر من السوق من البلاد (الريف) . كانت القصة في سنة 1921، قد سبق أن عرفت الاكتظاظ في السكان، كانت الكثافة السكانية تقدر ب2028 ساكنا في الهكتار، وتمر في سنة 1926 إلى 2255 ساكنا في الهكتار، و تصل في سنة 1931، إلى 2819 ساكنا في الهكتار⁽¹⁾ . "إن هناك عددا كبيرا من الوفيات يعزى إلى الشروط السيئة للحياة"⁽²⁾، تصرح لوسيان فافر، في *المشرق* في 1930، بالتالي، خلال العيد الشهير للمئوية . لا أحد يعير الانتباه إلى هذا الصوت النشاز في الوسط الأوروبي . مع أن معاينة لوسيان فافر قد تأكدت من قبل أطباء . "إن التكس والتراكم لا يمكن أن يحدث إلا من النفقات على رغد العيش والرفاهية وعلى نظافة المدينة" يصرح الدكتور لو مير⁽³⁾ . لقد كانت الشوارع قد احتلت واكتسحت من قبل المتسولين، ومن قبل الـ "ياولد": هؤلاء الأخيرون، هم واقعيًا، شبان صغار مهملون والذين يصبحون أكثر فأكثر عددا . تكون هذه الطفولة المشردة في المدن الموضوع الرئيسي لأحد كتب ألبيرت تريميفيس : *إنخوان الأسد الأسود*، الصادر في 1931⁽⁴⁾ (الأسد الأسود كان علامة علبة السراج)

ويشير المستشار البلدي دالوني، في 1932، إلى "أن المتسولين، والشيوخ، والعجزة المسنين و الأولاد من غير وسائل البقاء يكثرون

1 . M. Kaddache : Op. cit., p. 13.

2 . Lucienne Favre : Orientale 1930, Paris, éd., Grasset, 1930, p. 66

3 . M. Kaddache : Op. cit., p. 13.

4 . Albert Truphémus : Les Khouans du lion noir, Scènes de la vie de Biskra, Alger, Soubiron, 1931.

بوفرة⁽¹⁾ . وترجم روايات لو كوك جيدا "وضعية هذه الظروف"، وبخاصة أكثر، *خمسة في عينيك*⁽²⁾، المنشورة في 1925 .

وتبدو الوضعية، تقريبا غير متغيرة منذ 1850، كان بروسلاارد يقول في قسنطينة: "لا يمكن إنكار أن البؤس لا يكون إلا النتيجة الحتمية للدونية التي يكون الأهالي فيها أخلاقيا وماديا، محكوما عليهم من جراء التوجيه السيئ الممنوح لتربيتهم الابتدائية"⁽³⁾ . و"يتهم" شارل كورتان، في 1939، بواسطة فرنسي فرنسا فيلنباي، بطل *مقهى المور*، الكولونيين في كونهم أصل في هذه الوضعية⁽⁴⁾ .

وذلك يقودنا إلى التصدي إلى المشكل الذي وقع الجدل فيه كثيرا في هذه الفترة "للمدرسة بالنسبة للأهالي".

فلنتذكر، في انتظار، أن القوانين الاجتماعية الفرنسية مازالت لم تطبق في 1930 على الجزائريين المسلمين وأن مظاهر المدن قد تفاقمت كذلك من جراء الأزمة الاقتصادية العالمية (1929 - 1930) . بحيث أن عددا كبيرا من العمال المستخدمين في فرنسا يعودون منضمين إلى العاطلين الذين كانت المنشآت الصناعية الكولونالية قد صرفتهم عن العمل . وقد كان في (1928) : 25000 عامل في يعودون، وكانوا في 1930 : 43500، وقد كان التوازن في 1932، بين الذهب 15000، والإياب 14500، قد استتب وعاد إلى وضعه الحالي.

¹ . m. Kaddache : Op. cit., p. 277.

² . Louis lecoq : Cinq dans ton oeil, Paris,, Reider, 1925.

³ . Yvonne Turin : Affrontement culturels dans l'Algerie coloniale 1830_ 1880, Paris Maspero 1970, p. 106.

⁴ . C. courtin : Café maure, op. cit., p. 90.

3 / التعليم لدى المسلمين : المطالبة المستمرة الملحة بالتعليم الإلجباري العربي والفرنسي .

كان الكتاب الكولونياليون الواضحون (المنورون) و " الإنسانيون " الذين أثاروا مشكل التعليم للجماعة المسلمة قلة . كان روائيان من أصل فرنسي هما : ألبرت تريميفيس في إخوان الأسود 1931 ⁽¹⁾ ، ولوسيان فافر في القصة 1937 ، ⁽²⁾ والمشرقي في 1930 ، ⁽³⁾ ، وكذلك كاتبان ولدا بالجزائر، لويس لوكوك في عدد من رواياته : بروميتش والقبائلي (1921) ، خمسة في عينيك (1925) ⁽⁴⁾ ، وألبرت كاموس في الحالات (الراهنات ، III ، وقائع جزائرية (1939 - 1958) ، قد حللوا مختلف الردود المثارة في المستعمرة من جراء هذا المشكل التعليمي للأهالي .

ويبدو أن لويس لوكوك، يومئ إلى أن العلاقة بين الوضعية المادية العابرة للمسلمين، والمدرسة، كانت مكتشفة ومدركة من قبل هؤلاء المسلمين أنفسهم : " فالمزخرف المنمنم ، يلاحظ، أنه كان لا يمكنه أن يتمالك عن الغيرة و الحسد، و عن الاحترام للطاهر رمضان، الطالب الداخلي في الطب : آه، إن لم يكن هو، قد أجبر على الانقطاع عن دروسه، أبوه ميت، كان عليه أن يشتغل و يتوظف " ⁽⁵⁾ . وهكذا فإن المصاعب الاقتصادية تدفع بالجزائريين أن يعوا أكثر فأكثر بمزايا التعليم العصري . في كل مطالبهم، كان مطلب التعليم الإلجباري الفرنسي كالعربي يأخذ مكانة الأولوية والاختيار .

1 . Truphémus A : Les Khouans du lion noir, Op. cit., 1931.

2 . Lucienne Favre : Casbah, Paris , ed. Grasset, 1937.

3 . Lucienne Favre : Orientale 1930, Paris, ed. Grasset , 1930.

4 . Louis Lecoq : cinq dans ton œil , Paris, reider, 1925.

5 . L. Lecoq : Cinq dans ton œil, p. 131.

وتسجل لوسيان فافر في *المشرقي* 1930، أنه يراد الاستفادة من المدرسة الفرنسية للحصول "فيما بعد على منصب ووظيفة ذات أجرة عالية معتبرة" ⁽¹⁾. وفي نفس الوقت "فإنها حياة سهلة"، كان للأهالي ميل ورغبة إلى إدخال أكثر من الحضارة وروبية "في أسلوب حياتهم". فالنساء المسلمات يردن انعتاقا وتحررا من خلال المدرسة بالتأكيد، تقول، بنوع من الحزن فاطمة "عندنا، ليس هناك، تقريبا نساء يعرفن الكتابة والقراءة" ⁽²⁾، "قد كان لسعدية الحظ في تلقي التعليم الفرنسي" ⁽³⁾ تلاحظ امرأة مسلمة في *المشرقي* 1930. وتقول ذهبية معجبة ومزهوة في صوتها: "قد كنت في مدرسة الفرنسيين" ⁽⁴⁾، في رواية *بروميتش والقبائلي* للويس لوكوك.

ويوضح بدقة لويس لوكوك ولوسيان فافر أن ارتياد المدرسة يضمن نوعا من التفوق على البقية من الجماعة. وقد كتبت هذه في *المشرقي* 1930، بشأن طفل مسلم: "إنه متعلم كفرنسي، لا يمكن له التمتع باللعب مع هؤلاء أولاد الشارع" ⁽⁵⁾. لكن التعليم يسمح خاصة للجزائري في "الدفاع" أفضل عن نفسه في المستعمرة، كما يعرض ذلك إميل كومبيس في خطاب في مجلس الشيوخ في 7 أفريل 1895: "يقول بالتأكيد، فالتعليم سيجعل من أن الأهلي سيكون أقل سهولة في الاستغلال، وأنه سيعرف حقوقه أفضل وأنه سيكون أفضل تحصينا ضد التعسف والاستبداد" ⁽⁶⁾.

¹ . Lucienne Favre : L'Orientale 1930, p. 69.

² . Lucienne Favre : L'Orientale 1930, p. 217

³ .Lucienne Favre : l'orientale 1930,p. 69.

⁴ . L. Lecoq : Broumitche et le Kabyle, Paris, Fayard , 1921, p. 11.

⁵ . Lucienne Favre : L'Orientale 1930, p. 69

⁶ . Fanny colonna : cite ces propres dans l'instituteurs algériens, 1883_1939, Alger, O.P.U., 1975, p. 38.

وهكذا، فموقف المسلمين بشأن المدرسة يتطور في مجمله . فعلا، فهذه الأخيرة ليست دائما كانت تبتغى وتتمنى كذلك . كانت المدارس في نهاية القرن التاسع عشر لا تتراد كثيرا، بحيث أن السلطات الكولونيالية حاولت، بواسطة قانون ديسمبر 1897، إرغام الآباء المتحفظين على إرسال أبنائهم إلى المدرسة ⁽¹⁾ .

كبح في السياسة المدرسية الأهلية من قبل المنتخبين الأوروبيين .

غير أن المدرسة " الجزائرية الأهلية " تخمد ⁽²⁾ . يصف شارل عقون، في جويلية 1929، في المجلة الإفريقية، السياسة المدرسية " بالمهزلة "، فهو يتحدث عن " المدارس - القربي " للأكاديمي جونارت ⁽³⁾ . إنها، في نفس الوقت، الفترة، حيث كان اعتراض الكولونيين على كل سياسة مدرسية أهلية، يزداد و يشتد ، " لكن ليس من حقنا أن نرمي من النوافذ بالمدارس، وبالمال الذي لا يفيد في شيء " ⁽⁴⁾ يؤكد المندوبون الماليون . ويقف روبرت راندو، ولويس لوكوك، وألبيرت تريميفيس، وشارل كورتان، وآخرون من بينهم، ضد اتخاذ هذا الموقف من قبل الكولونيين . يكتب

¹ . Cf. ouvrage déjà cité d'Yvonne Turin : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale 1830_ 1880, Maspero, 1971, pp. 196 à 301.

² . Mostefa Lacheraf : à la fin , indique que « les cahiers du centenaire donnent pour l'année 1888 : 10.688 élèves musulmans inscrit sur 500.000 enfants d'age scolaire ».Il cite Maurice Wahl, historien, qui écrit dans L'Algérie « nous avons commencé par détruire presque entièrement les m'cids (écoles primaires), les Zaouias (écoles rurales), les Medersa (superieures) et d'autres écoles musulmanes qui existaient avant 1830 ; plus tard, on s'est livré à des essais confus..... qui n'ont donné que des resultats médiocre et quelquefois négatifs ».

³ . Charles Akoun : « Nécessité de méthodes algérienne », revue Afrique, juillet 1929.

⁴ . Ch. R. Ageron. : Op. cit., p.923 (ce qui dénote la volonté générale d'obscurantisme des détenteurs du pouvoir dans la colonie).

كورتان، في 1939، فيما يخص الأهالي، في مقهى المور : " أقنان هم الذين كانوا يحتفظ بهم بقصد في الجهل حتى تؤخر ساعة انعتاقهم التي تجفف يد عاملة مفيدة ورائجة ⁽¹⁾ .

كان تواتر عمران و بناء المدارس بطيئا وغير منتظم . مثلا : من (1903 — إلى 1908) كانت قد بنيت 41 مدرسة، ومن 1909 إلى 1914، على 54 مدرسة متوقعة، كانت قد شيدت 21 فقط . كان التمدد من قبل المدرسة الابتدائية التقليدية مقيدا مكبوحا، بدهاءة، من قبل البعثات المالية .

بين (1925 و 1927)، كان لابد من إنجاز 20000 قسم، يشير موريس فيوليت في 1927، إلى أنه لم ينجز منها إلا 15 قسم في العام فقط ⁽²⁾ مع أنه كان قد تم البحث عن تدارك هذه الظروف بقانون أول ماي 1915، كان بناء المدارس ابتداء من الآن فصاعدا على حساب ميزانية الجزائر . ولم يطبق القانون فعليا إلا في ديسمبر 1920 .

يتحدث ألبيرت تريميفيس، مفتش ابتدائي متقاعد، في سنة 1930، على لسان ماطي في روايته، *نزل السرسو*: " مدرس منذ 10 سنوات في البلديات المختلطة. لازلت لم أر مرة واحدة القوانين، والمراسيم، والمنشورات أو التنظيمات الضرورية مطبقة في فائدة المدرسة اللائكية، للسير الحسن للخدمة المدرسية " ⁽³⁾ .

كان عدد التمددين المسجلين بالنسبة للنمو الديمغرافي، بالتأكيد، زهيدا لكن في صعود ثابت . يصل العدد في سنة (1918) : 49071

¹ . Charles Courtin : Café maure cité, p. 90.

² . m. violette : Op. cit., p. 259.

³ . albert Truphémus : l'Hotel du Dersou, p. 170.

تلميذا، وينخفض العدد باعتبار الأزمة، في سنة 1920، إلى 40000 تلميذ، لكي يرتفع ابتداء من 1923. كان في المدرسة في 1926، 60000 طفلا على 900000 طفل من عمر الدراسة. وأخيرا، في سنة 1938، كان هناك 106000 ممتدرس أهليا على 1270000 قابل للتدريس. كان عدد الطلبة، في سنة 1920، 47 كونهم مسجلين في كلية الجزائر⁽¹⁾، وفي 1927 كان عددهم 77 منهم النصف في الأدب⁽²⁾.

كانت علامة و ميزة أخرى لتغير الذهنيات هي تطور المواظبة المدرسية. حقا، أن نسبة الغياب كانت أكثر ضعفا لدى الأطفال المسلمين من الأطفال الأوروبيين، تشير الإحصائيات الجامعية بالنسبة لسنة 1908، 8،8/ بالنسبة للمسلمين، 10،32 بالنسبة للأوروبيين⁽³⁾. وتعرف المواظبة انخفاضا يتضح في 1920، لتعود بشدة في (1923).

إذا كانت المساواة في الأجور بين معلم أهلي وفرنسي، أخيرا محددة بواسطة المرسوم 20 ديسمبر 1920، فإن ارتياد المدرسة، بالمقابل، ليس إجباريا بالنسبة للأطفال المسلمين. بحيث أن التأخر يتفاقم ويشهد في زيادة، الاختلال والتفاوت بين عدد الأطفال الذين يتلقون تعليما وبين العدد القابل للتلقي ينمو، كما قد سبق أن رأينا آنفا.

ولم تتبع قروض المدرسة الأهلية نفس التدرج مثل نفقات الميزانية المستقلة للجزائر. وهكذا فالتعليم الذي كان قد يساعد على حل مشكل العمل والتوظيف قد تطور قليلا في الجماعة الإسلامية. ولذلك، فإن الإشارات إلى التعليم التي نجدها لدى لويس لوكوك وتريميغيس كانت تقريبا

¹ . ch. R. Ageron : Op. cit., p. 941.

² . m. Violette : Op. cit., p. 263.

³ . Ch. R. ageron : Op. cit., p. 949.

دائما متقنة الصنع، متجهة نحو الأمل، بالأحرى، من الاتجاه نحو حقيقة حاضرة ماثلة .

إن التأثير المعنوي العقلي للمدرسة الفرنسية ليس له علاقة بضعف معدل التمدرس . قد تكونت قبل 1919 بكثير، بوجوازية جديدة، مثقفة، في المدن الأوروبية، تجادل و تناقش شيئا، فشيئا مع التقليديين، إدارة الشعب الجزائري . " كان السكان الأهالي مزدوجي اللغة أكثر فأكثر، يؤكد روبرت راندو . ويبين عبد القادر حاج هو، مؤلف رواية " الزهرة"، وفرحات عباس مؤلف *الشباب الجزائري*، وجميلة ديش ... أن " هناك نوعا من الإسهام للأهالي في آداب اللغة الفرنسية ⁽¹⁾ . ويكتب روبرت راندو وعبد القادر حاج هو، كلاهما يتعاونان في 1933، في *رفقاء الحديقة* . وفي " *مقالة* عن الاتصالات الفرنسية/ الإسلامية والكتاب النموذج للأخوة الجزائرية" يعتقد جبريال أوديزيو⁽²⁾ .

الاشتباه وعدم الثقة " بالشباب المثقف " من قبل الحكومت الكولونياتية .

إذن فالبورجوازية الإسلامية تناضل من أجل تنمية ونشر التعليم للجزائريين، وتطالب بالمدارس حتى للبنات .

وتشارك هيئة من المعلمين الأهليين، بمساعدة من قبل بعض الزملاء الأوروبيين، مثل تريميفيس ألبيرت، بحوية وبفعالية في هذه الحملة . وتناقش صحيفة جمعيتهم " صوت الضعفاء"، المؤسسة في 1922، المسحوبة بـ 3000 نسخة، بجرأة كل المشاكل التي تطرح عليهم . ويساهم هؤلاء

¹ . R ; Randau : « la vie intellectuelle dans le Nord de l'Afrique », Afrique, septembre 194.

² Gabriel Audisio : « Les Ecrivains algériens », Documents algériens série culturelle, n°67, 10 décembre 1952.

المدرسون في بعض الأحيان في *نشاطات رابطة حقوق الإنسان* . و يتصدى الوشاني بن حاج، و سلال، و حاج هو، و عمارة، و من بينهم آخرون ، في مؤتمر 25 و 26 أفريل 1930، إلى قضية التعليم المدرسي والمهني، و قضية تعليم المرأة الأهلية والتمثيل البرلماني ⁽¹⁾ .

على العموم ، كان الشباب المثقف " مشتبه فيه " بالوطنية، يكتب أوكتاف ديبون في 1928 : " لقد جاءت ساعة كشف القناع عن هذا الحزب " للشبان الجزائريين " الذي تبدو حاله غامضة و مبهمة ، إعلان الحب من أجل فرنسا، في باريس، و نضال خادع و غادر ضد التأثير الفرنسي من الجهة الأخرى من المتوسط " ⁽²⁾ . يتقاسم لويس بيرتراند نفس الاشتباه في *أفريكا*، في 1933 . " كثيرا ما أتذكر إبداء اعتراضات أمامي من قبل موظفين جزائريين ضد هذا الإنتاج للمدارس الأهلية التي لا تعرف، يقولون، إلا تحريض مواطنيهم ضدنا، إثارة و تسعير عقل للثورة، و خلق مصاعب دائمة " ⁽³⁾ . مع " أن الشباب الجزائريين " يدافعون عنها : " كيف نحن فرنسيون تقريبا، لقد مزجنا دمنا الخاص في المعارك، بدم الفرنسيين، عمالنا في فرنسا، يقبضون أجرا مهما ، و نحن نعص و نقرض أمننا من القدم " ⁽⁴⁾ .

¹ . M Kaddache :Op. cit., p. 154.

² . Octave Depont : L'Algerie du centenaire, 1928, Paris , librairie du recueil , Sirey .

³ . louis Bertrand :Africa, p. 79., Ed. A. Michel , Paris 1933.

⁴ . R. Randau : Cassard le berbère roman cité, p. 71. abdallah Laroui , apporte quelques précisions et il écrit : « Le Maghreb participa à la guerre au coté de la France. L'Algérie envoya non seulement 173.000 combattants dont le courage fit merveille en août 1914, et dont 25.000 ne reviennent jamais mais vit s'expatrier 119.000 hommes pour remplacer dans les usines françaises, les ouvriers appelés au front », Op. cit, p.123 .

ومن جهة أخرى، فهم يصرحون، في 1930، معلنين كذلك الارتباط العميق بشخصيتهم الإسلامية : " جيلنا هو فرنسي ثقافيا، بيد أنه يحافظ على دينه، ولغته، وأخلاقه ... " (1) . معلنين هكذا الارتباط العميق بعقيدتهم الإسلامية (2)

تسمح لنا هذه الملاحظة الأخيرة بالتصدي لقضية الإسلام في الجزائر سنة 1920 .

د / إحياء، (بعث) الإسلام في تنمية الروح الوطنية

نحن نبتين في أعمال الكتاب الجزائريين مراجع وإحالات متواترة في الاعتقادات، وفي الأديان، وحتى في الخرافات . ويسترسل لويس لوكوك، بشأن ذلك، في خمسة في عينيك .

أين كان الإسلام من ذلك في سنة 1920، في الجزائر؟ إنه من المؤكد أن المرابطة، ومن خلال ذلك، الخرافة قد ازهرت بعد تواري أو انحطاط الزوايا، ومصادرة أملاك الحبوس من قبل الحكومة الكولونيالية، ورحيل ما يسميه المسلمون " المشايخ " (الروحيون) نحو الدول العربية . كانت نوعية الإسلام الخاص للقيادة الإرشاد، قد تضاءلت، بلا شك، في المستعمرة، من حيث رد التوفيق المدني، في 1931، " فليحذر المسلمون من ذلك قبل أن يكون قد فات الأوان " (3) .

1 . A. Nouschi : Op. cit., p. 69.

2 . . « Les jeunes algériens » s'organisent en 1907_1908, en fondant à Constantine par exemple, le cercle salah bey , « d'études littéraire, scientifiques, économiques, et sociales », en créant leur journaux le Rachidi, L'étendard algérien. Ch. R. Ageron relate alors : les journalistes coloniaux criaient casse_cou devant « ce réveil de la jeunesse musulmane ». d'aucuns disaient « le réveil du sentiment national indigène », op. cit., p. 1.033.

3 . ch. R. Ageron : Op. cit., p.1. 027

كان المرابطون، إذن، حلفاء، بوجه آخر في المستعمرة، على أية حال مع قاداتهم، و مرشديهم ⁽¹⁾ . إذ أن المرابطية تقدم من الإسلام النظرة الأكثر انحرافا، والأكثر فظاظة ووحشية. يندد الأئمة بالمرابطين كأسوأ أعداء للإسلام . كان الدين الإسلامي معتبرا من قبل المستعمرة "كميدان إضافي، حيث تتراكم التأخرات والتخلفات". فالاحترام للأشخاص، وللآراء، وللديانات قلما يحرك ويشجع الأوروبيين في الجزائر ⁽²⁾ . وكان لويس لوكوك، وروويرت راندو، وشارل كورتان، من جانبهم، بداخلهم أيضا إحساس ووعي ب "حائل وعائق ديني". ويعبر عن ذلك لوكوك هكذا في 1921. "بدلا من الاجتهاد في إلغاء وإزالة العوائق و الحواجز، هذا الجدار الكبير من الدين، من الجهل، ومن التعصب، كان الكولونياليون موجّهين بشهوتهم و نزوعهم الشخصي" ⁽³⁾ .

1 / الحياة الثقافية والتجديد الديني (الإصلاح) : النهضة ⁽⁴⁾

كان نشاط المرابطية المنعش منذ 1830، من قبل الحكومة الكولونيالية، حسب رأي الكاتب، شارل عقون ⁽⁵⁾ شؤما على الحياة الروحية للأهالي . إلا أن الإسلام ينهض من كبوته وعثرته . فقد كان هناك، غداة الحرب العالمية الأولى، شعور جلي بالوعي . فالخدمة العسكرية، والإقامة في المدن، عملت على فقدان المرابطية "لجزء معتبر من زبائنها" .

¹ . Charles Akoun : « Necessité des methodes algeranistes », Afrique, juillet 1929.

² . Ch. R. Ageron :Op. cit., écrit « Les Libéraux français au contraire, qui plaiderent les droits des musulmans à garder leur foi, leur écoles et leurs juges et le droit d'évoluer selon leur voie propre, ceux- la ne furent jamais enentendus en France que d'une minorité », p.1.238.

³ . L. lecoq : L'incendie , p. 102.

⁴ . Nahda : renaissance.

⁵ . Charles Akoun : Article cité, Afrique, juillet 1929.

لقد راح فعل ونشاط المثقفين المسلمين، خاصة، يسمح بتجديد وإصلاح الإسلام . يضاف إلى هذا، استيقاظ التعليم الديني راح يمشي شفيحا لحماسة التاريخ والشعر . فالشعراء يتحدثون عن الوضعية "المتردة المتدهورة" للشعب الجزائري، ويتحدثون عن الأمة الجزائرية (المستحضرة سابقا، من قبل الأمير عبد القادر)، عن ضرورة النهضة، عن الماضي المجيد للعرب . فمثلا يكتب مبارك الملي في 1928/، الجزء الأول من كتابه *تاريخ الجزائر في القديم والحديث*، ويتم الجزء الثاني في 1932 . وفي 1931، يصدر التوفيق المدني كتاب *(El gsair)* المنشور على نفقة الأمة الجزائرية . كتب التوفيق المدني في كتابه، "أولئك الذين بقصر النظر، وانعدام الدراسة والإمام والاطلاع على الوسط الجزائري، يعتقدون أنه من الممكن، مع الزمن، أن يجعلوا من هذا الشعب المسلم، الوطني للغاية، شعبا فرنسيا في عاداته، وفي أخلاقه، وفي نظامه، وفي لغته، وفي تقاليده، أولئك هم أناس يتهددون (يتأرجحون) من الوهم في رؤية الظهيرة في الساعة الرابعة عشرة" . إنها فترة الذكرى المئوية كان *نادي الترمي* قد أسس، النادي الذي يرتاده و يؤمه كل من يهتمون بالمسائل و القضايا الثقافية والدينية والسياسية . نادي تقدم فيه محاضرات تربوية و تعليمية عن أغراض و مواضيع متنوعة جدا، يساعد على سير و عمل المدارس الحرة، حيث يقترح تعليم اللغة العربية تبعا لطرق عصرية حديثة ببرنامج حيث سيكون للعلوم مكانة هامة ومعتبرة، إلى جانب التعليم الديني والأدبي⁽¹⁾ . ويصبح الشيخ بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، ومفدي زكريا، وغيرهم كثير، زعماء لحركة النهضة، الحركة التي تتوسع و تنتشر آنذاك في الجزائر . ويلاحظ أنه كل ما يمكن أن يصل ويربط المسلم بماضيه، وبقدر ما تكون " مفارقتة وخالفتة " بارزة بقدر ما يؤدي ذلك إلى الإسهام في نهضة الشعب الجزائري.

¹ . M. Kaddache : Op. cit., p. 153.

ويقدم الشيخ الإبراهيمي معنى " هذه المحافظة " بالأحرى " الوقاية والحماية، كان يقول، للوطنية ضد الاندماج والانصهار، إنها قاعدة تمنع من الذوبان ومن الانهيار والسقوط (1) .

يصبح الشيخ بن باديس رئيسا لجمعية العلماء المؤسسة بالجزائر في 1931 . في 5 ماي 1931، يعقد العلماء أول مؤتمر في *نادي الترقى* . ويحددون آنذاك الأهداف التالية : تطهير ما هو فاسد و طالح ، إصلاح و تصويب ما هو معوج، إعادة الضال إلى الطريق المستقيم (2) . يوسعون، ويمددون في 1932، بإنشاء الفروع، سلطتهم الروحية على ربوع الوطن مما لا يعدم السلطة الكولونيالية من القلق والإزعاج . و تؤدي هذه الانزعاجات إلى ميلاد منشور ميشال 16 فيفري 1933 الذي يطلب، بوجه آخر الضغط، على العلماء، على أي حال " مراقبتهم الشديدة .

أيها المؤمنون . إنكم لا تعيشون تماما في أرض الإسلام، مادام بعض الفرنسيين بالأرض هنا وهناك كالحصيات في الحذاء " كان الخونني ينصح و يعظ في حكاية لويس لوكوك، *كل سائل يتبع الانحدار*، المنشورة في جوان 1925. يبدو أن الإسلام والوطنية، فعلا، مترادفان . إن منشور ميشال لم يخطئ عندما يصرح : " إن هذه الدعاية يمكن جدا، في الواقع، أن تتبع هدفا سياسيا . وتبحث كثيرا عن مهاجمة وإصابة القضية الفرنسية " . فعلا، كان الاختيار الذي قام به العلماء في 1931، اختيار التجديد، والإصلاح والنهضة ينزع إلى تقوية و تدعيم المقاومة . وفي نفس السنة في أبريل 1931، كان جان بومي مدير *المجلة الإفريقية* يعبر عن فكرته هكذا، " لا يتعلق الأمر بإرادة تجاهل الإسلام، فالإسلام كان هنا، فعلا تاريخيا،

1 . Ibid., p. 153, Kaddache (M) cite Heneri pérès.

2 . A. Nouschi : Op. cit , p. 64.

اجتماعيا، أخلاقيا ودينيا، تماما بقيمته . فالإسلام كان معطى مهما لمشكلتنا" (1) .

وتشير محاضرات *نادي الترقى* وجرائد اللغة العربية صراحة، إلى أهداف العلماء . وتبين القضايا المسجلة أثناء المؤتمر الثاني للطلبة الذي وقع في الجزائر في 25 إلى 28 أوت 1932، انخرطهم في النهضة، فالاتصال والانضمام قد وقع . تبقى كتلة الجمهور، " كان بداية الإحساس بأنها ستلبي نداءهم" (2) .

فعامل الوحدة والاتحاد كما تلح وتشدد المستعمرة هو إذن، بالطبع، أساسيا وجوهريا الإسلام . كل القوى الاجتماعية والسياسية تروح تذهب لتتجمع حوله . " إن الإسلام ، يرى لويس لوكوك في جوان 1930، يمنح وطنية من قوة كامنة مساوية للتي لم تكن فيها" (3) .

¹ . Jean Pomier : « Prélude à l'exposition coloniale de Paris », Afrique, avril 1931.

² . M. Kaddache : Op. cit., p. 239.

³ . L. Lecoq : « commentaire de l'Algerie française de Piquet Victor », Afrique, juin 1930 Il rejoint L'echo du soir, de Constantine (2 mars 1907) qui écrit « Les ecucateurs du peuple arabe prêcheront la révolte au nom de l'idée et du droit qui triomphe de la force brutale.....Au saint nom d'Allah, on substituera le nom magique de liberté et cela fera notre perte » cité par Ch. R Ageron, Op . cit., p.1. 033 .

2 / الإسلام : عامل تحقيق الذاتية (الهوية) الوطنية

ومن ثم، يصبح، الدين الإسلامي، شيئاً، فشيئاً، عاملاً للهوية وللشخصية الوطنية .

يمكن أن يقال في، هذا الصدد إن المثوية تسجل حقا منعطفاً : " يتحدث فيها حتى على أجيال المثوية"، يستخلص جاك بيرك ⁽¹⁾ .

مع أن الوطنية تولد و تبعث، مع الأمير خالد في الجزائر، وبالأحرى، في (1919 — 1920) . بالنسبة للإدارة، فذلك لا يشك فيه . لأن في *جزائر الذكرى المثوية*، يسجل أوكتاف ديون أنه " عند الانتخابات البلدية لسنة 1920، تحت صيغ مغلفة بمهارة و براعة جماعة من الشبان الجزائريين " متحمسة، تتابع وتقتفي، بقيادة حفيد الأمير عبد القادر، نحن لا نعرف أي حلم للاستقلال " ⁽²⁾ . من جهة أخرى، يلاحظ أنه جعل الأهالي المتجنسين " يمرون بما يكفي من الربع ساعة السيئ الأخير، فهم يوصفون بالكفرة، وبالطورنيين (المرتدين) ومجاملتي القبعات " ⁽³⁾ .

ينقل جان بومي في دقة عنوان في 1931، " الأجناس والأعراق جنبا إلى جنب، تقاليد الأهالي ليست تقاليدنا، وتقاليدنا ليست تقاليدهم " ⁽⁴⁾ . وستكون لنا الفرصة لنرى لويس لوكوك يترجم و يؤول هذا الموقف الذي قد فهمه تماما . إلا أن هذه الوطنية في 1920، لم تجد بعد قاعدة متينة صلبة.

¹ . Jacques Berque : Cité par M Kaddache, Op. cit., p. 197.

² . Octave Depont : Op. cit., p. 87 Octave Depont : Membre de l'administration coloniale, inspecteur général des communes mixtes, 1916_1930..

³ . Octave Depont : Op. cit., p. 87.

⁴ . J. Pomier : Article cité, Afrique, avril 1931.

وقد كان "المنتخبون المسلمون" في الجزائر، قد أرادوا أن يكونوا أكثر اعتدالا وذلك حتى سنة 1930، التاريخ الذي يصطدمون فيه بالرفض والذي يحدد لهم البحث عن سبيل آخر.

يصرح الشيخ بن باديس في 1936، "أن السكان المسلمين ليس هم فرنسا، ولا يمكنهم أن يكونوا فرنسا، ولا يريدون أن يكونوا فرنسا، فهم يملكون وطنهم الذي حدوده معينة. إنه الوطن الجزائري"⁽¹⁾.

إلا أنه في جوان 1936، تقريبا، كان مختلف ممثلي المسلمين يأملون و يرجون أن يروا الوصول إلى النجاح في مطالبهم، وكانت الجبهة الشعبية والمؤتمر الإسلامي يهيمنان، في هذا الوقت، على المشهد السياسي الجزائري. في حين كان الإجماع في 1938، لمختلف الاتجاهات الإسلامية يتحقق حول "مشروع فيوليت"، كان الوسط الأوروبي يشجب ويدين هذا المشروع (سيكون مشروع فيوليت مرفوضا نهائيا في 1939). راح الوطنيون يتسلمون المناوبة نهائيا، من المؤتمر. وقد كان فيوليت نفسه، قد أحس بذلك جيدا: "إن الحل يكون ابتداء من الآن عند الأهالي"، إنه متين قوي و موضح، و محدد جيدا، مرابطهم، إن لم يكن، فسيكون"⁽²⁾.

يبقى لنا الآن أن نتناول قليلا تاريخ الوطنية الجزائرية. هذه الوطنية تتطور و تتوسع و تنمو في مكان آخر كما في الجزائر، على الإقليم الفرنسي، في باريس، تحت نشاط **نجم الشمال الإفريقي** الذي أصبح فيه الأمير خالد رئيسا شرفيا، لوقت (ابتداء من 1924).

¹ . A. nouschi : Op. cit., p. 89.

² . M. Kaddache : Op. cit., p. 364.

كانت هذه الحركة ذات الأصل البروليتاري، على أهبة المعركة بالقوة، ضد الاستعمار. وتؤكد من (1925 _ 1933)، التاريخ الذي ينعقد فيه مجلسها العام . المحلة في 1929، من قبل الحكومة الفرنسية، تعيد التشكيل من جديد في خلايا في أوساط الطلبة والتجار المغاربة . وتتخذ هذه الحركة اتساعا كبيرا . وتبلغ صحيفتها **الأمة** التي تسحب 12000 نسخة في 1932، في 1934، 44000 نسخة⁽¹⁾ . وتمدد فروعها إلى الجزائر بأسرها. ومن الآن فصاعدا، يبدأ نوع من السيورة تسري في المجتمع الإسلامي . وقد أصبح هذا الحزب في سنة 1939، (ح . ش . ج) أو حزب الشعب الجزائري، يحجب و يخفي "الاتجاهات السياسية الأهلية" . كان يطالب بالاستقلال التام للجزائر.

وهكذا، فالمعرفة التاريخية سمحت وتسمح لنا بتقدير، و بإصدار الأحكام على نوعية تفسيرات وتأويلات الكتاب الكولونيين . فهذه المعرفة كانت ضرورية في النقد الأدبي لأعمالهم . فهي تفيد كمرجع وكذلك نستطيع تكوين رأي عن الرجال الذين يمسون بالريشة و يكتبون و"النظر" أيضا في أي الإجراءات و الظروف، ترسم حقيقة الجزائر عبر هذه الأعمال الكولونالية .

يبقى الآن القيام بعمل، إذا صح القول ، الاستعمال المقلوب و باكتشاف ما تسهم به الأعمال الأدبية، عموما، في معرفة المجتمع الكولونيالي، وكيف توضح بدورها، تأويلا و تفسيرا للوقائع، مساعدة في ذلك الباحث نفسه .

¹ . A.Nouschi : Op. cit., p.62.

الفصل الثالث: الجزائرية

لقد كان الكتاب الأوروبيون للجزائر قد اختاروا مصطلح "الجزائرية" ابتداء من 1920، لكي يتميزوا عن كتاب الشمال الإفريقي⁽¹⁾ في جملتهم، وبالأحرى، فهم يقولون، إن موضوعهم في التفكير والتأمل سيكون موضوع الجزائر بمعنى الكلمة. "وليس للمؤلفين الجزائريين إلا العكوف والانكباب على جمهورنا من أجل أن يكتشفوا مناطق وأراضي من الأرواح والنفوس مجهولة غير مكتشفة، يحدد روبرت راندو بدقة، "إنه هناك يختلط ويمتزج مستقبلنا"⁽²⁾. إذن فكل الكتاب الكولونيين يطرحون ويقصدون "دراسة ووصف" العلاقات لمختلف القوى الأدبية والفكرية للجزائر. فهم يريدون الولوج إلى "معرفة صحيحة ودقيقة لمختلف الأوساط الجزائرية". وبالتالي فهم يعتزمون و ينوون أن يقدموا لنا "الجزائر الحقيقية" حسب رأيهم. إنه في عملية "التقصي" هذه، وهذا الاكتشاف "إذا صح القول، للمجتمع الكولونيالي، تكمن فائدتنا واهتمامنا. في هذا الاتجاه قد يمكنهم مساعدتنا في الاطلاع على هذا المجتمع، أو على الأقل، على البعض من مظاهره. وستسمح لنا دراسة الجزائرية أن نرى في أي معيار وإجراء، قد أقام الكتاب أنفسهم وزنا لوجود شعب جزائري مسلم، وما هي "مشاريعهم" المتعلقة بتطور العلاقات بين مختلف الطوائف والجماعات.

¹ . Jean Pomier : « Caïn, roman de Louis Lecoq », Afrique, janvier 1931.

² . Robert Randau : « Le roman picaresque en A.F.N. », Afrique, janvier 1933.

أ/ تقديم "تيار الجزائرية" في مجمله: " فكرة ما عن الجزائر".

لقد تعددت وكثرت، في السنوات 1900، التصريحات والمناقشات والمجادلات، حول وجود آداب كولونيلية، بحيث أن "مدرسة أدبية" تشكلت حول هذا "الإشكال". وقد كان من بين المنظرين الأكثر نشاطا الإخوة لوبلاندي. لقد أسسوا في 1900، مجلة فرنسا الكبرى⁽¹⁾. وقد صمدت هذه المجلة حتى عام 1904، اتبعت في 1911 بمجلة الحياة.

غير أن منشورات و مطبوعات أخرى، نشرت أسس و مبادئ "الرواية الكولونيلية"، وبالأخص، *زميتي فرنسا، ومجلة العالمين، وحتى الوقت بالمناسبة*⁽²⁾. وهكذا، قد تشكل تيار جديد دعي فيما بعد "بالتيار الجزائرياني"⁽³⁾. كان هذا لا بد من أفول نجمه حوالي سنوات 1935. وفعلا، فإن إيدموند برويا، هو أيضا، كاتب كولونيالي، مؤلف *خرافات بوننة*، كان يرفض في سنة 1939 تسمية "الجزائرياني" التي أطلقها عليه بومي⁽⁴⁾.

1/ **التحديد و التموقع بالنسبة " للأدب الدخيل الغريب"**
أحكام مختلفة عن عمل إيزابيل إيبهاردت.

قبل التصدي لدراسة هذا التيار الجزائرياني نفسه، سؤال يطرح نفسه :
 كيف يتحدد بالنسبة للتيار الأدبي السابق ؟

¹ . Les frères Leblond : il s'agit en fait de deux amis originaires de la réunion, Georges Athènes (1877_1953) et Aimé Merlo (1880_1958).

² . Aster Loufti (Marine) : Littérature et colonialisme (1871_1914), Paris Mouton, 1971, p.71.

³ . L' appellation « Algérien » est usurpée par l'Européen vivant en Algérie, comme nous l'avons déjà vu.

⁴ . Jean Pomier : article sur E. Brua, « les fables bônoises », Afrique janvier 1939.

" كان التيار الجزائري، كتب جان بومي، الأول في الظهور من جيل فرنسي الجزائر، على وجه ساحة الحياة الأدبية للبلد، مع ميسات، كبيرهم، وروبيرت راندو، وشارل هاجل ولويس لكوك، وألبيرت تيس، وآخرين أيضا " كان بومي يواصل " كان هذا عملا أساسيا يضع معالم، في نفس الوقت لنهاية فترة من الآداب التي أسميها سياحية، ومجىء آداب السكان الأصليين " (1). كان هذا يكشف ويبين، بما فيه الكفاية بحيث أن الجزائريين كانوا، بالتالي، يعترفون، في معظمهم، بلويس بيرتراند كاتب من بداية القرن ال 20، " إنه معلمهم " (2). فقد كانوا ينددون معه بالآداب الدخيل [الغريب]. " إن المعنيين بالآداب، الذين تناولوا الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي كانوا قد كرسوا أنفسهم لآلهة الكرنفال "، كان يرى روبرت راندو في 1940، في مقالته " الحياة الثقافية الفكرية، في شمال إفريقيا " (3). وهكذا حسب رأي هذا الأخير، كان الجمهور الفرنسي لزمّن طويل محكوما عليه " بآداب كولونيالية من التوهم والخذاع " (4). فالقراء المتروبوليتانيون [للوطن الأم] كانوا لا يعرفون من الجزائر إلا الجانب الجذاب، إذن الظاهري السطحي، عندما لا يكون مضللا ومزيفا من جراء التحيز والأحكام المسبقة. إنه من جراء، رد الفعل ضد شذوذ و ضلال هؤلاء الأدباء تكونت جماعة " الآداب الكولونيالية "، كان يشرح كذلك روبرت راندو (5) في هذا التوضيح في 1940.

1 . jean pomier : article « louis Bertrand à Alger », Afrique juin 1939.

2 . jean pomier : « louis Bertrand à Alger », Afrique, juin 1939.

3 . R. Randau : « l'avie intellectuelle dans le nord de l'Afrique », Afrique septembre 1940.

4 . I. groissard : « littérature nord africaine », Afrique, juin 1934.

5 . R. randau : article cité, Afrique , septembre 1940.

لقد راح أغلب الكتاب الجزائريين إذن ينكرون و ينفون الكتابات السابقة عن 1900، بصفتها "إرثا" ثقافيا : "لقد قدم لنا بيرتراند، خدمة لتخليص الرواية من إعاقاة الضلال، والأباطيل المشرقية، ومن الأدب السهل الإغرابي الدخيل، ومن المصطنع، ومن المفتعل المتكلف" (1).

غير أنه، يلاحظ، أن الأحكام الصادرة عن عمل إيزابيل إيبيرهاردت، المنجزة في بداية القرن الالعشرين، ستكون متناقضة . كان جان بومي، مثلا، يرى في إيبيرهاردت "المنهزمة الفارة من الغرب" (2) . كان يحدد فكرته بدقة، هكذا : "سوف لا يمكن أن يكون فرنسيو الجزائر كورثة تبع للصوفيين الزهاد، أمثال الأب فوكولد، ومثل دينيت، لكن على العكس رجال يصنعون الحياة، عوضا عن أن يذهبوا ليتهاوا في الوحدة و العزلة اللا إنسانية في الرمال" (3) .

بالمقابل، كان راوول سطيفان، هو أيضا، كاتب من التيار الجزائرياني، يصرح أثناء محاضرتة في 6 أفريل 1935 في باريس، "أن إيزابيل إيبيرهاردت تعد من بين المؤلفين أمثال لويس لكوك، وروبيرت راندو والذين تزيد

¹ . R. Randau : article « le roman picaresque en A.F.N. », Afrique, janvier 1933.

² . j. pomier : « isabelle Eberhardt, la fuyarde de l'occident », Afrique, janvier 1935. Commentaire du livre l'amazone des sables écrit par Claude Maurice robert, grand prix littéraire de 1934.

Louis Bertrand dans la préface à l'anthologie de treize conteurs algériens (1925) écrivant à propos de la littérature exotique : « on se refusait à voir les tares, les vices irrémédiables du vaincu, tout ce qui dans l'état actuel de la civilisation le voue à une infériorité méritée et sans espoir .A ce contraire, on s'acharnait à signaler triomphalement nos tares d'Européens et de civilisés, c'est proprement odieux ! ».

³ . J.Pomier : « La fuyarde de l'occident », Afrique, janvier 1935.

معاشرتهم في تنمية رأسمالنا الفكري الثقافي" (1). كان يتوجه إلى كتاب المستعمرة الذين كان يوجد من بينهم كلود موريس بيرت، الحائز على "الجائزة الكبرى للآداب الجزائرية" في 1934، ومؤلف عمل *أمازون الرمال*، رادا الاعتراف لإيزابيل إبيهاردت في 1935 مسترجعا عملها هكذا .

إذن، فالجزائريون لم يكن لهم دائما نفس الآراء عن الأعمال الأدبية السابقة، لكن كانوا كلهم يجمعون على التأكيد بشدة أن آدابهم كانت قبل كل شيء "آداب الفعل والعمل": "كان كتاب الشمال الإفريقي الحاليين، كان يقدم لويس كرواسارد في 1934، يمثلون و يذعنون، قبل كل شيء إلى الرغبة الخفية الغامضة في ترك صورة للإطار الذي كانوا يعيشون فيه، و في ترك أثر الفعل الذي يجري فيه والذي يشاركون فيه" (2). ستكون لنا الفرصة لتوسيع هذا الموضوع فيما يلي.

2/ تياران أدبيان جزائريان : " الواحد استقلالي والآخر إدماجي "

عندما يتعلق الأمر بمستقبل المستعمرة، كان هذا التيار ينقسم إلى تيارين : أحدهما ممثلا من قبل جان بومي، وروبيرت راندو، ولوران روبا، وآخرين من بينهم، كان يزعم و يدعي بأنه "استقلالي" بنوع من الغموض (3)، "وطني جزائري"، بالأحرى . كان لوران روبا يعتبر الشكل الأكثر كمالا لوجود بلد " كانت هذه الاستقلالية، تماما مع الاستفادة من الفعل الثقافي لفرنسا ". كان راندو، في عمله *رفقاء الحديقة*، يزعم ويقول أنه "باعث الدولة الجديدة".

1. Raoul Stéphan : conférence du 6 avril 1935 à paris chez Gibert jeune, 3 grands africains : isabelle Eberhardt, L. Lecoq, Robert Randau, Afrique », avril 1935, p.8.

2 . L. groisard : Article cité, Afrique, juin 1934.

3 . Ropa Laurent : Article « commentaires du livre les compagnons du jardin », Afrique, janvier 1934.

كانت روايته *الجزائريانيون*، الصادرة في 1911، مرافعة حقيقية في صالح الانفصال و الانشقاق ". إذن " فالجهوية الثقافية " تبدأ في التأكد في الآداب الفرنسية منذ بداية القرن العشرين.

وكان التيار الآخر " إدماجيا ". ويعثر على هاتين النظريتين معبرا عنهما في رواية *الكولونياليون* لراندو نفسه. وهكذا فالمحافظ الإداري الفرنسي جافيات كان يقول عن الكولون كسارد، نموذج و مثال " جزائري المستقبل " حسب رأي الكاتب نفسه : " إنه من القبح الوحشي أن توجد في العالم جزائر، ولم يكن لها في الشمال إلا ثلاث عمالات فرنسية، سياستك تعارض سياسة الأمة، أنا إدماجي، وأنت استقلالي"⁽¹⁾. إنه حول لويس لوكوك تتكون الجماعة " الإدماجية "، التي يندرج عملها، في التيار الأدبي " الإدماجي".

ب / الحركة الأدبية الجزائرية وإيجاد هياكلها .

إذا كانت هياكل التيار الجزائرياني قد تكونت ابتداء من 1921، فالحركة الأدبية، بالمقابل، كانت قد بدأت في التكون في بداية القرن، حول لويس لوكوك وروبيرت راندو لتتأكد بوضوح في 1919 - 1920.

فعلا، فقد أنشأ لوكوك في سنة 1905، مع بيار بنوا، حينما كانا كلاهما طالبين في الجزائر، *المجلة المتوسطة*، " وقد جمعت هذه المجلة الشبان المحاولين الأدبيين للمستعمرة وأعطتهم دفعا قويا نحو الآداب الفرنسية ذات الميزة المتوسطة الإفريقية"⁽²⁾، حسب رأي أليبرت تيست. وبعد خمس سنوات من بعد، في 1910، كان لوكوك محررا بعمالة الجزائر حيث عقد صلة بزميل شاب، جان بومي⁽³⁾. كان يساهم، آنذاك في عدة مجلات كولونيالية،

1 . robert randau : les colons, Paris , édition Albin Michel, 1926, p.402.

2 . Albert tustes : Avec le poète : Louis Lecoq », Afrique, février 1932.

3 . jean pomier : « Caïn, roman par L. Lecoq », Afrique, janvier 1931.

من بينها: الحوليات الإفريقية، الباقية، والفرنسية مثل مجلة باريس، زئبق فرنسا⁽¹⁾. كان قد نشر في 1908، ديوان شعر، الأضواء⁽²⁾. في 1912، تعرف على شارل هاجل، رئيس ديوان عامل العمالة. لقد كتبا بالتعاون، عدة حكايات جزائرية التي قد راحا يجمعانها في 1921، تحت عنوان بروميتش والقبائلي⁽³⁾.

في 1914، كان لويس لكوك قد جند في فصيلة من فصائل التلاميذ الضباط. و كان قد سبق أن نادى "بالجزائريانية"، وكان يرفض هو نفسه، "تقاليد و أعراف الأدب الدخيل [الغريب] في الآداب"، إن ثلاثية النخيل [الموكير]، والجمل، نوع من إغرابية السطح والمظهر. كما كان يرى ذلك لويس بيرتراند، في 1925، في الديباجة لإفريقيتنا. كان بطله حينذاك، "بييت، العشيق"، طفل باب الوادي، ممثل "الشعب الجديد" المختلق المتخيل من قبل لويس بيرتراند. كان لكوك يشخص ويتمحص بييت "الذي كان يعيش مثل الأطفال من الطبقات الشعبية، في حرية الشارع أو الشاطئ"، يوضح لنا بدقة صديقه جان بومي⁽⁴⁾.

في نهاية الحرب، التقى لكوك بهاجل، وبومي، وراوول سطيفان، (من أصل بلقاني : سطوبان)، و راندو، كلهم ولدوا بالجزائر، ماعدا بومي. وقد تلمى بعضهم البعض بإعجاب وتمتعوا "حينذاك بالعمل الأدبي"، فلكوك يجمع الأشعار من أجل تأليفها، في 1920، في ديوان من ثلاثة عشر شاعرا جزائريا، النص المقدم من قبل راندو الذي كان يصرح في هذه الفترة: "يجب

¹. Charles delp : L'œuvre de L' Lecoq », dépêche algérienne, 22 janv. 1932.

². Colonel godchot : article « de treize poètes algériens », bulletin de la société de géographie d'Alger et de l A.f.N., Alger 1921, p.224.

³. ibid.

⁴. Lettre du 5 mai 1974, déjà citée, de j. Pomier.

أن تكون هناك آداب للشمال الإفريقي أصيلة مبتكرة ، لأن شعبا يملك حياة خاصة به، يجب أن يملك أيضا لغة وآدابا له ... نريد أن نحرر و نفتك استقلالنا الجمالي" (1)، وفي 1925 يجمع لويس لكوك " حكايات جزائرية" منها حكايته "الجتان" في مؤلف معنون إفريقيتنا أو مختارات من القصصين الجزائريين. هذه المرة، كان لويس بيرتراند يقدم المؤلف : "ها هي إذن أول باقة تقدمها لنا الجزائر الفتية، هؤلاء الذين ألفوا هم في أغلبهم من السكان الأصليين"(2). وتكتسي هذه التظاهرة أهمية حدث ليس أدبيا فحسب . بل أيضا سياسيا وإن لم أجرؤ على القول أنه وطني . فلأول مرة، يعي جنس

¹ R. Randau : dévoile son objectif : il faut donc doter les populations européennes disparates d'une culture, d'une langue, leur apporter « une âme ». c'était là la fonction de « l'intelligentsia » coloniale. Nous allons voir que ce « régionalisme intellectuel » se créa « un idéal » , « des principes » et « des apôtres » pour citer les propres termes de randau.

²² . Autochtone : même terme utilisé par j. pomier. Les européens d'Algérie « deviennent peu à peu les Algériens....., les autochtones. Nous relevons à notre tour dans la partie « introduction ou bilan d'une histoire » de l'ouvrage l'Algérie, Nation et société , ce que note Mostefa Lecheraf, historiens français, colonialistes et parfois libéraux, les hommes de cultures aussi, (qui) ont écrit d'une plume allègre l'épopée d'une « race nouvelle », pleine de vigueur entreprenante, en taisant pudiquement ou en soulignant les seuls aspects pittoresques du processus mental pourtant significatif d'un nationalisme inhumain à plus d'un titre » Op cit., p. 15. Nationalisme inhumain, certe, dans « les affirmations » de Louis Bertrand notamment. plus tard, Robert Randau utilisera le terme « peuple algérien » dans le roman Les compagnons du jardin, en 1933, appliqué cette fois ci à l'ensemble des populations vivant en Algérie (musulmane incluse pour la première fois)

جديد نفسه"⁽¹⁾ . كان هذا نفس الخطاب لجان بومي وروبيرت راندو . بالنسبة لهذين، الأخيرين فإن الجزائرية، ستكون إذن حقا "مبهجة وفتحاً"، حينذاك . على العكس من ذلك بالنسبة لسطيفان راوول، ستكون في 1920، "سنة البيان الذي يتخذ شكل *المختارات الثلاثة عشر*"⁽²⁾، تكشف ماكسيميليان هيلر .

1/ إيجاد هياكل " المدرسة الجزائرية " جمعية الكتاب الجزائريين 1921 .

لقد أسس لويس لكوك وروبيرت راندو في 1921، جمعية الكتاب الجزائريين . وقد كانت هذه الأخيرة مكلفة بتنظيم "أيام الكتاب" بالجزائر . في نفس هذه السنة 1921، ينجح لكوك في الحصول على إنشاء جائزة للآداب الجزائرية، المدعمة من قبل الكولونياليين . وقد اقترح منح الجائزة الأولى، اسم والعمل الأدبي لرانندو . "كان لابد لنا من مجلة، كان يقول جان بومي"⁽³⁾ . في 1924، كان يعمل على إصدار، بمساهمة لكوك، المجلة الإفريقية، التي كانت قد عنونت في الحقيقة : *بنشرة النقد والأفكار من أجل الربط والاتصال الثقافي والفكري بين الميتروبول والجزائر*⁽⁴⁾ .

كان هذا إذن ليس "إرادة الفعل" فقط التي كانت تنشطهم وتدفعهم، بل أيضا، وخاصة الرغبة في الكتابة من أجل العمل على إطلاع وإعلام

¹ .Luis Bertrand : Préface de l'Anthologie des Conteurs algériens .Paris Monde moderne,1925,p.20

² .Maximilienne Heller : « En écoutant Raou Stefan »,Afrique ,mai 1936.

³ .Jean Pomier :Le temps des Algérienistes 1910 -1957,Paris , Pensée universelle,1972,p.12

⁴ . La rédaction et l'administration furent confiées à J. Pomier chez M.Pfieveret Assant (2,rue Marie Lefebre) selon Afrique, mai 1924.

المتروبول على مشاكل الجزائر". وقد كان جان بومي يعرض ذلك بوضوح في كتابه: زمن الجزائريين"، وقد اعتبر خلال السنوات 1919 - 1920، بعض الكتاب الشباب، طلبة، موظفين، فنانيين، ... أن الوقت قد حان للتجمع من أجل أن تقدم لبلدهم، خطة للبلوغ والارتقاء بواسطة الفن إلى صيغة واضحة له نفسه، وهكذا يكون له تكشفه وتجليه عن حقيقته الخاصة من أجل التمكن من كشفه لفرنسا (1).

المجلة الإفريقية [1924]: أداة المعركة

بالإضافة إلى ذلك، فإن مجلة إفريقيا كان يراد منها مجلة "ملتزمة"، وهكذا فإنه في مارس 1925، كان يمكن أن نسجل هذه الأسطر، "إن الإفريقية تقاوم وتعاك حتى تقبل المتروبول وتوافق على المنافع والمغانم لكل الطبقات والفئات، من الفرنسيين لكي يبقوا في الجزائر". كانت المجلة تقترح أيضا القيام بتحريات وتحقيقات: "هل كان يجب القبول والموافقة لأهالي الجزائر بتمثيل خاص في البرلمان؟". في عدد جوان 1924، كان يمكن قراءة "إننا ندعو منتخبي الجزائر ورؤساء الجماعات السياسية، والتجارية والصناعية للإدلاء بأرائهم، وانطباعاتهم حول القضية". كان هذا الإعلان والإشهار يندرج، بالتالي، في الحياة السياسية للبلد، وأيضا، في حياته الأدبية. كان عدد ماي 1925، يدعو مثلا "القراء إلى أن يجعلوا من هذه الكتب الجزائرية، خمسة في عينك وإفريقيتنا، الأكثر نشاطا وفعالية في الإعلانات والإشهار(2).

¹ . J.Pomier Op.cit,Le temps des Algérienistes (1910-1957),Paris ,Pensée universelle,1972p.10.

² . Revue Afrique :Article «La politique du prix Littéraire algérien »,mai 1924.

جائزة الآداب الجزائرية 1921: وسيلة دعاية

كانت للجائزة الأدبية أيضا سياستها الخاصة " كان الدعم المالي بخمسة آلاف فرنك قد منح بقصد الدعاية من أجل الجزائر⁽¹⁾. إن الفائدة من الجائزة كانت محاولة "تركيز وشد انتباه قراء المتربول، والمساعدة في تمكين و ترسيخ معرفة أكثر تحديدا وحصرا في فرنسا لبلدنا"⁽²⁾.

وهكذا فأغلبية الروائيين الكولونيين لهذه الفترة ، كانوا يظهرون الاهتمام بأن يكونوا معروفين في فرنسا وفي ما بعد، قد عبروا عن المرارة من اكتشاف قلة الحظوة والعناية التي كانت لها رواياتهم و"رسالتهم" لدى الجمهور الفرنسي : " ومن الشؤم والتعاسة أن الناشرين الباريسيين والنقد المتروبولتاني ،عموما، كان يكتب ألفريد روس، لا يهتمون، بما فيه الكفاية بالكتاب الكولونيين"⁽³⁾. كان روبيرت راندو، ينهض ضد "ظلم وجور" و"عدم التفهم، من كتاب الحوليات المتروبوليتانية"⁽⁴⁾. كان ألبيرت تيسست، يوضح بدقة أنذاك "إنه أيضا، تحسر لا عزاء له التفكير في أنه سوف لن يكون التماس محاضرة أبدا من لويس لكوك الذي كان له مع ذلك أشياء غريبة وعجيبة جدا يسمعها ويقولها"⁽⁵⁾. كانت، إذن، فرنسا تظهر قليلا من الاهتمام بالنسبة للآداب الكولونيالية وكانت تتجاهل "الرسالة" التي

¹ . Revue Afrique : Article « La politique du prix littéraire algérien », mai 1924.

² . Revue Afrique : « La politique du prix littéraire algérien », mai 1924.

³ . Alfred Rouse : « Les revues », Afrique , novembre 1934.

⁴ . R. Randau : « La vie intellectuelle dans le nord de l'Afrique » , Afrique , septembre 1940.

⁵ . Alfred Tustes : « Avec les poètes, Luis Lecoq », Afrique , février 1932.

كانت تريد أن تنقلها إلى الحكومة الفرنسية، على الخصوص . " أما الجزائر، فشعوبها وأخلاقها وعاداتها، فهي تكون بالنسبة لفرنسي، ما تكون فرنسا بالنسبة لأجنبي " كان يسجل شارل تيارت (1) . كان هناك " أحكام مسبقة غير مقبولة وغير ملائمة ، ليس في فرنسا فحسب، بل في الجزائر"، ينوح الكاتب ل . روبا(2). كان راندو يخبرنا أن "الجمهور المتوسط العادي للمستعمرة" كان يتوسل من المؤلف "تناول واستحضار مشاهد من الشارع واستعمال اللغة الشعبية" (3). كان البعض من أعضاء جمعية الكتاب الجزائريين يتمون في نفس الوقت إلى سلك التعليم (4)، كانوا ينوون ويفكرون في 1933، في العمل على إظهار قطع مختارة من الآداب الجزائرية "بمساهمة لجان بومي احتماليا .

2/ النضالية الأدبية للكتاب الكولونيين 1921 - 1939 " أن تكتب فهو فعل نضالي "

وهكذا نسجل، مثلا، أن الانشغال الأول للويس لكوك، على الأخص، كان "الحفاظ على المصلحة الوطنية لفرنسا"، فقد كان ينتج ويدع، يقول قبل كل شيء من أجل عظمة فرنسا الإمبريالية، في حين أن لويس بيرتراند وروبيرت راندو كانا يريدان تكوين "آداب جزائرية محلية جدا،

¹ . Angelleli (Jean-paul) : l'opinion française et l'Algérie de 1930 à travers la presse et le livre, thèse de 3^e siècle, Paris X, 1973, p. 78, cite Taillart : L'Algérie dans le roman.

² . Laurent Ropa : « pour les écrivains algériens », Afrique, mars 1933.

³ . R. Randau : Roman picaresque en A.F.N. », article cité, Afrique, janvier 1933.

⁴ . Le proviseur :Dépiques : selon une note de la réaction de la revue Afrique, mars 1833.

أصيلة، مبتكرة، ومستقلة⁽¹⁾. في الواقع، كانوا كلهم يدافعون بضراوة وبعناد عن المستعمرة وعن العملية الاستعمارية، وعن "عظمة فرنسا الإمبريالية".

وهكذا فإن كل الجزائريين لم يشاركوا في احتفالات المئوية التي تمجد "هذه العظمة". كان هذا يمثل بالنسبة للكوك، بالفعل، "العجز والنقص الفرنسي مع الدخل والإيراد المكتسب بواسطة المستعمرة الكبرى بفضل يد عاملة أهلية وافرة"⁽²⁾. لم تكن، بالتالي، المئوية إلا "وهم وفراغ" بالنسبة للويس لكوك. يشرح جان بومي أنه في الواقع إذا كان الجزائريون لم يشاركوا في المئوية، فلأنها قد سميت آنذاك "مئوية الجزائر" في حين أنه كان يجب أن تسمى حسب رأيهم "مئوية الفتح والاحتلال"⁽³⁾.

على المستوى السياسي، كان لكوك قد انخرط وانضم إلى الحزب الاشتراكي: "كان يتعاطف مع مكنتي يهودي من شارع باب أعزون كان يسمى كريف والذي كان على أخيه أن يكون منتخبا فيما بعد بقليل، نائبا اشتراكيا في باريس، إنه في ذلك الحين كان قد أسس جريدة للحزب حيث ساهمنا أنا ولكوك بالمناسبة"، يكتب جان بومي، في هذه الرسالة ليوم 5 ماي 1974، التي تجمع وتضم ذكرياته.

كان هذا بعد اختفاء و تواري لكوك في عام 1932، الذي كان فيه إنشاء معرض الكتاب الجزائري في 1936 في باريس، برعاية روبرت راندو. في هذه السنة نفسها، منحت الأكاديمية الفرنسية وساما لبيجيكا

¹ . I. Bertrand : préface de notre Afrique, op. cit.

² . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, Afrique, 28 juin 1927.

³ . j. pomier : « Prélude à l'exposition coloniale », Afrique, avril 1931.

ماري، مؤلفة أخواتنا المسلمات " المهتمة بتحسين مصير المرأة المسلمة"⁽¹⁾. في 1938، تولد الاتحادية الإفريقية للعمال المثقفين برئاسة فابري مارسيلو، معلم المدرسة الشعرية التزامنية في باريس"⁽²⁾.

وفي الأخير يمكن أن نسجل، في باريس هذه المرة، تأسيس الجائزة الجزائرية للرواية في 1954، من قبل جمعية الكتاب الجزائريين ومن قبل الإفريقية⁽³⁾. التي كان بومي دائما رئيسا لها .

كان لويس لكوك مثالا و نموذجا للانتقاء و الاختيار من أجل نضالته الأدبية . فعلا، فالإنتاج الأدبي للويس لكوك كان مختزلا و قليلا في الزمن لكنه كان كثيفا مركزا من خلال مواضيعه و مباحثه . ليس هناك عمل أدبي مجاني بالنسبة إليه. كل رواية فهي برهان وإثبات يضم و يحتوي إيديولوجيته كما سوف نرى فيما بعد. فرواياته لا ينقصها، بلا شك، الاهتمام بالمنفعة بالقدر الذي يرتكز فيه، في الغالب، على الواقع من أجل الشرح والإثبات و البرهنة .

كان لويس لكوك بمساهمة شارل هاجل، يصدر، في 1921، بروميتش والقبائلي، و إمبراطورية العالم، مهدي إلى لويس بيرتراند المؤهل " كمؤرخ وروائي أفريقي ". في نفس السنة كان يصدر أيضا السيد غراب [سيركوروبو] وقد صمدت قطعة الكاتين حيثنذ . ويكتب لكوك وحده، في 1925،

¹ . bugéja Marie : Roman nos sœurs musulmanes, Argo, Paris, 1921. « fille et femme d'administrateur, rapporta un intérêt passionné, un esprit libre de toute prévention sympathique et même fraternel » écrit Ropa Laurent dans Afrique, septembre, 1933.

² . R. Randau : « la vie intellectuelle dans le A.F.N. » Afrique article cité.

³ . la dépêche algérienne du 23 février 1954, article « Le prix algérien du roman ».

حكاية "كل سائل يتبع الانحدار"، المنشورة في مختارات القصصين الجزائريين أو إفريقيتنا، ثم خمسة في عينك، التي لقيت نجاحا في الوسط الأدبي الجزائري . إنها دراسة دقيقة وجذابة ومثيرة لأخلاق و طبائع الأهالي المعدلة والملطفة من قبل التأثير الفرنسي، كان يكتب موريس أوليفان في 1928، في مقالته "الكتب من قبل لويس لوكوك"، الصادر في الإفريقية (1) .

وقد حال الموت بين المؤلف وبين إصدار رواية كان قد تم إنجازها : مولوش (2) والتي كانت تمجد حسب رأي لوكوك "فضائل وخصائص الحياة الريفية والفلاحة والباطيركية للكولونيين" (3) . فعلا، لقد مات في 14 جانفي 1932. مولوش الصادرة في المجلة العالمية بصفتها الصادرة بعد الوفاة، والمقدمة من قبل بيرتراند "إن الرواية التي سنقرأها، كان لا بد أن تصدر منذ عامين، في الوقت الذي كان فيه المعرض الكولونيالي يجلب ويشد انتباه الجمهور إلى الجهد البطولي والنتائج الرائعة التي تمثلها مستعمراتنا الفرنسية" (4). وقد أعطى ألبان ميشال الذي نشر، في 1934، رواية مولوش قد منحها صفة المنشور بعد الوفاة لبسكولايت الجزائري (5) .

¹ . Maurice Olivaint : « Les livres, par Louis Lecoq » Afrique, février 1928.

² . . . Albert Tuste : « Avec Les Poetes », Afrique , 1932

³ . Jean Pomier :Article Afrique, avril 1931, « Prélude à l'exposition » ; c est dans cet article que Pomier explique pourquoi les Algerianistes ne participent au centenaire « qui ne veut pas dire son nom » dirent_ils, il devait s appeler , selon eux , le « Commentaire de la Conquete ».

⁴ . Charles Delp : Article « un écrivain algérien , L. Lecoq », Dépêche algérienne du 22 mars 1933. Delp cite la préface de L. bertrand.

⁵ . Alfred Rousse :Article « Pasquette l'Algérien, par Luis Lecoq », Afrique mars 1935,

في الحياة لسائر الأيام، كان لوكوك، الموظف، يمارس إصلاح بعض الهكترات من الأرض، "تقع في المكان حيث كانت تجري أحداث باسكولايت" (1) كل هذا يسمح لنا بأن نستخلص أن الكاتب وأعماله الأدبية كانت تندرج في إطار المعركة السياسية لهذه الفترة وأن "فعل الكتابة"، كما كان يجب أن يردده "هو فعل النضال". و كان هذا قد فهم جيدا من قبل المستعمرة، فقد أقيم نصب تذكاري تخليدا لذكراه(2). وفي السنة الموالية، في 1933، كانت جمعية أصدقاء لويس لكوك قد أسست (3).

ج/التيار الجزائرياني [1921 — 1937]: أداة الاختراق الإيديولوجي.

لم تكن هذه الإيديولوجية صلبة . لقد راحت تتطور في 1927، تبعا للنزاع الكولونيالي . ولم يكن هذا التطور نفسه لدى كل الكتاب الجزائريانيين . ولم يكن هؤلاء الأخيرون قد فهموا وأدركوا كلهم التقلبات والاضطرابات الأساسية التي كانت تجري آنذاك، في الجماعة الإسلامية . لقد كان لويس لكوك أحد القلائل من الكتاب، مع ألبرت تريفيموس ولوسيان فافر قد تأثروا بها؛، سنرى فيما بعد تبعا لأي العوامل كان يحصل، هذا التطور، وحتى مظاهر هذا التطور .

¹ . Alfred Rouse : ibid.

² . Afrique :Mars 1932 :Le maire Brunel donnait son assentiment pour qu'une stèle commémorative fut érigée , en mémoire du président d'honneur riens de l'Association des écrivains algériens , L. Lecoq , au cimetière de Saint Eugène.

³ . Afrique :Création du « Comité des Amis de Luis Lecoq », avril 1933.

1 / مشاريع وأهداف الجزائريانيين .

- مشاريع : دراسة ووصف مختلف " القوى الأدبية الفكرية " للجزائر بالنسبة لفرنسا.

- الهدف المعلن عنه : " التأثير الفكري الثقافي كـ " شكل لعملية الاستعمار ."

- الهدف : الحقيقي : " المساق و التطور المنطقي " للنظام الكولونيالي يجب المحافظة عليه و التمسك به.

" التيار الجزائرياني بالنسبة لراندو، الذي أبدع الكلمة، بالنسبة للوكوك، وبالنسبة لي أيضا ، يقول بومي، لم يكن أبدا مدرسة، كان يجب أن يكون تفسيرا وإيضاحا لمنهجية في بناء إجراء وأسلوب مكتسب "للأنا الجزائرية"⁽¹⁾. " إن أهمية منهجية سوف لن يمكنها إذن أن تنفلت منا، كان يؤكد راندو"⁽²⁾. كانت هذه "الأنا الجزائرية" تختلف من روائي إلى آخر [كما سنوضح بدقة فيما بعد]، كان كل واحد يحتفظ بشخصيته الخاصة، مع أن الهدف كان يبقي مشتركا . فعلا، كان على التيار الجزائرياني أن ينمي و يطور العقلانية الفرنسية في الجزائر، أن يكون أداة للاختراق الإيديولوجي لدى الشعب المستعمر، وجذب البورجوازية المثقفة المتعلمة، و تذليل و تسوية النزاعات التي من الممكن أن تقوم بين الأوروبيين والمسلمين ، وخاصة وأنا قد رأينا ذلك " التعريف بالجزائر للفرنسيين "⁽³⁾. كذلك كان الروائيون الكولونياليون يقترحون أن يكونوا حذرين، يقظين، في التطور

¹ . J.Pomie :Le temps des Algérianistes ou la chronique d'Alger (1910_1957),op,cit, p.15.

² . Randau.

³ . L. Lecoq : « Définition de l'Algérianisme », Afrique ,mai 1924.

للبلد، وأن يكيّفوا مسعاهم و محاولتهم مع إيقاعهم " بحيث لا يتبع ولا يواكب السير، بل يسبق ويتقدم عليه في تدرجه من أجل قيادته " (1) .

كان لا بد من أجل ذلك الولوج والبلوغ إلى " معرفة دقيقة و صحيحة لمختلف الأوساط الجزائرية " (2) . كان يمكن إذن أن يكون التيار الجزائرياني في مجموع آداب الإمبراطورية، إنه لو كوك الذي يتكلم هذه المرة، مجهود الفن المحلي الذي يشتمل و يتركز على الدراسة وعلى وصف علاقات مختلف القوى الفكرية الأدبية للجزائر . فهو يحتل و يشتمل على أكثر من قاعدة، وأكثر من واجب في، و واجب إنساني، وأنه لهذا صرحنا وأعلننا بأننا جزائريانيون مع [وبعد من جهة أخرى] راندو، معلمنا و موجهنا " . فالغرض من الآداب الكولونيالية، قد يكون، حسب رأي هذا الأخير، الدراسة " بنزاهة و بصدق " ، سواء كانت منفصلة، أو في علاقاتها فيما بينهما، الأهلي والأوروبي، و فحص و تقصي نفسياتهم والردود والاستجابات التي يتحملونها و يخضعون لها، ويعانونها من جراء علاقاتهم و اتصالم ، والإقامة في الوسط الأهلي الأصلي العرقي، و تفحص الظروف حيث ينمو الفرد (3) . كان على راندو أن يضيف " المبدأ الأساسي الكبير في التطبيق والممارسة هو العمل على تطور شعب في حضارته الخاصة قبل جره إلى حضارتنا . كان علينا أن نبلى و نلين ونلطف هذا الشعب طويلا بحضارتنا وليس أن نفرضها عليه

¹ . J.Pomier : Le temps des Algérianistes , op,e e une méthode cit,p.18.

² . Tous les Algérianistes étaient unanimes là-dessus. R.Randau précise « observation exacte du fait algérien » dans l'article : « Constitution de l'Association des écrivains algériens », Afrique, septembre 1940, Charle Akoun écrit « L'Algerianisme propose une méthode basée sur la connaissance exacte des milieux algériens », s dans article « nécessités des méthodes algérianistes », Afrique , Juillet 1929.

³ . R. Randau : Article déjà cité : « La vie intellectuelle en A.F.N », Afrique, septembre 1940.

بأساليب وإجراءات إدارية تكون دائما غير فعالة و غير ناجحة . أيضا قبل الاضطلاع و تحمل مهمة قيادة الأهالي في طريق جديد، ألا يجب معرفة حالتهم الاجتماعية، ولغتهم، وعاداتهم، وأعرافهم وتقاليدهم بعمق . وهكذا سيكون لدينا الأفضل و الأحسن من كل القواعد والأسس من أجل هيمنة وسيطرة رحيمة و متسامحة، خيرة . **يجب أن تصبح المصلحة الاقتصادية للأمة هي المصلحة الشخصية للأهلي** ⁽¹⁾.

لكن من أجل دراسة العلاقات الموجودة بين الجماعتين الأوروبية والأهلية، كان يجب أن يكون هنا قبول . إذ أن، المجتمع الإسلامي الناقصة والسيئة معرفته جدا من الملاحظين المعاصرين، للسنوات 1880 _ 1890، كما كانت قد لاحظت يفون تورين بالنسبة لفترة 1830 _ 1880، التي تؤكد : " أن العالمين الذي يفصل و يعزل بينهما الشك والحذر وعدم الثقة، يقيان منغلقين عن بعضهما البعض ⁽²⁾. هل كان ذلك أفضل في الفترة الموالية ؟ سئل، في 1974، جبريال أوديزيو وجان بومي، فلم يكونا متأكدين من ذلك . " إن التجربة كانت مكتسبة حتما من الخارج حتى بالنسبة للمتعاطفين والأكثر ملاحظة و ترصدا الذين كان يصطف و ينتظم لكوك من بينهم بالتأكيد، كان يرى أوديزيو ⁽³⁾. " ما قد كان يمكن الإخبار به لكوك ؟ ... لكنها الحياة اليومية في حقيقتها العارية الساطعة، كان يجب جان بومي ⁽⁴⁾.

وهكذا فمعرفة الوسط الإسلامي بقي سطحيا و ظاهريا تماما . " قد كان لكوك عاجزا، ربما، ليس في الرؤية الجيدة فقط، لكن في إدراك الكل،

¹ . R.Randau : Précis de politique musulmane, Alger ,Jourdan,1906, p,9.

² . Y.Turin : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale _ Ecoles , médecine ,religions 1830_1880,op.cit, p.29.

³ . Lettre du 16 mai 1974 déjà citée, de Gabriel Audisio.

⁴ . Lettre déjà citée de Jean Pomier.

لأنه كان يبقى، بالرغم من كل شيء، منفصلا ومعزولا عن الأهالي بسبب جهله للغتهم" ها هو ما يوضحه بدقة جبريال أوديزيو في رسالته . فهذا لا طائل من ورائه في العمق، بالنسبة للإيديولوجية الجزائرية، لأنه، بالتقريب كل مجموع الروائيين للمستعمرة، كانوا لا يسجلون ولا يلاحظون، بنظرة و برؤية منحازة متحاملة، إلا ما كانوا يحبون أن يروه جيدا .

2/ إيديولوجية التيار الجزائري حتى 1927.

لقد طور الكتاب الكولونياليون كل واحد منهم نظرية خاصة.

وهكذا راح التيار الجزائري، حسب رأي لكوك، يصبح في 1924، بعد القطيعة مع هاجل، " فرعا من الآداب الإمبريالية، الناشئة والناجمة عن الاحتلال و المختلفة بمجد و عظمة الإمبراطورية الفرنسية" (1). وقد راحت إيديولوجية الروائي، تصدر، بالتالي، عن إرادة نسقية و منهجية في التمجيد والتبرير للمشروع الكولونيالي .

فعلا، فالتيار الجزائري كان يملك سمات و ميزات عقلية خاصة . كان يطرح مشكل موازين القوى " للجنس المحتل الغالب مع الجنس المغلوب المنهزم" . كان الغزو والاحتلال يتأكد حسب المؤلف، بتحقيقه نفسه، وبتفوق الأوروبي : " إن هذا يكفي من أجل المصلحة الوطنية الفرنسية، إذ أنه يتفق من خلال حضوره الوحيد على أرض محتلة، فالكولون، الفلاح التاجر، الموظف، ... يمثلون الأمة الغالبة المنتصرة المحتلة، التي تبحث، والتي ترغب، و تتفنن و تبذل جهدا، في جعل أبنائها هم من كانوا قد تغلبوا عليها" (2). لكن لماذا، كان هؤلاء المعمرون المحتكرون والمستأثرون بكل ثروات البلد،

¹ . L. Lecoq : « La littérature impérialiste et l'Algérianisme », Afrique, juillet 1924.

² . L. Lecoq : « Considérations algerianistes », Afrique, mai 1924.

يصبحون مفضلين خيرين؟ مع أن، لكوك لم يكن يخفي الحقيقة، بل على العكس من ذلك، كان يذكر "بأن الفرنسي المستقر، المقيم في الجزائر، كان يجب أن يكون له البعض من المصالح و الامتيازات، على نحو ما، مكافأة كعلاوة وإعانة عن التصدير، لأنه في الأخير، كان يضيف، أن أوروبا ما لا يدع ولا يترك، أوروبا إلى الأبد، لمحض مثالية صرفة، من أجل رسالة و مهمة شاذة غريبة، مخالفة للمألوف بما فيه الكفاية : تلك الرسالة التي تتعلق بتعليم وتربية صغار السود، وصغار الصينيين، وصغار البربر . وينصرف مجربا و مختبرا ، كان يوضح المؤلف بدقة، عن رغبة في الثروة و الحظ والمال، وعن طعم جاذب لتحسين الوضع المادي"⁽¹⁾. وهكذا، لم يكن الأمر يتعلق بأية " مهمة ورسالة محضرة ممدنة".

وكان السؤال، في هذه الظروف، يطرح حينئذ : كيف سيجعل الأوروبي المهاجر من الأهالي "أبناء له" ؟ هل كان يمكن أن يوجد هذا النوع من العلاقات بينهم ؟ إذا كان هذا الأوروبي، من خلال دوره الاستعماري نفسه في حاجة إلى المستعمر، هل كان يريد، بالتالي، التخريب هو نفسه تخريب الوضعية التي كان يجني منها الارتياح والتعويض والإحساس بوجوده ؟ كان هناك، في الظاهر، تناقض وحتى تفكك وعدم تماسك بين بسيكولوجية المعمر، الممثل هنا من قبل لكوك نفسه، وأهداف العملية الاستعمارية .

الجزائر : الإرث الشرعي - العودة و اللجوء إلى ماضي مخصص و أسطورة الكولون البطولية .

كانت الإيديولوجية الجزائرية، تذهب منذ ذلك الحين، للتدخل من أجل الإبقاء على الأوروبيين في توهماتهم . كان الكاتب الكولونيالي يدعو إلى " تنبه مبهم متهوس " من أجل جعلهم كـ "ورثة شرعيين" لتاريخ قديم

¹ . L. Lecoq : Considérations algérianistes »,Afrique, mai 1924.

جدا . كان لكوك في روايته باسكولايت الجزائري 1932، يتهمل ويتضرع إلى مولوش⁽¹⁾، "على أرض إفريقيا، كان يقول، الإله القديم، الجبار، الكريم، المنعم ، يسود دائما، ... كان باسكولايت بربريا، معقدا، بربريا كان أسلافه مسيحيين"⁽²⁾. كان لابد من تيسير و تشجيع الانصهار والاتحاد بين الإسهامات الأصلية لضفاف المتوسط . كان لكوك يصنع ويختلق ماضيا مشتركا، انطلاقا من جد خرافي، بالطبع، ليقوم مقام الأجداد و الأسلاف القدامى الحقيقيين لمختلف الوطنيات و القوميات التي تتحاذى و تتجاور في المستعمرة . كان لابد من إقامة "اتصال تاريخي مستمر" من ما قبل الإسلام . وهكذا، كان يبدو أنه كلما "كان" الماضي الخاص "الذي يمكن أن تربط به عملية الاستعمار أكثر بعدا وقدمًا، كلما كانت هذه أكثر قوة في الشرعية . كان لكوك يحلم آنذاك إذن، "في تكوين إمبراطورية فرنكو / بربرية، فيما بعد، عندما تكون إفريقيا الفرنسية قد طورت شخصيتها"⁽³⁾ . ويلاحظ أن تأسيس واختراع الجد وتأسيس الوطن كانا يتطوران و ينموان هنا في تناسق .

فضلا عن ذلك، فإن كل جزائرياني كان يركب و يعد أيضا خرافة : كان لويس بيرتراند يريد إحياء و بعث آثارا و بقايا الحضارة الرومانية . لقد حضرنا وساعدنا، حسب رأيه، في نهضة اللتنة الإفريقية⁽⁴⁾ . إلا أن جان

¹ . Moloch :Dieu des Ammonites, peuple de Syrie , issu d Ammon fils de Loth (Bible),il était représenté comme un homme à face de taureau, qui on sacrifiait des enfants par le feu (culte punique, à Carthage notamment) .

Pasculette : Petit colon émigré de Valence, herdu livre Moloch , de Luis Lecoq, qui devient à titre posthume Pasculette l'Algérien,

² . L. Lecoq : Pasculette l'algérien, Paris, Albin Michel, 1934, p.235.

³ . Raoul Stefan : « Avec Luis Lecoq », Afrique, Avril 1932.

⁴ . L. Bertrand : « Anthologie des conteurs algériens » ou « notre Afrique »,Préface .

بومي وروبيرت راندو كانا ينخرطان وينضمنا إلى الأطروحة البيرتراندية، " للتننة"، بقدر ما . كان بومي يقترح "الفرنسيتانية" عوض إفريقيا اللاتينية " لبيرتراوند، " ويتضمن، ذلك، كان يقول، الجدر المزدوج لمستقبلنا : "الفرنسي / الموريتاني (1) وبالأحرى المصطلح "فرنسيتان" بدلا من هذا المصطلح " الجزائرياني ". بالمقابل فراندو، كان يتمنى إنشاء "مملكة بربرية كبرى، من قوة ثقافية فكرية فرنسية (2)". "ابنة للتننة"، لأن "فرنسا بلد الفكرة"، كون الجزائر، بلد اللاتين الجدد للفعل والعمل (3). ويختلق كسارد الكولون الكبير، بطل راندو وباسكولايت الكولون الصغير، بطل لكوك قرابة أسلاف عربية مغربية إسلامية . هؤلاء الآخرون كانوا قد صنعوا المستعمرة من جهدهم وعنائهم ومن جدهم وكدهم، ومن مجازاتهم اليومية، لذلك فهم كانوا امتلكوها بسعر جيد واحتلوها مرتين : بالعقد وبالفعل، بالفن وبالمهارة (4)، كان يشرح راندو دائما . كان هذا الموضوع "للبطولة" و"الجد والعناء" قد طور من طرف عدد من الكتاب الكولونيين، في نفس الوقت حيث كان التاريخ يتكلم عن خلو و فقر قرى المستعمرة من السكان، وعن التجميع والتركيز، وعن الآلية القوية للتملك (5) . يمكن أن يذكر، زيادة عن لو كوك و راندو، كتاب كولونيين آخرون كانوا قد طوروا ووسعوا أيضا هذه المباحث و المواضيع، مثلا شارل كورتان، في الغابة التي أكلت الرجل 1929، أنا كولنات في فيرجيني ديبارك 1936 . ومارسال موسى في عرقول أو الأرض الموعودة 1953 . وقد كان هذا الموضوع قد استرجع تناوله إذن حتى حرب التحرير الوطني .

¹ J.Pomier : « L'Algérianisme, sa théorie , ses applications », Afrique, juillet août 1924.

² . R. Randau : Les Colons, op, cit, p.19.

³ .R. Randau :Les Colons op, cit, p.27.

⁴ . J. Pomier : « R. Randau , son art, sa pensée », Afrique , juillet 1929.

⁵ . A.Noushi : Op, p.33.

وهكذا، كانت الجزائر من خلال هذا الرجوع المزدوج، " إلى الماضي البعيد، وإلى " وفاء وإخلاص باهت مبهم " قد أدمجت في " الإرث الوطني " لكل واحد منهم . غير أنه في 1935، راحت المتوسطة " تتأكد . ومن الآن فصاعدا سيكون البطل هو إيليس بالنسبة لجبريال أوديزيو (1) ولاسيما ألبرت كاموس . إنه البطل الحر بين البحر والشمس، فهو ليس له جنس ولا دين خاص . فهو ينتمي إلى الحضارة العالمية (2)

تفتيت وتفكيك المجتمع الأهلي: [المشكل المطروح من جراء تزايد النمو الديمغرافي للجزائريين المسلمين] .

لكن كيف، سيصبح التفوق والرجحان السياسي والمادي للأوروبيين أبديا، بمجرد تقريره شرعا، في هذه الظروف ؟ فعلا، من خلال نفس الوضعية التاريخية والجغرافية الخاصة للجزائر، فإن مليوناً من الأفراد من كل البلدان الأوروبية، وبالضبط من البلدان المتوسطية . [كانت الهجرة الإسبانية دائما مكتملة و قائمة مقام الهجرة الفرنسية شبه المنعدمة تقريبا، كان يشير لكوك] (3). كانوا يجدون أنفسهم، لا عن " مثالية صرفة و محضة "، وحتى نستعيد تعابير و ألفاظ المؤلف، المنصبون قانونا، أسادا على البلد وعلى موارده المادية و مصيره السياسي، في حزن سكان أهالي أكثر منهم عددا بست مرات . هؤلاء، حسب التاريخ، كانوا قد خضعوا آنذاك لنظام التمييز، وكانوا قد جردوا من أراضيهم، ونذروا وسلموا إلى الفقر و الجوع، والبؤس

¹ . « L'ulysien Audisio » : On retrouve cette appellation dans de nombreux article sur Gabriel Audisio.

² . Jean Dejeux : « De l'éternel méditerranéen à l' éternel Jughurta », Revue algérienne des sciences juridiques ,économiques, politiques, décembre 1977, pp.658et727. La littérature mediterranniste : celle de « L Ecole d' Alger » dont le thème centrale est le culte de la méditerranée.

³ . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, guin 1927.

وإلى التكديس والازدحام، والتزاحم، وإلى الجهل وإلى شبه البروليتاريا .
 وفضلا عن ذلك، فقد كان المجتمع الإسلامي قد أصيب بالمهانة والإذلال
 من جراء انتصار و غلبة القيم الغربية⁽¹⁾. إذ أن الإسلام بالإضافة إلى أنه
 دين، فهو تقليد، وثقافة، لا يزال أيضا يقدم في هذا المساق بقوة أكثر، ميزة
 وخاصة الاتحاد، وأسلوب حياة، وأخيرا جماعة .

لم يكن ذلك يفوت لكوك ويفلت منه، لقد كان واعيا بهذه الوضعية،
 لكن كان يتوهم أنه مازال يمكنه التدخل من أجل التقليل و التخفيض
 من تنافر و تناقض الأجناس، واللغة، والدين التي كانت تشكل خطرا
 على المحافظة على فرنسا في الجزائر⁽²⁾. كان بومي بالأحرى، يعترف و يعلن
 عن مخاوفه " بأن الأوروبي يخضع و يكابد هذا التآكل والتدمير الخفي ولكنه
 مؤكد، للشخصية التي يمارسه المناخ الروحي لإفريقيا على كثير
 من المتربوليتانيين"⁽³⁾.

كان لا بد إذن، من أجل ممارسة تأثير أكثر سهولة و يسرا
 على الأهلي، الابتداء أولا في "كسر و تحطيم و تحريب و حداثتهم"، كان يؤكد
 لكوك، متوجها إلى فرنسا على الخصوص: ألم تكن تملك سلطة القرار؟"
 ستتعلم البورجوازية الفرنسية الراقية، إذن، كان يكتب، أن كل سكان شمال
 إفريقيا، ليس هم لا سود ولا عرب، وأن تسع مائة ألف أوروبي يعمر
 الجزائر، مقابل خمسة ملايين من العرب، الذين يعتقدون أنهم عرب، والذين

¹ . Luis Massignon :Parole donnée ,réédité en 1970,Paris , René Julliard ,p,139.

² . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, 28 juin 1927.

³ . J.Pomier :Attitude devant l'Islam : celle d' Etienne dinet »,Afrigue ,
 février 1930.

هم في الحقيقة برابرة" ⁽¹⁾. كان يوجد، بالتالي، الحلم القديم الانفصالي الانشقاقي، هذا الذي كان يعرضه راندو في كتابه **كسارد البربري** ⁽²⁾.

هكذا، كان لكوك بيجل و يمدح، في 1927، سياسة بربرية كانت قد فشلت منذ زمن طويل ⁽³⁾. كان تصريح بومي أيضا أكثر وضوحا في 1929: "إذا كانت الوحدة البربرية تصنع و تكون تحت غطاء معرب، ستكون ضدنا" ⁽⁴⁾. إذ أن، غداة الحرب العالمية، كان مجتمع إسلامي متحد، قد بدأ، يتجسد و يتحقق في نوع من التجانس ومن المشاعر والإحساسات وردود الأفعال تجاه عملية الاستعمار الفرنسية ⁽⁵⁾.

وهكذا، كان يبدو على امتداد تاريخ المستعمرة، أن هناك حياتين، وعالمين يتطوران و ينموان من غير أن يلتقيا أبدا، الواحد مقابل و مجابه للحقائق اليومية، والآخر، شره طماع، وجشع نهم، منشغل بنفسه، متوقع وحاسب لمستقبل غير مؤكد، غامض، متغير وغير آمن،: "كان هذا الجنس البربري القديم قد هضم و تجرع ستة غزوات و اجتياحات، وها هو ما يوضحه التاريخ، والفرنسي الصغير المحاط والمحدق به في صفه بستة من الأهالي سيكون مهضوما بعد أن يكون قد سدده له، نعلا سيعيدون أبأؤه بيعه كما كان قد كشف لنا في جلسة من جلسات المجلس البلدي للجزائر ⁽⁶⁾.

¹ . L. Lecoq : Article cité, 28juin 1927.

² . R.Randau : Cassard le Berbère, op, cit.

³ . Charle Robert Ageron : Les Algériens musulmans et la France,1871_1919, Paris, P.U.F,1968, chapitre x, « Le mythe Kabyle (1871_1891),pp,267_285

⁴ . J. Pomier : Article cité , Afrique, juillet 1929.

⁵ . M. Kaddache : La vie politique à Alger de 1919 à 1939,op,cit.

⁶ . L. Lecoq : Commentaire du livre de Bainville Histoire de France , Afrique, aout 1925.

يمكن لهاتين الشهادتين التاريخيتين أن تنيرا وتكشفا لنا عن ردود الأفعال الأوروبية و عن الظرف المادي للأهالي : ربما كان لكوك ومن خلال نفس جماعته الخاصة، يعاني ويكابد الخوف من أن يكون ممتصا و مبتلعا متجرعا أو مبعدا مطروحا من قبل كتلة الجماعة الأهلية بعد أن تكون قد استفادت من خيراتهم وجميلهم و معروفهم ". إذ أن كتلة هذه الجماعة كانت قد سحقت و طحنت إلى درجة تجريد و تعرية أبنائهم الخواص، من أجل تغذيتهم ". في أي هدف إذن، كان لكوك يظهر مغرضا و ذا نية مبيتة في 1924 ؟ فنحن نعرف أن 97 في المائة من الأطفال لم يكونوا متمدرسين بين 1920-1930،⁽¹⁾ . ولا يمكن أن يكون إذن ستة أهالي بالنسبة لأوروبي واحد في القسم، لاسيما أن هناك أيضا نوعا من الفصل و العزل بين المدرسة الأهلية و المدرسة الفرنسية، خاصة في الأوساط الريفية و القروية.

توطيد و تدعيم الغرس و الإنشاء الكولونيالي .

كان على لويس لكوك ألا ينشغل و لا يهتم فوق الحد بالأهلي، على الأقل، في المقالات المكتوبة 1921-1927 . يجب ألا ينسى أن لويس لكوك قد كان المدافع، في أول الأمر، عن المصالح بمحصر المعنى لأوروبيي الجزائر، في مجملهم . تشييطا للهمة لكل إرادة ناقصة، في المساعدة من السلطة الكولونيالية للمسلمين، كان يبالغ و يغالي، في تأكيدات " كان على المتروبول أن تبقي و تحافظ على محاباتها و حظوتها إلى الفرنسيين المهاجرين الذين يشكلون إطارات الجزائر، التي لم تكن فرنسية إلا لكونهم هنا "⁽²⁾ . كان يجب جلب الأكثر من الأوروبيين إلى المستعمرة من أجل

¹ . C.A.Julien : L'Afrique du nord en marche, Paris , René Juillard .1972, p. 39.

² . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique , juin 1927.

تدعيم و تعزيز عملية الإعمار الفرنسي، التوازن الضروري لكتلة الجماعة الأهلية"، كان يشير وينصح (1).

كان يناضل بهمة و بنشاط لصالح الكولونيين . كان، في 1924، يساند و يدعم من خلال كتاباته في *الإفريقية* (2) حملة كانت تقام آنذاك للحصول على قانون جديد للهجرة. هذه الأخيرة كان عليها الاحتفاظ و الإبقاء، كان ينصح و يشير، من أجل احتياجات الجزائر، على كل العمال المسلمين . كان على الإدارة أن تجعل من الجزائر "سائغة مقبولة، ممتعة للإقامة و السكنى" . وكان، بالإضافة إلى ذلك ، يجذب انتباه السلطات إلى جسامه و خطورة "الخروقات المتوقعة" حسب رأيه هو : "إن واجبنا، هو الإشارة إلى الانتقاد المنبه إليه، المحذر منه من مواطنينا في المتربول، ربما تكون الأخطاء مشؤومة نحسة، توشك أن تخاطر بأن تجعل محاولات فرنسيي الجزائر عبثا" . كان إذن يسجل و يلاحظ "الأخطاء الإدارية، والسياسية العامة، والإدارة التي كانت نتيجتها الأكثر وضوحا في المجموع، أن تجعل من الجزائري (3) فرنسيا من المنطقة الثانية، كان يستخلص" (4) . كان يعد إذن قائمة كاملة بالمطالب والاستحقاقات لصالح الأوروبيين، من بينها تخفيض الضرائب : "الأكثر ثقلا على المشاركين، من فرنسا" (5) .

كان لوكوك يتذرع ويتمسك بحجة "إعمار فرنسي واسع" . كان يجب أن يصبح هذا الإعمار حسب رأيه "هو عنصر الاستقطاب الضروري

1 . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique , juin 1927.

2 . L. Lecoq : « Le problème de l'émigration » , Afrique , mai 1924.

3 . L'Algérien : Européen d'Algérie, strictement.

4 . L. Lecoq : « Commentaire de Geniaux, La pérennité de la vie méditerranéenne », Afrique, avril 1925.

5 .L. Lecoq : Article cité , Afrique , 28 juin 1927.

لتحويل الإفريقي إلى غربي⁽¹⁾. في الواقع، كان موجهًا ومنقادًا "بقلق وبانشغال خفي"، ذلك أن "الأهلي لا يبتلع الرومي" مثل ذلك الانشغال الذي كان لجان بومي أن "الجزائر تقرض و تقضم الفرنسي"
نظريات الإدماج الغزو الفكري للأهلي .

إنه من حقنا أن نتساءل إذن، ماذا كان يقدم الإعمار الأوروبي للمجتمع الإسلامي ؟ كان لكوك يقترح وحدة اجتماعية من خلال الثقافة، زهاء من الأربع مائة ألف فرنسي يدجون ببطء وبتوان في الروح الوطنية، أربع مائة ألف لاتيني من اسبانيا ومن إيطاليا و يتابعون المغامرة في الاجتذاب و الاستدراج إلى الثقافة الغربية، عشرة ملايين من البيض، من البربر، ومن العرب⁽²⁾ . كان الفرنسيون يحملون لهم ثقافة الغرب، وبالتالي، "الحضارة" مقابل الأراضي . ألم يكن هذا غريبا و مناقضا ؟ ألم تكن الحضارة بالأحرى هي المعركة المشتركة ضد الفقر و البؤس و الموت و المرض ؟ وجوه قد أصبحت معروفة لدى الأهالي في هذه الفترة ؟ إذ أنه، كان لا يتعلق الأمر بكل بساطة، بأمنية الجمهورية الثالثة البالية : "الغزو والاحتلال الفكري للأهلي". كان ذلك يعتمد و يرتكز على إعطائه لغته ومثاله في الحياة . ألم يكن هذا هنا، الإرغام و الإجبار على النفي والإنكار ؟ لكن، نحن نعرف أن هذه السياسة الطوباوية كانت مستوحاة و مستلهمة قبل كل شيء من الخوف من أن يكونوا "غرقى" في "كتلة جماعة السكان الأصليين" . إذن، كان لكوك من أجل التآمر والكيد و تجنب هذا المنظور و الاحتمال يذهب إلى مرحلة ثانية، يقرر تفوق سيادة المجتمع الغربي، وعلى الأخص مجتمع "فرنسي الجزائر" :
 يمكننا تماما أن ندرك و نتصور، نحن خاصة، فرنسي الجزائر، كان يقول في 1924، الذين جئنا لاستبدال الفوضى البربرية بالنظام، كم كان النظام

¹ . L. Lecoq : Article cite , 28 juin 1927.

² . L. Lecoq : Article cité « Histoire de France », Afrique , aout 1925.

شيئا جميلا وضروريا" (1). وهكذا كان المؤلف يدخل و ينزلق بلباقة، في الاهتمام و القلق دائما في التمسك و الحفاظ على حضور ووجود فرنسا في الجزائر، وأن حياة البلد لم تبدأ إلا بمجيء الكولون المعمر الذي راح يمنحه شخصية وتاريخا .

كان يبدو إذن، أن مصير البلد كان يخضع لتناوبين، أحد الأمرين أو خيارين " الفوضى الفطرية الوراثية أو السيطرة والهيمنة الفرنسية"، حسب رأي لكوك خاصة، " والهيمنة اللاتينية"، حسب رأي بيرتراند، وبومي وبعض الجزائريانيين الآخرين أيضا: " إن الأهالي كان لهم ماض، و لم تكن لهم ذكريات تاريخية"، يؤكدون و يسندون (2). وهكذا فالمجتمع المهيمن المسيطر سياسيا والذي، بالإضافة إلى ذلك، كان مفروضا بالسلاح، كان يبدو مفعما و ممتلئا بالكفاءة و الجدارة مقابل " الآخر". أي أنواع من أنواع العلاقات كان يمكن أن تنشأ و تنجم عنها، إلا الشك و الريبة و الحذر من قبل الأهالي وهذا منذ القرن التاسع عشر، كما تسجل و تنقل ذلك إيفون تورين، مستشهدة بأحد المعمرين: " هناك، على الأقل [في تونس] لقد تمكنا أن نجلب و نقل التقدم و التطور فورا من دون أن يكون مشكوكا فينا كما في الجزائر الإتيان لفرض أخلاقنا وعاداتنا وقوانيننا ولغتنا وديننا على المغلوبين المهزومين". (3).

غير أن لكوك، كان يريد أن يخلق من " الروح الفرنسية" من خلال بلوغ و انضمام كل سكان الجزائر إلى " الروح الوطنية الفرنسية"، خلافا لنظرية بعض الجزائريانيين. نظرية راندو، مثلا، كان لا بد من خلق " روح

¹. L. Lecoq :ibid, « Histoire de France », article déjà cité .

². Pierre Vallin : « L'âme algérienne », Afrique, novembre 1931.

³³³³. Yvonne Turin : Cité F.Buisson dans « Affrontements culturelles dans l'Algérie coloniale 1830_ 1880 », op, cit, p.416.

جزائرية جديدة مستقلة عن الروح الفرنسية⁽¹⁾. كانت نظرية إذن قريبة جدا من نظرية بيرتراند الذي كان ينادي، هو نفسه، "بتجديد و تشييب فرنسا المنهكة و المتعبة من جراء قرون الحضارة". وإجمالا، فإن المنطق و التفكير المعكوس لمؤلفنا، كان لكوك يقدم فكرته : كان لابد أن يكون هناك، نوعان من التوحيد للأفكار السابقة المتقدمة : أولا أفكار العناصر الأوروبية فيما بينهم، هذا الانصهار سيكون بلا شك، لأن هناك تشابه في الشخصية "من العادات والذهنيات وأيضا من الاعتقادات الروحية المشتركة"⁽²⁾. ويحدد التاريخ هذا التقارب ابتداء من الحرب العالمية الأولى. ثم كانت المرحلة الثانية في الاتحاد للبلوغ و للدخول إلى ثقافة الغرب من قبل الأهالي". وقد أصبحت هذه المرحلة، بالمقابل، افتراضية، كانت هذه المغامرة". كان هناك إذن، لدى لكوك نوع من السلم التصاعدي و التراتبي، إذا جاز التعبير هكذا : كانت الثقافة الفرنسية معتبرة أولوية، كثقافة أرقى و أعلى من الحضارة اللاتينية. أما عن المستعمرين الأهالي، فهل كان يمكن الأمل و الرجاء في التطور والتقدم فيها ؟ كان هناك في ذهن لكوك هرم حقيقي كولونيالي".

إنه في هذا المعنى و الاتجاه فإن الآداب الكولونيالية كانت تريد أساسا آدابا "للأسياد". لكن لكوك كان لا ينخرط و لا ينضم إلى النظريات الفاشيستي لبراند⁽³⁾ الذي كان، مع ذلك، يحببه و يرحب به، أمام فيوليت كا "كونه جثليق و باكورة الآداب الإفريقية"⁽⁴⁾.

¹ . R.Randau : Article cité, juillet août 1940.

² . L. Lecoq : « L'expérience coloniale », Afrique, février 1928.

³ . Luis Bertrand : Introduction au roman : Le Sang des races , nouvelle édition, 1920, voir aussi Mirage Oriental, op, cit.

⁴ . Charles Delp : « Un écrivain algérien, Luis Lecoq », Dépêche algérienne , du 22 mars 1933.

غير أنه كان يستلم للتأثر من خلال سياسة تلك الفترة : " كانت صدى الجزائر فاشيستي تجاه القضية الأهلية، التي كانت أهميتها مجهولة من قبل الأغلبية العظمى من الوسط الأوروبي⁽¹⁾ . كان هو نفسه، مترددا متحيرا : " بين هؤلاء الذين يعتقدون أن الأجناس الإنسانية هي أيضا تختلف اختلافا متباينا عميقا عن أن تكون أجناس من القرودة أو الأحصنة، وأولئك الذين يعتقدون أن الإنسان يفلت و لا يخضع لهذا القانون المتعذر اختزاله و تجاوزه المناقض والمفروض على الحيوانات . إنه من الصعب إبداء الرأي وإعلان الموقف بكل تأكيد . إن العلوم ربما، تؤكد فيما بعد القوانين التي ستوجه السياسة، وفي انتظار ذلك، من اللائق في رأينا ألا يكون السعي والتصرف إلا مع الحذر والتبصر و التأني⁽²⁾ .

لقد اتخذ الدفاع صراحة ، في ذلك الحين بالضبط، عن الحاكم فارين، المعزول من وظائفه في الهند الصينية بسبب العنصرية : " كان خطاب فارين يختلف عن خطاب البعض من أصحابه السياسيين، كان يصرح لكوك، أن السخاء وحدة غير مناسبة جدا و في غير ملحها تجر و تجذب إلى تمجيد و تبجيل في الموضوع الكولونيالي، كل ما هو أهلي، وقدح و تحقير كل ما هو فرنسي بمنهجية⁽³⁾ " . لماذا اتخذ هذا الموقف إن لم يكن الكاتب، قلنا متزعجا حائرا، بوضوح و بجلاء، من جراء ظهور تحول و تغير لدى الأهالي ؟ كان يعارض الليبراليين الفرنسيين الذين كان تأثيرهم مفرعا و مخيفا، مريعا، سنرى كل ذلك، عند تناول تطور إيديولوجية لويس لكوك من بينها .

¹ . M.Kaddache : « La vie politique à Alger ,1919_ 1939 »,op, cit,p.369.

² . L. Lecoq :ibid, « L'expérience colonial »,Afrique, février 1928.

³ . L. Lecoq : ibid, article cité , Afrique , février 1928.

وكذلك من أجل التصدي ومعارضة كل فعل ونشاط مخالف لطموحهم و لمبتغاهم السياسي، فإن الجزائريين الممثلين من قبل بومي، كانوا يطالبون بمقابلة و جلسة سياسية أكثر اتساعا مع الحاكم العام ستايك " لقد أبعث كتاب البلد كثيرا على الحياد في المجالس السياسية والحكومية لشمال إفريقيا حيث كان يمكنهم، مع ذلك، أن يسهموا بمصتهم و بنصيبهم في التفكير و الرأي ، وفي التأمل و التبصر، وفي التجربة"⁽¹⁾.

إنكار و رفض الأبعاد الاجتماعية/ الثقافية والدينية للجزائري

كان، إذن، طموح و توق كتاب الجزائر، في الواقع من العمل النضالي السياسي . وهكذا، كانت السياسة الإدماجية آلة حقيقية للحرب، وضحت من قبل لكوك، وشارل عقون، وكتاب كولونياليين آخرين، مخصصة وموجهة، لتدمير و تخريب المقاومات المعارضة من قبل الإسلام، والتشريع الإسلامي والمجتمع الإسلامي . كانت وضعية المستعمرة، في عشية هذه المثوية، تقتضي، ذلك كانوا يرون . " كانت خطيرة و جسيمة " لأن لكوك كان يتأكد و يسجل أن "الإعمار الكولونيالي، سوف لن يكون عما قليل، إلا واجهة كبيرة" وأنه "منذ مائة عام و فرنسا هنا، ولم يكن قد وقع التقدم بأصبع واحد في طريق الانصهار و الإدماج بين جنس السكان الأصليين وبين الجنس المحتل الغالب"⁽²⁾ . وبالتالي، فإن المقاومة الجزائرية كانت كاملة سليمة منذ الأبد . وكان راندو، وبيار فالان، وشارل عقون، يصلون إلى نفس الخلاصة،⁽³⁾.

¹¹ . « Ecrivains d'Afrique à Steeg », Afrique , juin 1927.

² . L. Lecoq : Article cité, Afrique, août 1925.

³ . R.Randau : Article cité, Afrique , juillet août 1940,P. Vallin , « L'âme algérienne »,Afrique, novembre 1931.C.Akouné, article cité ,Afrique, juillet août 1929.

لكن هل كان لكوك يتفادى و يذلل الصعوبة و يقوم بنوع من الشرح و التأويل لـ "الجمادية و الخمول" للمستعمر الأهلي الذي، ربما، يحذوه الأمل، في التغيير؟ لأن على حسب رأيه، فمجرد فعل الرفض نفسه للإدماج، تخميناً " هو مصدر و مورد تطور و تقدم"، في الوضعية الكولونيالية، كان يشير إلى أن الأهالي لم يكن لديهم كلهم "نضج سياسي". فهم لا يمكن لهم إذن المشاركة في الحياة السياسية، ماعداً "النخبة" كما سنرى لاحقاً. بالنسبة لفترة متقدمة جداً، سبق أن سجلت، إيفون تورين: "ببساطة، لا معادل لها إلا يقينهم و ثقتهم، يقترح الأوروبيون نهج و طريقة حياتهم، كتعويض و كمكافأة لا تقدر لتبعية وديعة و طيبة ممتثلة"⁽¹⁾.

كان قسم من الجزائريين يواصل ويستمر في التأكيد على أن "محاولة و تجربة الإدماج ليس فخا و خديعة و طعماً"⁽²⁾، وأنه "على الكتاب و الفنانين أن يصنعوا و يحدثوا على المستوى الفرنسي هذا التجميع و التركيز من العناصر المختلفة"⁽³⁾. إذ أن هذه التجربة و هذه المحاولة، كانت تصنع و تحدث منذ 1924، مع لكوك الذي كان يوصي وينصح بإحاطة الجزائر "بالجو الفرنسي". لكن من أجل ذلك، كان يجب، سلفاً الإنقاص و التخفيف من "الأنا" للجزائري المسلم إلى مستوى سلالي عرقي. كانت مناقشات و مجادلات قد انتعشت و بعثت حينئذ عن وجود أو عدم وجود لحضارة إسلامية لدى الأهالي. إذ أنه، حسب رأي نظرية بعض الروائيين الكولونيين أمثال، لويس بيرتراند، و جان بومي، و شارل عقون، فهذه الحضارة لم تكن "إلا معارضة و محاكية للحضارة اللاتينية". كان لويس بيرتراند، يكتب مثلاً، في مارس 1922، "كانت البلاد البربرية" قد

1. Yvonne Turin : Affrontements culturelles, Op,cit,p.34.

2. Ch.Akoun : Article cité, Afrique,juillet 1929.

33. Pierre Valin :Article cité , Afrique, novembre 1931.

رومنت، منذ ذلك الحين في ماذا؟، هل هذا يكدر و يحزن الجزائري أو التونسي المسلم من أن يذكر بأسلافه الرومانيين⁽¹⁾. كان هؤلاء الكتاب يستندون و يتمسكون و يتذرعون بحجة و بذريعة التأسلية [العودة إلى طبيعة الأسلاف السابقة] اللاتينية، كاشفين اللثام هكذا عن أعمالهم النضالية اللاتينية، و عن احتمالاتهم ومنظوريتهم المقلقة الشاغلة للفكر .

وعلى العكس من ذلك، كان لكوك ينضم و يلتحق بأطروحة شارل جينيو⁽²⁾، الذي بتبنيه لفظ الحضارة المتوسطة، كان يميز و يسلم بالإسهامات و المشاركات المتعاقبة للشعوب القاطنة على ضفاف هذا البحر السماوي الرائع⁽³⁾.

وهكذا، فالحضارة المحلية كانت قد هجرت و تركت في كتابتها . هل كان هذا بانعدام المنفعة من جانب الأوروبيين، كما سبق أن سجل ذلك، في 1850، بيني، أحد الرؤساء الأساسيين القدامى لمجمع مدرسي⁽⁴⁾، أو عن جهل؟ " يشير المفتش بيسشو، في نفس الفترة، أيضا، الوحيد في التجروء على هذه الشهادة، أن كثيرا من المؤلفات كانت قد بددت وبعثرت من خلال الاحتلالات المتعددة للمساجد، كانت فالمخطوطات التي تستعمل أساسا في التعليم في جزئها الأكبر قد دمرت و خربت و أتلفت"⁽⁵⁾ . إذن، كان هناك فقر و شح في المعلومات، لكن على الخصوص، الالتفات

¹ . Théorie déjà exposée par Bertrand parue dans Afrique latine du 15 mars 1922.

² . Afrique : Commentaire de L. Lecoq de l'article de Charles Géniaux : « La pérennité de la vie méditerranéenne », avril 1925.

³ . Expression de géniaux reprise par L. Lecoq qu'on retrouve chez Gabriel Audisio en 1935, dans La jeunesse de la méditerranée ,op, cit.

⁴ . Yvonne Turin : Op, cit ,p. 33 .

⁵⁵⁵⁵ . Yvonne Turin : signale « Le rapport » du Duc d'Aumale en 1847.

و العناية الناقصة غير الكافية الممنوحة من قبل الأوروبيين إلى الحضارة المحلية وإلى أمور الذكاء على الخصوص .

بالإضافة إلى ذلك ، لماذا كان الأوروبي يريد أن ينكر قيم حضارة المستعمر الأهلي، واقتلعه من وسطه الثقافي و في النهاية، التخلي والسلب تماما، إن لم يكن هذا لأنه كان يتأكد أن "ذهنية المسلم" كانت تسد سبيل الإدماج، ,وأنها كانت تسمح له بالمقاومة بفعالية . كان الشك و التردد، بالتالي، يبدأ في الهجوم على المؤلف : "إن قرنا من المعاشرة لم يكن قد نجح في إدماج سكان، بأخلاق، ولغة وذهنيات مختلفة، كان يعترف لكوك، وحتى الثقافة الفرنسية لبعض الأشخاص القلائل، لا تفيد و لا تستخدم حتى لإبراز ولإظهار خصوصيات و ميزات، قد تكون متعذرة الاختزال بوضوح⁽¹⁾ . كان لكوك، تماما، مثل راندو، ثم بعده، شارل كورتان وجان بومي يدركون و يعون، أن الإسلام كان سدا مانعا و عائقا يتعذر عبوره و تجاوزه في عملية الانصهار و الإدماج . كان روبرت راندو يعبر عن ذلك بصراحة في 1940 : "إن الطابوهات المقدسات الدينية للإسلام كانت سدا منيعا حقيقيا للانصهار والاندماج للقادمين الجدد وللمحتلين القدامى"⁽²⁾ . يجب ألا تفقد الرؤية بأن الكتاب كانوا يتحمسون و يشغفون بالنسبة لسياسة البلد . كان هذا الأخير حينئذ مضطربا قلقا من جراء مجادلات و مناقشات عن الاحتفاظ، والإبقاء أو عدم الإبقاء على قانون الأحوال الشخصية للمسلمين . كان الروائيون الكولونياليون، بالتالي، قد ساهموا وأخذوا قسطهم في المعركة الشرعية القانونية المفتوحة و المعلنة بين "الشبان الجزائريين" والحكومة الكولونيالية، حول المحافظة على الشخصية الإسلامية.

¹ . L. Lecoq :Article cité ,Afrique, juillet1924.

² . R. Randau : « Pour un recueil de poèmes d'Algérie à paraître », Afrique, juillet aout 1940.

كان لكوك يكتب آنذاك: "لم يكن فيكتور بيكيت، المراقب العام للعساكر، يتهاون في أن يسهم أحيانا، برشاد وبسداد . وهكذا كان قد رثى وحنن على أسلمة شمال إفريقيا المطاردة والملاحقة، من خلال الجهل للتاريخ ولعادات البلد، وكذلك من خلال المبادرة الحمقاء والغيبة لبعض الحكام العاميين في احترام و تبجيل دين الآخرين أكثر من دين جنسه"⁽¹⁾ . وهكذا، فقد كان لويس لكوك، مثل شارل كورتان فيما بعد، في مقهى المور 1939⁽²⁾، وكل أوروبي المستعمرة من جهة أخرى، يبادرون ويعجلون ويهرولون إلى جعل المسؤولية على عاتق السياسة الفرنسية عوضا عن الاستماع إلى حجج المسلمين . كانت هذه السياسة الفرنسية حمقاء، وكانت تشجع نمو و تطور الوطنية على حسب رأيهم، الوطنية التي كانت تتبلور حول الإسلام .

كان الكاتب يحدس ويتهجس إذن أن الدين قد أصبح القيمة الملاذ والمنقذ للمستعمرين الأهالي . كان يجب، بالتالي، "تسويده و الإساءة إلى سمعته" في مرحلة أولى ثم اقتراح تبعة أخرى له⁽³⁾ . وهذا ما حاول لكوك فعله في راوايته الأهليانية *خمسة في عينك*، التي احتلت الصدارة في 1925 . في مواجهة مجهودات النهوض والتجديد والإصلاح الديني المباشر بعد الحرب العالمية من قبل العلماء، فقد كان لا يريد أن يرى في الوسط الأهلي إلا الخرافات و الاعتقادات الباطلة ، والمرابطة، وتعدد الزوجات . وهكذا كان يجتهد، لوقت فقط، يجب توضيحه بدقة للعرض وللتنديد " بالتعصب وبالترتمت الديني للأهالي " . كان جان بومي يكتب، معلقا على

¹ . L. Lecoq : « Littérature impérialiste et l' Algérianisme », Afrique, juillet 1924.

² .C. Courtin : Café maure, Paris , éd, de France , 1939, p. 74.

³ . Maurice olivaint : « les livres soleil par louis Lecoq », Afrique, février 1928.

كتاب لكوك، الذي "لم يكن إلا كاريكاتوريا ورسما ساخرا بقسمات وسمات، بسيطة، من أجل ترميم و تصحيح المناظر والمظاهر والأحوال والنماذج والشخصيات والأخلاق والعادات لبلدنا تحت شعار اليد التي تبعد الحظ السيء"⁽¹⁾.

كيف كان يمكن حينئذ صنع "الانصهار و الاندماج الروحي"⁽²⁾ في هذه الظروف؟ لم يكن ممكنا في رأيه إلا بعد "تحويل و اعتناق الأهلي للديانة اليهودية المسيحية . هذا ما كان يمكن أن يكون مادة و موضوعا للتفكير بالنسبة لسياستنا الكولونيالية، كان يضيف لكوك"⁽³⁾.

كان هذا الجانب الثاني لبرهنته و لإثباته الذي يوجد في حكايته "الجتان" 1928. كان يقترح الإدماج في الحاضرة الفرنسية " لكن بعد تحويل الأهلي فقط . غير أن، عملية التبشير لم تكن متصورة و مفهومة هنا كميل وكنزعة، و كإرشاد رباني لكن بصفتها ضرورة، و حتى اقتضاء مخصص ووجه لإنقاذ و للحفاظ على المصالح الفرنسية .

إذ أن المجتمع الكولونيالي الذي كان لكوك عضوا فيه، هل كان يرجو و يأمل حقيقة تغيرا أيا كان لدى المسلمين؟ وبالأحرى التحويل والارتداد، والتخلي عن قانون الأحوال الشخصية؟ ألم يكن ذلك يمنح الأهالي نفس الامتيازات و المزايا، و المساواة وبالتالي، تحريب و تدمير الوضعية الكولونيالية هي نفسها؟

¹ . J. Pomier : « Roman Lecoq », Afrique, janvier 1931.

² . Terme employé dans « les deux paradis », 1928, conte de Louis Lecoq.

³ . L. Lecoq : « commentaire du livre de Marius et Ary Leblond, Ulysse Cafre », Afrique, juillet 1926.

ربما كان يجب الاستشارة والرجوع إلى تاريخ الجزائر و النظر ما هي الحقائق و الوقائع الحالية التي كانت في تلك الفترة ؟ كم من الأهالي كانوا قد طلبوا التجنيس، ومن كانوا هم ؟ فالإحصائيات تظهر أن التجنيس كان لا يصل أبدا المائة في السنة (1)، مما كان زهيدا بالنسبة لسكان ذوي خمسة ملايين نسمة . ولم يكن مطلوبا حتى من المثقفين، لكن على الأخص من قبل موظفين صغار " مهتمين و حريصين على الاستفادة و الانتفاع من الغنم و من المزايا الممنوحة إلى الفرنسيين " حسب رأي الحاكم العام، موريس فيوليت . وقد تكمن إحدى العلل و الأسباب للتقليل من الحماسة بالنسبة للتجنيس، في هذا التأمل و التحليل لإيفون تورين : " لم يكن أبدا السلوك العائلي، والديني، حتى اليومي لمثلي هذه الجنات الخيالية، قد ولد عن هذا الموضوع أقل تحسرا و أسفا . من أجل الرغبة، تلاحظ إيفون تورين، كان يجب أولا الإعجاب و الاستحسان (2).

وسيكون لويس لكوك، هو نفسه، منقادا و مستدرجا إلى التنديد بالوسط الأوروبي للمستعمرة في 1927 . وكان آلان، ينوح و يبكي على تنمية و تطوير " عملية استعمار رأسمالي " . كان معارضا للرأسمالية الغربية، وإلى تنظيمها و تقنينها المتعسف الجائر وإلى تداخلها و تشابكها و دوامتها و تداعياتها للعمل غير الإنساني (3) . كان هذا النموذج و النوع من العملية الاستعمارية يقصي و يبعد، إذن، كل اتصال إنساني بين الأوروبيين و الأهالي . إذ أنه، كان يجب " إقامة و تنصيب مستعمرة في العمق " سوف تسيطر و تهيمن، في مرحلة أولى، على الأهالي .

1 . Maurice violette : L'Algérie vivra t-elle ?, paris, 1931

2 . Yvonne Turin : Op. cit., p. 416.

3 . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, juin 1927.

وهل سيكون "الانصهار الروحي" حينئذ، ممكنا فيما بعد؟ كيف يمكن أن يصبح الإدماج حقيقة بالنسبة للوكوك؟ بفضل الكولون الصغير، يدعم ويسند، كان يسجل بصراحة تفضيله للمهاجر، مالك الأرض بفالانس، المنحني بشدة على حقل طماطمه⁽¹⁾. "كان الفلاح المزارع الرائد"، حقا الصورة والهيئة التي توضح وتمثل أفضل رؤيته "للمعمر المثالي النموذجي" الذي بقي وفيأله حتى النهاية، ألم يكن يكتب في 1931، قبيل موته بسكولايت الجزائر، حيث كان البطل هو الكولون الصغير.

كيف كان يجب إذن حينئذ، أن تسهل المستعمرة الصغيرة الإدماج؟ هل كان يمكنها أن تسمح بالاتصالات أكثر بين الجماعتين، وبالتالي بتأثير ثقافي للأقلية الأوروبية على المجتمع الإسلامي، كما كان المؤلف يدعم ذلك؟ وبإجمال، كان يوجد تماسك والتحام مؤكد في التركيب والبناء الوهمي الخرافي للوكوك. كان على هذا أن يتوجه إلى المتربول بما أنها كانت تملك، حسب رأي لوكوك، مفتاح المشاكل وكذلك الدفاع عن مصالح فرنسيي الجزائر. كان لابد من المطالبة بمزايا وفوائد من أجل التسريع والتعجيل في إعمار المستعمرة، لتوطيد وتدعيم الإنشاء والإقامة، والتأصيل الكولونيالي. إنه فقط بعد أن يكون لوكوك "قد حمل الأوروبيين بمهمة، تلك المهمة التي تقود هؤلاء الرعايا الذين يجب أن يصنع منهم، يوما، مواطنين، نحو التقدم، كان يقول"⁽²⁾. كان يجب ذلك كثيرا جدا، بما أن "هؤلاء الأوروبيين راحوا يساكنون ويتعايشون مع أولئك الذين كانوا هنا من قبلهم". وفي انتظار، إذن، "تطور وترقية الأهالي من خلال الاتصال بالأوروبيين"، كان لابد من إدماج النخبة، التي هي الآن أكثر بثلاث أرباع من الفرنسيين والغربيين"⁽³⁾.

¹ . L. Lecoq : « littérature impérialiste », juillet 1924.

² . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, juin 1927.

³ . L. Lecoq : Ibid. Afrique, juin 1927.

كان لكوك أيضا، يحيي بحماسة، "بلوغ وانضمام" مسلم مثل عبد القادر فكري إلى "العقلانية الفرنسية، كحدث في حد ذاته، في الآداب الكولونيالية"⁽¹⁾.

لكن، فضلا عن ذلك، كان يوصي وينصح بحمية وبعيوية الحكومة الفرنسية، أن تختار "بصواب و بإنصاف"، و"بجذر واحتراس" حتى، من بين النخبة الأهلية. ما هي هذه النخبة حسب رأي لوكوك؟ لقد راح، حسبما يبدو، بشكل متناقض يقصي و يطرح بالتناوب المسلمين الذين كان يمكنهم أن يشكلوا أفضل صورة، عن طريق جهاز حط وفرز و تخفيض خاص بالإيديولوجية الكولونيالية. وهكذا، كان يدون، مثلا، أن "الأهالي الأثرياء، المثقفين، المتعلمين لا يظهرون له أبدا مشغولين بشيء آخر إلا بأن تكون لهم وضعية جيدة، أن يثروا وأن يربحوا المال أو أن يحصلوا على الأوسمة العسكرية أو المرتبة و المكانة"⁽²⁾. ومن أجل إصلاح "عاهاته و عيوبه"، كان على الأهلي، إذن، لا محالة، التسليم و لانضمام إلى المجتمع الغربي. كان لسماوات و لطبائع المسلمين، المرسومة هنا، قليل من القيمة التوثيقية. كان لويس لكوك يريد أن يبرهن و يبين قبل كل شيء، أن الإدماج سيكون بطيئا و صعبا شاقا. و سيكتب بومي، في 1931، أن "نجاحه يتوقف أكثر بكثير على مدة النصوص التشريعية"⁽³⁾. بالنسبة للكتاب الآخرين، فهذا مثل ذلك، كان يجب إدخال، عامل الزمن في اعتقادهم، من أجل إتاحة السيطرة أفضل على البلد. كان بالأحرى لا بد أن يبقى الإدماج اتجاهها و منزعا و غرضا لأن المشكل ظل متعذرا حله في السياق الكولونيالي.

¹ . L. Lecoq : Ibid . Afrique, juin 1927.

² . L. Lecoq : Ibid . Afrique, juin 1927.

³ . J. Pomier : Article « prélude à l'exposition coloniale de paris 1931 », Afrique, avril 1931.

بالفعل، لم تكن القضية، قضية النمو والتطور المتوازي للشعبين أو قضية سياسة الجمعية الليبيرالية، كما كان يمتدح وينادي به بيار ميل⁽¹⁾، وروبيرت راندو في 1924، وعبد القادر فكري، في 1934. بالنسبة للجزائر المسلمة، لم يكن هناك خيار. كان عليها أن تنضوي و تنضم إلى نموذج بعض الأوروبيين⁽²⁾: الوحدة الفرنسية، وحدة الروح، والثقافة، والأخلاق والعادات واللباس.

معايينة فشل و اخفاق، : مقاومة الجماعة المسلمة .

إذ أن، المجتمع الإسلامي كان يقاوم بعزم و بتصميم : إن هذا كان بالضبط في اللباس، و بالتدقيق زينة الرأس و الحلاقة التي تميز الاعتراف والإقرار بهذه المقاومة، كان يسجل لكوك، و يضيف بمرارة شديدة : "نحن لا نعرف ذلك إلا إفراطا ومبالغة"⁽³⁾. كانت هذه معايينة فشل و إخفاق إذن.

مع أن الكاتب كان لا يزال يفتش و يبحث أيضا عن الطمأنة و تسكين الروح : "إن وضع الشاشية، هي مرحلة انتقالية، إنه الآن مرتد (مطورني) تقريبا"⁽⁴⁾. إذ أن، "المطورني" المرتد المارق عن الدين "لا يمكنه أن يكون رابطة و صلة بين المجتمعين، لكونه مرفوضا و مطروحا مستبعدا من مجتمعه [كما يظهره الكتاب أنفسهم في رواياتهم]، وهذا من غير أن يكون مدجا في الآخر. كان الأهلي المتعلم المثقف يبقى متجذرا متأصلا

¹ . pierre mille invitait « les fonctionnaires algériens à venir en métropole pour apprendre la religion du libéralismes », Afrique, mai 1924.

² . les colons ne désiraient, eux aucun changement (cf. ageron) et surtout que la condition des indigènes ne soit transformée par des concessions.

³ . L. Lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

⁴ . M'tourni : Retourné, renégat.

و متأثلاً بقوة في جماعته، كما كان يشهد بذلك أيضا شارل كورتان، وكان لكوك، الملاحظ المترصد الدقيق، ينقل لنا البرهان و الدليل الشاهد، عندما كان المحامي الأهلي الذي نعرفه يذهب ليرافع في الداخل، ينزع شاشيته المعرضة للشبهة و يضع القنور أو يرتدي، على الأقل، على الرأس شاش الطالب الأبيض وهكذا يحترم العادات من ألف سنة التي سوف لن يعمل على إزالتها و محوها في مائة عام⁽¹⁾. ويقوم شارل كورتان بنفس الإثبات والمعينة في مقهى المور 1939، في موضوع المثقفين . يكتب : " أن الأغلبية كانت قد تركت وهجرت السروال المتنفخ (الحوكى) لكن روحهم تبقى ملقحة و مشبعة بالتزمت و التعصب المفرط للإسلام⁽²⁾. وهكذا فهذا الارتداء و اللباس الرأسي للقروي البدوي الفلاح المسلم من قبل المحامي، كان يسجل الإرادة من جانب هذا الأخير، والتأكيد على علاقة و رابطة مع الفلاح القروي نفسه، كان ذلك لابد من أن يرفع كل الشكوك و عدم الثقة من جانب العالم الريفي القروي، التقليدي على العموم، بالنسبة للمدني المتعلم المثقف . كان رداء ولباس الرأس (الرأسية) قد أصبح بالتالي، علامة الانضمام و الانضواء تحت نفس المصير : مصير الأهلي المستعمر و ردة فعل من الأهلي المتطور المترقي إزاء عملية الاستعمار .

وهكذا، يتأكد قبيل المثوية ووطن جزائري مسلم ويتضح . لم يكن على الروائيين الكولونيين أن يتأكدوا منه بأنفسهم و أن يدركوه أو بالأحرى لم يكونوا يريدون أن يرضخوا لحكم الواقع، ماعدا بعض الاستثناءات .

¹ . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, 28 juin 1927.

² . C. Courtin : Café maure, 1939, p. 217, roman cité.

3/ تطور الإيدويولوجية الجزائرية 1927.

بعد أن كان قد دافع بصرامة و بقوة على امتيازات الأوروبيين المقيمين والمستقرين في الجزائر، راح لويس لكوك لا ينفك ولا يفصل عنهم فحسب بل أيضا يحكم عليهم و يدينهم، و يستنكر عملهم من غير لف ولا مواربة . كان عليه حينئذ الانشغال و الاهتمام أكثر بالأهلي، والتنديد باستغلاله من قبل الكولون الكبير . كان يطلب من عملية الاستعمار في مجملها، إقامة كعلاقة وكرابطة " علاقة الإنسانية، وعلاقة التقدم"⁽¹⁾.

كان لكوك يتخلى و يعدل، بالتالي، عن " الانصهار الروحي " . بالإضافة إلى ذلك، كان يوصي و ينصح بأن ترضى النخبة المسلمة، بمنحها المواطنة الفرنسية مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية . كان يجب أن تكون هذه المواطنة ممنوحة بالتدريج، معممة و موسعة بعد ذلك، إلى باقي المسلمين . إذن، كان وضوحه و صحوه يقوده إلى اقتراح حل، في 1927،⁽²⁾، سترفضه المستعمرة، و مختلف الحكومات الكولونiale بشدة حتى بعد الحرب العالمية الثانية⁽³⁾. كان حزب الشعب الجزائري (ح.ش.ج)، الحزب من أجل استقلال الجزائر (1923)، يكتب في جريدته الأمة ليوم 12 جانفي 1938، " إن هذا الحل كان عنصرا لتفكيك و تفتيت المجتمع الإسلامي ، وبما أنه كذلك، كان علينا ألا ندخر وسعا من أجل منع وكف الشعب المسلم المفرط الثقة في مثقفيه، من أن يكون صانعا لخسارته الخاصة و هلاكه و ضياعه .

¹ . L. Lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

² . Solution repoussée par la colonisation mais aussi par le P.P.A. (Parti du peuple algérien : pour l'indépendance), journal El-Ouma, du 12 janvier 1938.

³ . Le projet Blum violette devait échouer en 1939, vielle de la 2^e guerre mondiale.

أ/ عوامل هذا التطور والتقدم .

وهكذا فالنبرة و اللهجة المتبناة المفضلة في 1927، في كتابات المؤلف الفرنسي، لم تكن هي نفسها . كان يكتشف حينئذ عن القلق و الاضطرابات الناتجة عن تدخل العوامل الجديدة، في النزاع الكولونيالي . وراحت إيديولوجية لكوك، بالتالي، تتطور تبعا لنفس هذا النزاع .

ما هي هذه العوامل الجديدة إذن ؟ كان لكوك يرى أن الذهنية الخاصة للكولونيين الكبار، من جانب، وفشل سياسية الإعمار والإسكان، من جانب آخر، كانتا تجازفان بأن تجعل و تضع "السيطرة و السيادة الفرنسية في الجزائر في خطر" . بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يخاف و يخشى من "التأثير الشيوعي على الأهالي"، و قبل كل شيء من نمو تطور و انتشار و توسع الوطنية الجزائرية .

صعود الوطنية الجزائرية، و مخاطر " شبه الشيوعية "

كنا قد رأينا أن الكتاب الكولونيين كانوا يهتمون كثيرا بسياسة البلد فقد كانوا يريدون حتى التدخل في القرارات التي تتخذ فيما يخص تطور و ترقية المستعمرة . كان الروائيون الكولونياليون يلاحظون و يعاينون أن اتصالات كانت قد وقعت بين المنتخبين الأهالي و بين الشيوعيين . فهم قد اعتقدوا، إذن، خلافا لمجمل جماعتهم، في "الخطر الشيوعي" . لم يكن الأهالي يخفون الأفعال و الوقائع . كانوا يقبلون و يسلمون، كانوا يقولون، بالتحالف مع كل هؤلاء الذين، سيدافعون عن قضية المسلمين لكن على مستوى السياسة الأهلية فقط⁽¹⁾ . إلا أن لويس لكوك كان يقدم أسباب و علل تخوفه : "إن للأهلي شعورا وإحساسا حيا بالمساواة والعدالة، إذن، فإنكار الخطر الشيوعي في الجزائر، إنه ببساطة مجرد محاولة ووسوسة

¹ . M. Kaddache, op. cit., p. 75.

وتمحك سخيف " (1). إن الاحترام بالنسبة للأهلي كان يظهر و ينفذ من خلال كلامه وأقواله و مقاصده . كان الأمير خالد قد أقر و كشف أن المسلمين "هم اشتراكيون، و اجتماعيون بالفطرة و بالطبع لكنهم ليسوا متطرفين" (2).

بالإضافة إلى ذلك، كان لكوك يرضخ و يخضع لحكم الواقع، فالشعب الجزائري كان يتطور لكن في إطار شخصيته الخاصة : " لقد فات الأوان"، كان لكوك يكتب (ضمنا لتوجيه الترقية و التطور)، " من جراء خطأ بعض الإجراءات و التدابير لبعض الحكام العاميين" (3) . إن الإسلام كان قد ترسخ و أرسى قواعده بقوة، في المجتمع الأهلي . لماذا لم يصنع منه منذ ذلك الحين حليفا ؟ قد يمكن أن يكون أيضا حتى سورا و متراسا ضد الشيوعية.

إن الدين كان يصنع و يخلق وحدة المسلمين، وكان الكتاب الكولونياليون واعين جيدا بذلك. كانوا في 1927، يحاولون و يفتشون عن الاستمالة و التصالح مع الأهالي : " إن الإسلام الصحيح الحق الذي يوجد في الكتاب المقدس، هو شيء جيد في حد ذاته، فهو لا يجعل إطلاقا الحضور الفرنسي في الجزائر في خطر ". في الواقع، إنه " التعصب و التزمت الديني " هو الذي يجب أن يجارب . إنه هو الذي يكون كاجا و عائقا لتطوير و تنمية " ذهنية و عقلية مشتركة ". وهكذا كان لكوك يدرج و يظهر الفروق

¹ . Louis Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, 28 juin 1927.

² . l'Emir Khaled : petits fils de l'Emir abd-el-kader, comme nous l'avons vu, chef de file des jeunes algériens » dont le programme de revendications politiques en 1919-24 était identique à celui que suggérait Lecoq au gouvernement en 1927, Maurice violette était favorable à ce programme d'où surnom de violette l'arabe ».

³ . Gouverneur Jonnart et les lois de 1919. Cf. contexte historique.

الدقيقة و ينوع أفكاره الأولى. وكان فرديناند دوشين يقوم هو أيضا ضد المرابطة " في روايته *عند أقدام الجبال الخالدة* . كان يكتب حينذاك : " لو كان الشيخ، الرئيس الديني يشرح لكل الدواوير ما هي المبادئ الإسلامية الحسنة، فإن الجزائر الفرنسية قد يمكنها أن تصبح شيئا آخر غير كلمة " (1) . بالتالي، كان لويس لكوك، وروبيرت راندو، وجان بومي وألبيرت تريفيموس ينادون و يدعون إلى التسامح، والتغاضي أكثر، من الجانبين. " إن الجزائر ستكون واحدة، عندما تكتفي كل الأديان و تنحصر في ميدانها الديني المحض" (2) . كان جان بومي يأمل و يطمح إلى " أن المليون من الأوروبيين يرجعون ويستشيرون في إسهاماتهم ومشاركاتهم في الحياة الاجتماعية، إلى نموذج لائكي علماني ، جمهوري الأوسع إنسانية " (3). كان لكوك يترجم و يفسر نفس الرغبة في حكاياته *كل سائل يتبع الانحدار، والشيطان العدل الحق*، كان المؤلف الكولونيالي يتخوف و يتوجس من صعود الوطنية الإسلامية، في الجزائر. هذا سيحدد موقفه وموقعه إزاء الأوروبيين بصفة عامة والكولونيين بصفة خاصة .

الذهنية الخاصة " لفرنسيي الجزائر " و لا اختزالية الأهالي .

ما هو موقف و موقع هؤلاء الأوروبيين في 1927 ؟ كانت إشاعات تسري في المستعمرة، كنا قد رأينا، أن فيوليت راح يفرض التجنيس على بضعة الآلاف من الأهالي المتطورين المتقدمين و المتحضرين " غير أن التجنيس الأهلي الذي يجعل من هؤلاء مشابهين لهم، لم يكن الأوروبيون يريدون ذلك، و على العكس من ذلك، فإن هؤلاء الأوروبيين أنفسهم المستجوبين من قبل صحافي الكانديد (الساذج) في 1927، فيما يخص

1 . Ferdinand Duchêne : Au pieds des monts éternels, op. cit., p. 34.

2 . j. pomier : « Attitude devant l'islam », Afrique, février 1930.

3 . J. Pomier, ibid. : « Attitudes devant l'islam », article cité.

موضوع شبه الخطر الشيوعي ، كانوا يؤكدون، حسب رأي لكوك: "نحن لا نؤمن بالخطر الشيوعي، ما نعتقد، هو التناقض والعداء والتنافر بين الأجناس، والأديان، والذهنيات، والأخلاق والطبائع، إنه كامن خفي ومستتر رغم إرادتنا الحسنة، لكن يكفي القليل من الشيء أن يوقظه ويثيره، فإجراء وتدبير أحقق ... التجنيس⁽¹⁾. وهكذا، فالعنصر الكولونيالي لم يكن يرغب في أي تغيير . كانت الحجّة إذن، قد وجدت جاهزة تماما: "إن عملية التجنيس كانت إجراء أرعن و أحقق، يمكن أن يثير و يوقظ الخصومات و العداوات، والمعاكسات " لكن ما العمل في ذلك ؟، فالأوروبيون كانوا قد أظهروا " النية الحسنة بما يكفي"، حسب رأيهم . كان فرنسيو الجزائر، بالتالي، واعين جيدا، لاسيما أن المثوية كانت تقترب، وقد كان الاتفاق والانسجام و التصالح حيثئذ من أجل تمجيد و تبجيل " العمل الاستعماري" ومن أجل القيام بفعل التبرير و الدفاع و تقريظ " الكولون بالجد الكد والنصب ". كان هؤلاء الكولونياليون، يتناسون و يذهلون ويتشاغلون إذن " عن الذكريات الممجة الرائعة ". و كانوا يتجنبون و يتحاشون بنفس المناسبة، من أن ينشغلوا و يهتموا بالأحداث الأكثر بشاعة و قبحا و تقززا . كانت في هذا الانسجام والاتفاق و التناغم لجوقة المديح أصوات لويس لكوك، وألبيرت تريفيموس، ولوسيان فافر، وموريس فيوليت مخالفة غير مطابقة و ناشزة . وحتى في 1939، لم يكن الكتاب الكولونياليون أمثال شارل كورتان، وروبيرت راندو و جان بومي، يريدون أو يعترفون ويسلمون بالوطنية الجزائرية . كان شارل كورتان يقدم في روايته **مقهى المور**، الأطروحة المناقضة لأطروحة لكوك، يكتب جان بومي في المقدمة للتعليق على هذا الكتاب من قبل روبرت راندو: " لا نتخددعوا في ذلك، لقد انعقدت علاقات وروابط قوية هنا، منذ قرن بين الأجناس ولهذا

¹ . L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique, juin 1927 .

فعراك و صراع الطوائف و الأطراف و العصب لا يهدد قط سيطرتنا و سيادتنا : (1). كان على روبرت راندو المعلق هو أيضا على كتاب كورتان في 1940، أن يقول : "لم يكن قط قد ترك لحظة أرض الواقعية و كان له أهمية الوثيقة . إنه بإجمال لوحة صحيحة و حقيقية للجزائر المعاصرة" (2). ألم يكن روبرت راندو و جان بومي يدركان التطور و التقدم الذي كان يجري تحت أعينهما ؟ إن نقص و انعدام الرؤية و الوضوح، في 1940، لدى الروائيين الكولونيين، لا يمكن أن يفهم و يبرر، و يفسر إلا بفعل أنهم كانوا يتشبثون و يتمسكون بآمالهم : "لقد حلمت أن أرى تكون و تشكل على هذه الأرض الجزائرية شعب موحد بالمصلحة و الأخلاق و الفضائل ، و بالحب للقرىب المجاور و للإنسان ، كان يكتب راندو في 1934، من غير مراعاة و اعتبار للثياب و اللباس، و إلى اللغة، و إلى كيفية الصلاة للواحد الأحد" (3).

إذن سكون و طمأنينة المعمرين كانت تغيظ و تحنق لكوك "ماذا ينوي الشيطان أن يفعل بخمسة ملايين من السكان الأصليين ؟" (4). كان يسألهم . "أليس لديكم القصد و النية أن تفعلوا بهم ، في شمال إفريقيا، ما فعل الأمريكيون بالهنود؟ أتريدون أنكم لا تستطيعون ذلك يحدد بدقة؟"

¹ . Randau et J. Pomier : « La nouvelle Méditerranée dans la littérature », Afrique, janvier 1940.

² . Ibid. Ch. R. Ageron notait « La politique d'assimilation triomphante dans les années 1880 à 1895, démodée au début du XXe siècle, connu de nouveaux retours de faveur, notamment au temps du Front populaire et de la libération, de 1944 à 1946. La vieille chanson assimilationniste, peu à peu, transformée en berceuse apaisante dans le ronronnement du discours colonial reprenait parfois valeur concrète de chant révolutionnaire », France coloniale ou parti colonial ? Paris, presses universitaires de France, 1978, P. 199.

³ . Laurent Ropa : « Commentaire du roman les compagnons du jardin », Afrique, janvier 1954.

⁴ . L. Lecoq : article cité, Afrique, 28 juin 1927.

وهكذا كان مشكل الإعمار و الإسكان قد ظل أحد انشغالاته الأولى . إن هذا كان " الفشل الدريع والخيبة التامة، فالقرى الاستعمارية " كانت تحتقن و تكسد و تركد"، كان يرثي و يحزن على أنه لا يوجد هناك إلا "تسع مائة ألف أوروبي" في الجزائر، و "هذا بعد قرن من الاحتلال" وعلى بعد "ثمانين وعشرين ساعة من مرسيليا فقط". لمن الخطأ، كان يقول، إن لم يكن، مرة أخرى، إلى الإجراءات و التدابير الحكومية . "لم يكن لهذه أي أثر ومفعول آخر إلا إزعاج و تقزز الفرنسي أو الأوروبي من الهجرة والابتعاد". بالإضافة إلى ذلك، فهذه الحكومة نفسها كانت قد سمحت بتطور و توسع المزارع الكولونيالية الكبرى . كان الثلثان من الكولونيين الكبار، في الواقع، "أصحاب مداخيل و إيرادات مقيمين في فرنسا أو في الجزائر" (1). وعلى العكس من ذلك، فالأهالي "لم يكونوا قد تخلوا عن الخصام و المعركة . إنهم هنا على أرضهم و مسقط رأسهم، لقد سبق أن اتهموا نصف دزينة من المحتلين" (2). إن إيديولوجية لكوك طبعا في هذا المستوى، هي إيديولوجية السلطة المسيطرة المهيمنة القلقة المضطربة . كانت هذه السيطرة و الهيمنة "مهدة" ديموغرافيا . كان لكوك يحاول و يسعى من جهة أخرى، أن يزعزع و يهز و يحرك ثقة الأوبيين، عبثا، وأن يجعلهم واعين مدركين متبصرين بأنهم لم يكونوا "في أرض النعيم"، لكن "في أرض الحرب" . كان يذكرهم بأن الخصومة و المعركة قد بدئت بالأحرى منذ قرن (3).

1 .L. Lecoq, ibid., 28 juin 1927.

2 . ibid., « L'Algérie devant la France », Afrique, 28 juin 1927.

3 . Ibid., « L'Algérie devant la France », Afrique, 28 juin 1927.

ب / مظاهر هذا التطور .

كان لا بد من توجيه قرار " المتروبول " ، كان يوصيها و ينصحها ،
بالتالي ، بأن " تكسر و تحطم طوعا أو كرها الأملاك الزراعية الكبرى " كان
ينكب و يكرس نفسه حينئذ للتحليل الموضوعي لجماعته الخاصة .

التشهير والتنديد بالمستعمرة الكبرى .

سيكون إسهام لوكوك على مستوى تاريخ العلاقات الإنسانية إسهاما
معتبرا . ما هو إذن هذا المجتمع الأوروبي المقترح ، في 1924 ، كنموذج
للمجتمع الإسلامي ؟ " إنها جماعة شرسة ، جشعة ، طماعة ، ذات ذوق
و طعم و نزعة للكسب و الربح ، مغالية و مفرطة " ، كان لوكوك يندد ،
في الإفريقية ، في جوان 1927 ، وفي روايته شمس الصادرة في 1928 ،
أشخاص من غير مبادئ ، ومن غير عقيدة و مذهب محدد جدا ، مطالبين
بأن " الـ " ذلك سيدوم و يستمر بدوامنا ، كان الكولونياليون راضين معجبين
بأنفسهم " ، كان يحكي المؤلف الكولونيالي ، " معتقدين أنهم جديرين بشروتهم
من جراء تفوقهم " ، بالإضافة إلى ذلك ، كان هؤلاء الكولونياليون ، أيضا
كان يسجل ، أنهم كانوا يستعدون إلى الاحتفال بالثوية في جو من الخفة
و المرح و النشاط و الغبطة ، وهذا ما كان يقطع الأمل و يثبط الهمة . كان
الكاتب يحاول إذن لفت و جذب انتباههم إلى هشاشة وضعف المثوية " .
إنه توهم يمكن أن يؤبد العجز و النقص الفرنسي والإيرادات و المداخل
المكتسبة من قبل الكولونياليين الكبار " .

وهكذا ، كان لوكوك يهاجم و ينتقد المستعمرات الكبرى لأنه كان
يجعلها مسؤولة ، زيادة على فشل " تطور و تقدم الأهلي في إطار النموذج
الفرنسي " . كيف يمكن أن تحصل اتصالات بين الأوروبيين والأهالي إذا كانت
الأرياف والبوادي خالية مهجورة من الكولونياليين ؟ ليس هناك " إلا علاقة

مجهولة و مهملة بين رأس المال والأجير " . كان لكوك يغتاظ و يسخط و يغضب " ليس الأمر كذلك أن يكون المال هو الذي يستعمر وليس الإنسان⁽¹⁾. كان التاريخ على المستوى العلاقات الاجتماعية بين الجماعتين إذن سلبيا، حسب رأي لويس لكوك .

حقائق المجتمع الإسلامي والتخلي عن موضوع التحويل والاعتناق من أجل موضوع " الإنسانية والتقدم "

كان لكوك، إذن، ينصرف و يعدل عن أوروبيي الجزائر، ويتحدث عن " الآخر "، عن الأهلي . كان الروائي يتراجع حينئذ عن تصريحاته و إقراراته، السابقة . هل كان الأوروبي متفوقا و أرقى منزلة من الأهلي، كما كان يقدم في 1924؟ لم يكن هذا إلا خرافة، كان يعترف و يصرح، أن فرنسيي الجزائر لم يكونوا أعلى مقاما و أرقى منزلة من الأهلي . " أبعد من أن يكون تصريح جميل و متعطرس "، كان يسخر و يتهكم . كان هذا المطعن وهذا المأخذ يكمن في الواقع في أن هؤلاء الأوروبيين لا يفلحون أراضيهم أبدا إلا عن طريق التوكيل والتفويض : وكلاء مسيرين ويد عاملة أهلية وافرة من هياكل نحيفة مصفرة . كان الجزء الأكثر غناء و خصوبة والأكثر إنتاجا من الأراضي الجزائرية، قد أصبح اليوم أرضا رأسمالية وليست أرضا للزراعة والفلاحة⁽²⁾.

كان هذا خطابا مشتركا قليلا، في هذا الوقت بالضبط، كان يناقض و يعارض كل المستعمرة والحكومة الكولونيالية . كان لويس لكوك يعكف و ينكب بالتالي، على الظرف المادي للأهلي، الخاضعين، كان يؤكد، من خلال عددهم المهم لعرض الكولون . بالإضافة إلى ذلك، في الإجمال ،

¹ . L. Lecoq : Article cité, Afrique 28 juin 1927.

² . L. Lecoq : Afrique, article cité du 28 juin 1927.

كان هؤلاء الأهالي، قد دفعوا و طردوا و أبعدوا و دحروا من قبل الأوروبيين الذين كان لكوك وألبيرت تريفيموس ولوسيان فافر يؤاخذونهم ويعاتبونهم و يعنفونهم، أيضا على "الكسل الكبير للقلب". فقد كانوا يقترحون و يشيرون على المعمر أن يتجه و يذهب نحو الأهلي . و في الجملة كانوا يبشرون و ينصحون "بأخوة فرنسية إسلامية" داخل النظام الكولونيالي في 1930. إن هذا ما كان يرجوه و يتمناه آنذاك أغلب المثقفين، والمنتخبين والبورجوازية المسلمة، حسب التاريخ الرسمي .

كان لكوك ثاقب الفكر و حاد الذهن في وقت مبكر جدا، لأن لويس ماسينيون كان عليه أن يقوم بنفس الملاحظة، حوالي السنوات الأخيرة من وجود المستعمرة : "إن من بين الأسباب العميقة للأزمة والضائقة، الحالية للعملية الاستعمارية في شمال إفريقيا، الاحتكار و الاستيلاء الإجرامي على الأراضي الجيدة الخصبة من قبل الكولونيين الكبار المتغيين عن الأراضي، (المزارعين بالتوكيل) حيث الانخفاض والنقص الكبير لعدد الملاك الصغار من السكان الأصليين الملازم لخلق بروليتاريا فلاحية كادحة ومستأصلة يائسة ⁽¹⁾. كان لكوك يتنبأ و يتكهن بإفلاس العملية الاستعمارية إن لم يكن شيء من التغيير وذلك منذ 1927، "العبوا و رقتيكم الاثنتين : الاستيطان الكثيف الواسع و تجنيس النخبة . لا هذا من دون الآخر، وإلا يكون ما يشرع فيه تصفية قانونية ستنتهي بالإفلاس ⁽²⁾".

كان هذا، بالتالي، تحذيرا شديدا موجهها إلى الحكومة الكولونيالية، في حين أن أغلبية الكتاب الجزائريين كانوا لا يطرحون للبحث مجددا "نوعية الاستعمار" في الجزائر . وهكذا، كان بومي رئيسهم، يصرخ و يهتف "إن أسطورة الكولون نحاس الزناجة، بائع العبيد، والإداري الفظ الجلاد

¹ . Louis Massignon : Parole donnée 1962, op. cité, p. 139.

² . L. lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

والموظف المزجج ... إنها مصنونة و متعهدة، هنا وحتى في فرنسا من قبل رجال ذوي الطوية السيئة، الطموحين الطماعين الخائبي الظن" (1). غير أنهم كانوا يطالبون عموما " بالإرادة الحسنة" من الجانبين، وكانوا مثل لكوك يدعون إلى "سخاء و مروءة و أريحية اكثر" من طرف "فرنسيي الجزائر".

لم يكن الكاتبان المستقران والمقيمان في الجزائر، لكنهما، من "فرنسيي فرنسا"، ألبرت تريفيموس، مؤلف *نزل السرسو* (2)، الصادرة في 1930، ولوسيان فافر التي كان مؤلفها *المشرقي* 1930، كان قد صدر في نفس السنة، لم يكونا قد هيئا و جاملا الجماعة الأوروبية بتقديمهما كتبا نقدية بالنسبة إليها، في 1930، بالضبط. كان ألبرت تريفيموس يكتب "لقد كان الحشيش والكلأ قد جاءهم (الأوروبيون) في الجزمات مع الاعتقاد الراسخ بأنهم كانوا يستحقونه من جراء فضائلهم و شجاعتهم القديمة. كيف كان يمكنهم الشك و الظن في أنفسهم، عندما كانت صحافة الجزائر صدى الجزائر، البرقية السريعة (الدبيش) وكل الخطب الرسمية لعملاء العملات وللحكام العامين، أو للوزراء المكلفين بمأموريات كانوا يجدون و يفخمون و يتبجحون و يضخمون، في كل مناسبة، بطولتهم، و تغانيهم و تضحياتهم و وطنيتهم، وأعمالهم و مآثرهم و حضارتهم الراقية و النبيلة؟" (3). كان كلاهما الاثنان يؤكدان إذن شهادة لويس لكوك : حسب هذه الشهادات، نحن نعرف ونستنتج أن العنصرين الاثنين، الأوروبي والمسلم المتجاورين المتعاشرين في المستعمرة، كانا قليلا ما يتصلان فيما بينهما.

¹ . j. Pomier : « commentaire de l'article de pierre Mille », déjà cité, Afrique, mai 1924.

² . Jean Pomier : « Critique de l'Hôtel de Sersou de Truphémus A. », Afrique, Mars 1930 (ce livre, dit pomier, n'aurait pas dû paraître au centenaire).

³ . Albert Truphémus : L'Hôtel du Sersou, roman cité, p. 129.

وبالتالي فالمجتمع الإسلامي لا يمكن أن يكون معروفا معرفة جيدة هل سيكون ذلك أفضل إذا كانت أسطورة الكولون الصغير، " الرفيق والعشير المتسامح المتساهل مع الأهلي " (مستخلف الخرافة القديمة، " تفوق الأوروبي)، جاءت لتتحقق؟ ألم يجب أن يكون الكولون الصغير أيضا أداة للسيطرة وللهيمنة؟ بالنسبة للوقت الراهن فقد ظلت الجماعة الإسلامية عالما منغلقا على نفسه . كانت تحافظ على اعتقاد وإيمان، راسخ و ثابت، لا يتزعزع في المستقبل، لا يمكن أن تفسر مقاومتها لكل اختراق إيديولوجي أجنبي بطريقة أخرى . كان لويس لكوك يظهر، في الواقع، أن الظرف الكولونيالي كان هو الأصل في الاتحاد بين " الأهالي المتطورين المتقدمين المتحضرين و بين " الأهالي التقليديين " . وهكذا، كان لا يمكنه أن يترجم و يؤول ، في ماذا كان يساعد هذا و يظهر، لأنه لم يكن أبدا قد وضع النظام الاستعماري موضع الاتهام .

ربما يمكن أن تنبجس وتبرز عبر الروايات تميزات و تفردات دقيقة. وهذا ما سيسمح الفصل التالي بإيضاحه . وسيشتمل هذا الفصل على ثلاثة عناصر، سنحاول أن نحدد في أي نطاق تترجم الأعمال الأدبية نوعا من الحقيقة عن المجتمع الإسلامي، ومن " النظر " إن كان المسلمون قد رفضوا جملة الحضارة الغربية أو إن كان هناك اختيار داخل " هذه الحضارة الدخيلة " . ثم سندرس حقائق و وقائع المجتمع الكونيالي نفسه، حسب رأي، مختلف الكتاب وكذلك الخرافات و الأساطير التي تتدخل .

الفصل الرابع: تحليل الروايات

أ/ الجماعة المسلمة : الحقائق وتأويلاتها

كان لوكوك قد أكد، على امتداد كل نشاطه الأدبي لدى *المجلة الإفريقية* (1919 - 1931)، إرادة « استخدام الجزائر، إرثا فرنسيا ». وقد اتضح له ، منذ ذلك الحين، أن الرواية، هي الأداة الملائمة لبلوغ لأهداف المتوخاة . إذ أنه، كان يتعلق الأمر، كما قد سبق أن رأينا ذلك، « بتمثيل الجزائر أمام فرنسا»، كونه من أوروبيي الجزائر، وحسب تجربته : « فهو كان مؤهلا في ذلك، كان يقول، فهو كان يريد أن يبحث عن اكتشاف سر هذا البلد الذي هو مأساة الأجناس البشرية وقدر المقتلعتين المجتثين من جذورهم .⁽¹⁾

فعمله الأدبي يترجم إذن التزاما سياسيا في هذا الاتجاه الذي يطرح مشكل تعاميش الأوروبيين مع سكان أهليين صعب المراس معاندين . فهو يعكس الخصومات والتناقضات الناشئة عن الاستغلال الكولونيالي وعن الاختلاف في الأديان، و في الأخلاق والذهنيات، حتى ولو كانت هذه قد لطفت قليلا من خلال انتماء مختلف سكان الجزائر، إلى عالم البحر المتوسط. كان هذا الانتماء يتجلى تقريبا في كل روايات لويس لوكوك : *الحريق* 1921، *بروميتس والقبائلي* 1923، *خمسة في عينك* 1925، *شمس* 1928، *باسكولايت الجزائري* 1931. فهو يسعى جاهدا، إذن، في إبراز « التطور البطيء للأهالي في الاحتكاك بالأوروبيين ». إلا أنه، من أجل القيام بهذا، سيكون منقادا إلى استعمال أساليب متنوعة . فهو سيلجأ، في الوقت

¹ . L.lecoq : « Littérature impérialiste et l'algeranisme », Afrique juillet 1924

نفسه إلى صيغة متوارية مستترة، من الطوباوية وإلى شكل الشهادة لأن عمله، كونه من أدب المعركة، فهو خاصة من خاصيات تطور النزاع الكولونيالي، لا ننسى ذلك .

إن لويس لوكوك يرفع أولا وقبل كل شيء عن أطروحة « الانصهار الروحي » مع الأهالي، في مجرى سنواته الأولى من احترافه الأدبي . « كانت جزائريانياته لا تستطيع أن تقتنع بإسلام متأخر، كان يقول » ⁽¹⁾ . فعلا،

« فالمظهر المتوسطي للجزائر لا بد من أن يكون، حسبه هو، القيمة الاجتماعية الوحيدة للبلد، القيمة الوحيدة الخصبة للقوحة للمستقبل » ⁽²⁾ . ومن ثم، كان لابد من أن يولد « إنسان جديد » في الجزائر، و حتى نعيد نفس تعبير إيمي ديني، ⁽³⁾ « une Algerie-Far-da-se » جزائر ال..» التي يعرضها في رواياته . إذن، كان لابد من أن تكون المستعمرة « خلاصة تركيبية للأجناس والأقوام المتاخمة المتماسكة بأسمت الثقافة الفرنسية » . وسيكون هذا التصور للمستعمرة فيما بعد، في 1935، مرافعا عنه أيضا من قبل جبريال أوديزيو. ⁽⁴⁾ .

غير أن، لوكوك كان يرسم، من خلال أحد شخصيات روايته *الحريق*: المحافظ الإداري بيرنادوت، اللوحة التالية للمستعمرة في 1921، « كانت بشريتان مواجهتين، العالم الأوروبي والإسلام، فهو مجتمع مدني، مقاتل، ديني، في الوقت نفسه ، ليس شعبا، ولكنه طائفة . هذان النوعان من البشر

¹ .L. Lecoq : l'incendie, p.100.

² .L. Lelcoq : « commentaire de la penneriède la vie mediterraniéenne, article de Charles Ganiaux », déjà cité, Afrique, avril 1925.

³ . Aimé Dupuy : Op. cit

⁴ . G. Audisio : jenesse de la mediterrannée, 1935, op. cit,

يتعايشان، فهما نهاياتان لمبادئ مختلفة، منفصلتان، من جراء التناقضات التي تنمو متزايدة، والاختلافات والتفاوتات التي هي من الشدة أن تترد لمعقها، كان لا بد من طمس كل التاريخ السابق»⁽¹⁾. وبما أن المؤلف بصفته معمرًا «إدماجيا»، سنراه شيئًا فشيئًا من خلال الدراسة لرواياته، يسعى إذن إلى التدخل على مستوى «التاريخ الثقافي» للأهالي مقترحًا عليهم حضارته الخاصة، وهناك حيث تتخذ الأسطورة، و«البناءات الوهمية الخيالية» للبرهنة ولإقامة الدليل على مقولاته.

إلا أن تسميتي لوكوك «العالم الأوروبي» والإسلام، تقيمان وزنا أفضل للعلاقات البسيكولوجية التي يقيمها «سكان»⁽²⁾، المستعمرة بينهم. فعلا، فعبارة «العالم الأوروبي» تترجم الواقع أفضل، يعني تنوع العناصر الأوروبية، لكن أيضا الحضارة التقنية، غير أن الإسلام، فضلا عن ذلك لا يستحضر أكثر من دين، حسب المؤلف، حضارة «متحجرة»، لكنها حضارة تحافظ على شخصيتها. ألم تكن قد سمحت ببناء مجتمع؟ يعني ألم تكن قد منحت وحدة الروح والأخلاق إلى الأهالي؟ كان لوكوك، إذن، يقدم شهادة عن تأسيس جماعة اجتماعية مسلمة. ومن ثم، فإن آدابه ستستحضر لحظة من التاريخ الثقافي والفكري للجزائريين المسلمين.

كان على الروائي الكولونيالي أن يتخلى عن مبدأ الانصهار الروحي أمام التأكد من الإخفاقات المتكررة: «إن الإسلام لا ينجزل». فلو كوك يطمح حينئذ إلى «استعمار عادل، إنساني ومفيد للأهالي»، خارج عن كل فكرة تحويل واعتناق للمسيحية. لأن

¹ . L. Lecoq : L'incendie, p.101.

² . « Habitans », Eurpéens et indigènes réunis dans le cadre national.

الأوروبيين في الجزائر، يستخلص، لا يمكن أن يكونوا مقترحين كنموذج، أو ببساطة كشريك للمستعمَرين . فأخلاقهم وطبائعهم هي بعيدة عن أن يكون مرغوبا فيها. كانت هذه المعايينة، يجب أن يقال ذلك، قد قادته إلى أن يكون، منذ 1921، صورة «المعمر المثالي» من أجل استمالة الأهلي إلى « الروح الفرنسية» .

إذن فالروائي يقوم بالتنديد بأوروبيي المستعمرة، مع التقديم في نفس الوقت « للصورة الشخصية الأسطورية » لهؤلاء الأخيرين إلى المستعمر . وسيرى الجمهور الفرنسي للجزائر، ظهور روايات نقدية منهجية بالنسبة إليه . فعلا، فلو كوك يكشف المبالغة المفرطة في استغلال الأهالي من قبل المستعمرات الكبرى المتحالفة مع الإدارة، « هي طريقة تعرض عظمة الوطن الفرنسي للخطر، يقول»⁽¹⁾ . فهو يقوم، إذن ضد « انعدام الوعي، والكرامة، والإنسانية » لدى الأوروبيين في مجملهم، بالنسبة للمسلمين .

فهو يزعم أنه، من الآن فصاعدا « فرنسي من فرنسا»، مكتشفا الواقع الكولونيالي، فهو يعتزل و يتميز هكذا عن العالم الكولونيالي نفسه . وسنجد هذا النسق الأدبي في جزء كبير من كتاباته : مثل *الحريق* (1921)، *الشیطان العدل الحق، لون الأغاف (البهار) وقيام الموتى* (1928) . كان على راوول سطيفان، وهو، كاتب كولونيالي أن يقول فيما بعد في 1936، في موضوع لو كوك « لقد سر بالتلذذ المتوحش الذي كان يزوده به مشهد عالنا »⁽²⁾ . إذن، بدراسة الطائفة الأوروبية عن قرب تبعا لردود أفعالهم ولسلوكلهم تجاه الأهالي، فقد كان لو كوك شاهدا على عصره . وكذلك، في أي شيء، يبرز عمله هذا، في نفس الوقت، كونه تحليلا لوضعية تاريخية

¹ . Louis Lecoq : « L'algerie en France » Afrique, 28 juin 1927.

² . R. Stephan : conférence : Paris , avril 1936, déjà citée.

معاصرة، الضيم والكرب لجماعة مسلمة تبحث عن نفسها، ولشعب كان سجيناً، محتجزاً، في نظام، إن لم يتجاهله، فهو يريد أن يخنقه و يضيق الأنفاس عليه .

ماذا يمكن أن تكون إذن، العلاقات الأهلية - الأوروبية داخل المستعمرة؟ هل يمكن أن تكون هناك « تهيئة ممكنة » في جزائر 1930 ؟ هذا نعرفه، فهو له حقيقة مزدوجة : إسلامية وفرنسية .

1/ مظاهر تدهور المجتمع الأهلي : الشهادات من خلال الروايات كانت متعددة وكثيرة.

البؤس البيولوجي وملازمه البؤس المعنوي

كان لوكوك قد ترجم في كل قصصه ورواياته «الأهليانية»، الواقع الحقيقي لبؤس المستعمر الأهلي . بالفعل، كان هذا يتجلى من خلال تكاثر المتسولين . كان لوكوك يكتب في **الجنّتان**⁽¹⁾، « كان الدرويش يوزع الفئاض على الشيوخ المسنين، والعجزة وعلى المتسولين عابري السبيل »⁽²⁾ . كانت المصائب والآفات قد استوطنت و حطت رحالها وكثيرا ما كان المؤلف يلمح، إلى الظروف السيئة المادية للأهالي « كانت البعض من الموريسكيات المهتزات المتزعزعات يمررن، أجفانهن دامية حمرة . و قد استقر بالقرب من الدرويش ثلاثة متسولين : سعيد، الأعمى، الثاني كان لديه ثقب بمكان الشفاه والأنف في الوجه ، والثالث كان يزحف على ركبتيه »⁽³⁾ . كان التعاضد يقع في المجتمع الإسلامي، حتى ولو كان مستوى المعيشة منخفضا، يشرح لوكوك : « كان رجل

¹ . Le Dérouiche : 1Etre mystique un peut marabout.Il se substitue ici à l'élémen relligieux : Il organise les secours et la survie des indigènes les plus démunis.

² .Louis Lecoq : Les deux paradis, p.185.

³ . Ibid., p.185.

الرحمانية⁽¹⁾ سعيدا بعد أن كان قد استدر من أجل خزينة الجماعة من الصدقة من فقر هؤلاء الناس، مع أنهم كانوا أقل بؤسا منه⁽²⁾. و من ثم، فهو يسجل أن للأهلي شعورا حيا بالمساواة⁽³⁾. « كان الدرويش يتلقى الغذاء والقوت ، وكان لا يقطع ، يلاحظ، إلا جزءا طفيفا و زهيدا جدا من هذا الخليط، لنفسه ».

وهناك كذلك شهادة على وجود للفقر البيولوجي: جوع وأمراض في بعض الروايات للكتاب الكولونيين، لاسيما في الجزائر يانيات (1911) لروبيرت راندو، البحر لماكسيميليان هيلر (1923) المشرقي 1930، والقصة 1937، للوسيان فافر، نزل السرسو 1930، لألبيرت تريفيموس .

يصف لكوك، بكثير من الواقعية، جو المرح الذي يسود القصة في 1925، في روايته خمسة في عينك . هذه التي ستصبح، حسب ما يبدو من قول المؤلف، أكثر صغرا وضيقا كل يوم، لكذا من الناس الذين يتوافدون، ويتدفقون من دون انقطاع من داخل البلد للبحث عن وسيلة عيش أيا كانت، « كان الفلاحون الآتون من بلاد بعيدة، نائية، يتاجرون بالأواني صارخين »⁽⁴⁾. كان أهالي آخرون، مثل هوارى في كل سائل يتبع الانحدار من غير وظيفة قارة، يعتزمون، وينوون الهجرة في وقت مبكر إلى فرنسا . كانت هذه الأخيرة تمثل بالفعل، بالنسبة إليهم الأمل

¹ . Cf. Ouvrage cité, « Affrontemens culturels » de Y Turin, p.112. « Les biens habous et la misère de tolba, les zaouias ».

² . L. Lecoq : Les deux Paradis, p.185.

³ . L. Lecoq : Article cité, Afrique, 28 juin 1927.

⁴ . L. Lecoq : Cinq dans ton œil, p ;35.

في حياة أفضل : « كان هوارى يصيح، تحيا فرنسا، فهناك أفضل من هنا »⁽¹⁾ .
وتشير لوسيان فافر أيضا إلى هجرة نشطة إلى السواحل الفرنسية « كان الملاحون
المرسيليون والتولونيون، يرحلون في كل رحلة و سفرية ، دزينة كبيرة
من المنبوذين المرفوضين »⁽²⁾ .

كان البؤس والفقر الجماعي هو أيضا مصدر التشرد و التسكع . وكان
صغارأطفال الـ « ياولد» المهملون و المتخلى عنهم ، من دون أي ارتباط،
يجوبون الشوارع في شردمة « من عدد لا يحصى من الصبيان الأهلين
يواصلون صراخهم، وتدافعهم في هرج ومرج، يصف لوكوك بكثير
من الدقة، من خلال مهنة مساحي الأحذية أو عتالين ينجرون، متسكعين
خلال اليوم، هكذا، كأنهم ممشاط و مكد⁽³⁾ . كان القليل جدا من الروائيين
الكولوناليين قد طرحوا مشكل هذه الطفولة التعسة المتروكة لنفسها. إلا أنه
يجب الإشارة، إلى كاتي المستعمرة، من ذوي الأصول الفرنسية، والمغرمين،
المولعين بالعدل، ألبرت تريفيموس الذي كان قد كرس، رواية كاملة للدفاع
عن هؤلاء الأطفال، وعن الأولاد المتشردين، المتسكعين : إخوان الأسود الأدهم .
فهو يستحضر هؤلاء الشماعين، ماسحي الأحذية، الصغار هكذا « إنهم
مهاجمون من الخارج من كل القوى الشريرة المتحالفة ضدهم : البؤس ،
الإهمال، الهجر، الشك في المستقبل وعدم الاطمئنان إلى الغد، القلق من لا
مبالاة الكبار البالغين، عدوانية الطبيعة، كان أطفال الياولد يجسنون لعب ،
« الزقزقة و الصياح ». فهم يصنعون في مدننا الجزائرية صخبهم المرح
بمزقتهم، وبثرثرتهم المبقعة المبرقشة وبوجوههم المضحكة المرحة ونشاطهم

1 . Ibid., Tout liquide suit la pente, p. 145.

2 . Lucienne Favre : Orientale 1930, p. 66.

3 L. Lecoq : Cinq dans ton œil, p.35.

وحيويتهم التي تشبه حيوية قرد « الهبال ». كان من هؤلاء البؤساء رثيبي الثياب، من هؤلاء المتروكين لأنفسهم، المتخلى عنهم من الأرض والسماء، من هؤلاء التي تظل بطونهم جائعة خاوية على الدوام يرتفع بلا كلل ولا ملل الزفاف والقران ابتهاجا بفرحة الحياة . ها هي المعجزة الحقيقية «⁽¹⁾ . كانت لوسيان فافر، هي، تتحدث عن هؤلاء الأطفال بكثير من الحساسية والتأثر في مؤلف القصة (1937) : كانت تقول سجل الياولد، ضحية في إفريقيا الشمالية لمهرجي اليسار كما هو ضحية لمهرجي اليمين، يستحق بأن يكرس له، يوم آخر، مصنف تاريخي «⁽²⁾ . من جهة أخرى، فهؤلاء المشمعون، ماسحو الأحذية، الصغار و العتالون يكونون علاقة واقعية بين مدينة الأهالي ومدينة الأوروبيين، علاقة غير مرغوب فيها إطلاقا من جهة أخرى من قبل الأوروبيين، يوضح لوكوك وتريفيموس . وتصبح النساء الخادمت المياومات، مثل الياولد، شخصيات مألوفة في حكايات لوكوك ولوسيان فافر: فذهبية الصغيرة في بروميتش والقبائلي وفاطمة بوستة في خمسة في عينك تعملان لدى « الروامة ». إذ أن « هاتين الشخصيتين » الشماع، ماسح الأحذية الصغير، والمرأة الخادمة هما تماما من تكوين ومن مستحدثات النظام الكولونيالي نفسه . لا أحد من الكتاب كان عليه أن يعمل على المقارنة .

و من ثم ، فزعزعة واهتزاز المجتمع الإسلامي كان يتأكد و يكتشف من خلال كثرة الحرف الصغيرة . و يظهر لوكوك، أيضا، أن لا شيء يحقر و يذل الإنسان أكثر من الاحتلال الذي لم يكن له أي كرامة مثل استغلال

¹ . Albert Truphémus : Les Khouans du lion noir ; scènes de la vie de biskra, Alger, Soubrion, 1931, âge 86.

² . Lucienne Favre : La Casbah, p.74.

سذاجة الآخرين : « كان المتسول الشحاذ، وراء الصبي مستلما المبخرة، يتوقع كرم و سخاء لالة، إحدى المؤمنات »⁽¹⁾. بالإضافة إلى ذلك، فمدخل المسكن كان يسمح لهذا الرجل بالالتحاق بصناعته في الرقية والتعزيم « فهذه أكثر كسبا لمبعوث، ولساعي الأزواج المتقلين »⁽²⁾. إذن، فالبؤساء الأشقياء، كانوا يحافظون ويتعهدون « الانحطاط والتدهور الأخلاقي المعنوي » للأهالي . لقد أصبحت هذه وسيلة حياة أو بالأحرى وسيلة بقاء . وقد أصبحت الخادمة، أيضا، وسيطة قوادة بالضرورة : « أي نعمة، يكتب لوكوك، بالنسبة ليمة فرطاس، التي لم يكن لها عشرين فرنكا كاملة منذ سنوات، ألم يكن من العدل أن يحتفظ الوسيط بكل مغنم »⁽³⁾. إذن، كانت كل الفاقة تحافظ وتتغذى من بعضها البعض. كان التحطيم الاقتصادي البطيء للمستعمراً أهلي، يثير ويزيد من الازدراء والاحتقار للمعمر، و يبدو أنه يجسد المسافة التي تفصله عنه . وهكذا فالحاج مزيان، في بروميتش والقبائلي (1921) يعيش في قربي، وليس لديه أية وسيلة للعيش إلا الصيد (باليد) . سوف يصبح حتما « (لصا، سارقا)»، حسب رأي المؤلف، لأن جاره، بروميتش، الأوروبي، يملك، زورقا مجهزا بمحرك . ذلك سيتخذ مظهر استفزاز، بالنسبة للحاج مزيان . إذن فمجرد استعمال التقنية الأوروبية أمام عيني القبائلي تصبح بالنسبة إليه إشارة استفزاز. من خلال هذا التحليل لنفسية المسعمر الأهلي، كان لوكوك قد أدرك جيدا أن الأفول البطيء للحضارة الإسلامية في المستعمرة هو، النتيجة المأساوية المفجعة لاتصال بين مجتمعين ذوي تنمية و تطور تقني غير متكافئ . لكن

¹ . L. Lecoq Cinq dans ton œil, p.8.

² . L. Lecoq Cinq dans ton œil, p.10.

³ . L. Lecoq Cinq dans ton œil, p.57.

بصفته معمرًا هو نفسه، فهو يتمتع في مرحلة أولى أن يرى قانون عدم التوازن الكولونيالي . وهكذا فذهبية، بنت الحاج مزيان، « مع أنها متعلمة » تصبح هي نفسها لصة مفترضة : « كانت غريزة السرقة، يكتب المؤلف، متغلبة، على المبادئ العامة للصدق والاستقامة الملقنة في مدرسة الفرنسيين » (1) . إن سيرة الجاح مزيان، إذن، كان معبرًا عنها من قبل لوكوك، كنوع من التأسيس، يلاحظ كل ذاتية، من جهة أخرى . إلا أن فيوليت يذكر ويلفت الانتباه، إلى أن « فعل السرقة يكون تافها جدا بحجة و بداعي أي عرض من الأعراض من أجل السماح بإصدار الأحكام والإدانات جملة و كتجريد كتلة المجموع دفعة واحدة من الأهلية » (2) .

ثم إن، السمة، الخيالية الوهمية للكسل ، المنسوب إلى الأهالي على العموم من قبل الكولونيين، غالبا ما تكون منكشفة و بارزة في المؤلفات الكولونيالية . هذا الاتهام من طرف المعمرين يدعى أنه مستقل عن كل اعتبار اجتماعي / اقتصادي و تاريخي . وسيكون فقر و عوز الأهالي « مفسرا من خلال فراغه ، و من خلال قلة الذوق لديه للعمل والنشاط»: في الحكاية الجنتان، فالأهلي بلقاسم يحسد الدرويش المتسول : « ألا أكون مشابها لك، يقول له، ستكون الحياة حلوة و عذبة لي، سوف لن أكون في حاجة إلى العمل » (3) . وكتكشف في مقهى المور، لشارل كورتان نفس النظرية « كان الأهالي يعيشون بقناعة و بزهدي ليس عن ذوق، لكن عن كره و خوف من العمل » (4) .

1 . L. Lecoq Cinq dans ton œil, p.57.

2 . Viollette : L'algerie vivra-t-elle ? (1931), p.404.

3 . Louis Lecoq : Les deux Paradis, p. 201.

4 . C. Courtin : Café maure, op. cit ., p. 9.

فعلا، من أجل الاحتفاظ بالهيمنة و السيطرة الكولونيالية، كان من البديهي أن تكون هناك الحاجة لرسم صور « لأهالي سلبين كسالى » و « أوروبيين إيجابيين فعالين ». إن إيديولوجية لوكوك كانت، هنا، في خدمة عدة قضايا . فهو يمثل و يتقمص أولا، الكولون مثلما يتصوره، هو نفسه، أي الكولون الصغير، و من ثم، سيكون المدافع عن امتيازات الأوروبيين . فهو يبحث عن أن يقيم الدليل في الرواية باسكولايت الجزائري في 1931، على أن الأهلي ليس في حاجة ، وأن هذا كان في الواقع غير جدير بالرفاهية و لين العيش، وغير أهل للتقنية ، وإلى التقدم و التطور، وأن البؤس والشقاء، بالتالي، كان مألوفا لديه . يجب إذن ألا يجبر على الإخضاع للحضارة : « فهو قد قابل أهليا، أحد هؤلاء الفلاحين الذين يجوبون الطرق، يبحثون عن العمل، في المزارع، ليومين، أو ثلاثة أيام، ما يعيش، و يتقوت به أسبوعا »⁽¹⁾.

كان هذا التعليق للوكوك يلتقي مع تعليق امرأة الكولون الصغير باسكولايت: « أنت تعرفهم (هذه كانت تتوجه إلى زوجها) فهم لا يملكون الدراهم مسبقا أبدا أمامهم، لأنهم عندما يكونون قد عملوا أسبوعا، فهم يرتاحون الأسبوع الموالي»⁽²⁾. يجب ألا ينسى أنه، بالنسبة للوكوك، فالنظرة « إلى المعمر المثالي النموذجي » كانت هي الكولون الصغير والحل الذي يقترحه هو إقامة مستعمرات صغيرة . فهو يصف حينئذ الأهلي بفلاح « قاعد، مسند الظهر إلى جدع التينة ملفوف بمعطف أوروبي به من الثقوب أكثر من الرقع ... كان يستمع بعيون ماكرة مراوغة ، إلى الصياغة في الحال

¹ . L.Lecoq : Pascualette, op ; cit., p.175.

² . Ibid., p. 106.

عن المطالب عن عدم كفاية أجرته»⁽¹⁾ . إذ أن هذين الموقفين للعامل الفلاحي الزراعي المسلم كانا متناقضين . كانت تلك طريقة مقصودة، متعمدة من قبل المؤلف ليشرح البؤس من جهة، من خلال تكاسل و خمول الأهلي، ويبرر هكذا الأجر الزهيد الممنوح إلى هذا الأخير . وبناء عليه يلح لوكوك و يؤكد، عاملا على تقويل باسكولايت، البطل المختلق ، من كل قطعة : « إذن، أدفع لك لكي تلعب الورق»⁽²⁾ . ويريد لوكوك في هذا الجهد المستمر من أجل التبرير و الإثبات، لفظيا مكانة ومصير المستعمر الأهلي، في النهاية، التمسك و الحفاظ على النظام ومكانته الخاصة . وهو يستفيد و ينتهز الفرصة ، أيضا، من جروحية، و عطوية التقنية، في بروميتش و القبائلي ، مثلا، للأهلي . هذه القابلية للانجراح كانت هي النتيجة ليست فقط لنظام اقتصادي فحسب ولكن خاصة لسياسة مدبرة و مخطط لها، أصبح لوكوك هنا الداعية والمروج لها . وبالتالي، كان الأمر يتعلق، بالنسبة لهذا الأخير، أن يقيم الدليل على أن الأهلي هو الوجه الآخر الناقص غير التام للأوروبي مثل « الأرض الإفريقية التي سوف لن تكون أبدا شيئا تاما وكاملا في ذاتها»⁽³⁾ . من جهة أخرى، كان يشير إلى أن وضع الفلاح « يتعلق بطبيعة المستعمر نفسها، سغبة و متضورة جوعا ، و مشكلة من الغفلة و عدم التبصر كأقل مجهود من خلال خيانة و خداع إفريقيا » في حين أن « الرومي كان ينمي و يزيد في ثروته، وكان يشتري الأراضي المجاورة بسعر الرهن»⁽⁴⁾ . كان الأهلي هكذا محكوما عليه

¹ . L. Lecoq : Pascualette, p ; 115 . « Tronc de figuier » : Terme péjoratif utilisé souvent dans les romans de R. Randau Les Colons et Cassard le Berbère, por designer le colonisé .

² . L. Lecoq : Pascualette, p.106.

³ . L. Lecoq : Shorouq, p.212.

⁴ . L. Lecoq : Pascualette l'Algerien, p.43.

بالحرمان الدائم من حقه . يجب أن يتكبد ويتحمل « النكبة و المصيبة » التي قد ضغطت، وأثرت على كل العمال الزراعيين الفلاحين للبلد حيث قد تطورت الرأسمالية الصناعية، و تفاقمت هنا من خلال الاستغلال الكولونيالي .

« المسؤولون الحقيقيون » : هم أوروبيو الجزائر والإدارة الكولونيالية

لم يكن لوكوك دائما يدافع عن هذه الإيديولوجية وهذه المزاعم والادعاءات « عيوب و نقائص » الأهلي، و هذا ما يكون أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ . لأن الإيديولوجية الكولونيالية المنسجمة مع نفسها بالذات، كان عليها أن تحمل وتنقل إلى المطلق، العيوب والمساوي المفترضة « كسل و خمول و غفلة » الأهلي في مقابل « كفاءة ومهارة العمل » الأوروبي . كان لابد من أن تصبح هذه المساوي والعيوب نهائية قطعية . لكن لوكوك كان يندد بالكولونيين أولاً ثم بكل أوروبيي المستعمرة بعد ذلك، فهو يؤول كتعسفات و كإساءات أو أخطاء من جانبهم، قد تكون قابلة للإصلاح والترميم ، مع أن هذا كان العلة والمبرر في الوجود لنشاطه الأدبي الخاص . فهو يبدو بشكل متناقض، يلوم و يعاتب المعمرين عن سلوكهم، في بعض الروايات مثل الحريق (1921) الطابع (العلامة) 1928 ، الشيطان العدل الحق المستقيم (1928)، لون الأغاف (البهار) 1928 . إذ أن لوكوك هو نفسه، كان قد أظهر نفسه متعصبا، غير متسامح في خمسة في عينك (1925)، بروميتش والقبائلي (1923)، باسكولايت الجزائري (1931) . كان الروائي الكولونيالي مزدوج الغموض و الإبهام⁽¹⁾ .

¹ . Cete ambiguïté apparaitra au fur et à mesure.

وراح المؤلف أولاً وقبل كل شيء يكشف و يرفع الحجاب تماما عن عدم الاكتراث واللامبالاة الجسيمة للأوروبيين إزاء المستعمرين الأهالي . ليس هناك اعتبار و مراعاة للأهلي الذي لا يطلب منه إلا ذراعيه، يقول . وهكذا، بالنسبة للمعمر عموماً ، فالأهلي، إن لم يستخدم ، فهو في عداد الزخرفة و الزينة، لا يؤخذ بعين الاعتبار. مثلاً، في *باسكولايت*، كان لوكوك يلاحظ : جواشيم تأوه و تحسر، « إنه لم يكن شيئاً » ، « لم يكن هذا إلا أهلياً »⁽¹⁾ . كان يستعيد هذه الشهادة في *العلامة* : « بيب طمان أمه « جدي « في ثوبه الأصفر، العربي، مر، هامسا بنصف - صوت »⁽²⁾ . تصدر هذه اللامبالاة وعدم الاكتراث للأوروبيين عن ملاحظة حقيقية للمؤلف . إن عملية الاستعمار، فعلاً، تخرب و تدمر المستعمر الأهلي، بما أنها لا تستطيع دمج . كانت هذه أكثر تماسكا وانسجاما في السياق الاستعماري من موقف الكاتب نفسه.

كان غرض لوكوك السعي إلى إيقاظ الضمائر السياسية: إن لامبالاة و لا اكتراث الأوروبيين، لا يمكن إلا أن تكون « سلبية بالنسبة للمستعمرة »، لأن هؤلاء الأخيرين لم يفهموا ولم يدركوا حتى أن الأهلي يراقبهم ويلاحظهم . ونادراً ما كان هؤلاء الأوروبيون ينتزعن الإعجاب والاستحسان من المسلمين، على العكس من ذلك، فبن ململ، الموظف العربي، مع أنه « متطور، متحضر»، « لا يريد الاستعجال والسرعة في المشية

¹ . L. Lecoq : Pascualette, p. 218.

² . Bic : Terme péjoratif à l'encontre de l'indigène utilisé dans le conte « La Marque », Paris, Reider, 1928, p. 111. « Bic, tronc de figuier, bouteille cachetée de rouge », sont les termes péjoratifs utilisés par les Européens dans les divers romans des écrivains coloniaux.

كمهراج أوروبي»⁽¹⁾ . وهكذا، فالمواجهة بين الأهلي والأوروبي كانت تستمر دائما، لا شك في ذلك، بدا قول المؤلف .

وكون لوكوك، معمر أيضا، لا يمكن أن يذهب بعيدا، في محاولته الاختيارية المقصودة في كسر وتحطيم المجتمع الكولونيالي كما يقدم نفسه آنذاك أو استدراجه ودفعه إلى التغيير. فهو سيستدعي شخصية، متموقة بالأحرى خارج المعتزك، والمناخ المشبوب والمتقد العاطفة لجزائر تلك الفترة. سيكون هذا فرنسي من فرنسا أو بالأحرى المحافظ الإداري المساعد فيرون، القادم منذ قليل من باريس، الذي ستكون لديه نظرة أخرى عن العالم الكولونيالي. وسيقارن هذا ويشبه في *الحريق*، المستعمر الأهلي إلى « قن حقيقي سغب، متضور جوعا»، « فالأهلي كان وضعيا، حقيرا، كان يلاحظ فيرون (بالتالي لوكوك)، بلون الأرض، وجه نحيل من الحمى، بارز من الأصواف الأملجة المصفرة، المرقعة ترقيعا عجيبا . فهو قد أعطاه فلسين، رافة به »⁽²⁾ . إذ أن هذه الرافة نادرا ما كانت تحرك أوروبيي المستعمرة . يترجم لوكوك ذلك جيدا في رواياته من خلال غياب حتى هذا الإحساس لدى أكبر قسم من شخصياته . غير أن المؤلف المصدوم، يبدو أنه، يتوقف، عند ذلك، لأنه يوضح بدقة أن « فيرون كان الوحيد، الذي ليس في مقدوره أن يدافع عن نفسه من المعاناة والتألم من جراء هذا الشعور بالشفقة، عند رؤية فلاح منهك، مرهق بطريقة لا تصدق وأسود منهمك من جراء مكافحة النار»⁽³⁾ . يريد لوكوك أيضا أن يبرهن في هذه الرواية، *الحريق*، عن الرفض الممنهج للطائفة المبعجة، ذات الامتياز، في مساعدة الأهلي على الدخول إلى حياة لائقة أكثر . إذ أن، الأوروبي الكولونيالي،

¹ . L.cinq dans ton œil.p.9

² .L.Lecoq ; L incendie.p .115.

³ . Ibid . p .115.

ألا يتمسك بامتيازاته، تماما بقدر تمسكه بمجده وفخره با « الخزي التحقير » حتى من هذا الأهلي ؟ ويطمح لوكوك إلى التوفيق والتصالح بين الشئئين : الغنم و الامتياز للمعمرين والإسعاف و المساعدة للمستعمرين الأهالي . و هنا يكمن التناقض الذي يغلق الكاتب على نفسه فيه .

غير أن للوكوك هنا نبرات شديدة «مضادة - للعملية الاستعمارية» (1) يبدو، لأنه، في رواية أخرى « الشيطان العدل الحق »، يتهم الكولونيين بنزع الحيازة من محمد آكلي، قطعة أرض صغيرة كانت له في بلاد القبائل . هناك أيضا، إنه دورونيت، فرنسي من فرنسا « شيطان العدل الحق »، الذي سيكون المدافع عن آكلي . هذا، الأمي « الذي لا يمكنه إلا أن يظل مقعيا، المؤخرة على الأعقاب، اليدان متدللتان، خليق بأن يبقى ساعات كاملة في الاجترار الغامض المبهم» (2) . فهو فلاح أب عن جد ، يبدو آكلي أنه مصمم، على أن لا يفقد الملكية الوحيدة التي يتمسك بها : الأرض . درونيت هو الوحيد الذي يعكف على مصيره : يحرر عرائض محمد آكلي ويشير عليه بالإجراءات التي يتبعها .

إذ أن، لوكوك، يشير إلى أن الأهلي سوف لن ينال الرضى، لأنه ضحية جشع و شراهة عملية الاستعمار المحمية في ذلك من قبل الإدارة . هؤلاء الذين هم من المفروض أن يدعموا الأهلي : يعني الشرفاء، إن لم يحتفظوا، بصمت آثم، فهم متواطئون ضالعون مع الطائفة الأكثر قوة و نفاذا لأنهم ينتظرون منها جيلا ومعروفا خاصا . يتبنى تريفيموس، في نزل السرسو، نفس النظام، كان المدرس الفرنسي ماتى متقززا ومشمئزا من جراء المشهد

¹ . Il est « anticolonialiste » sans etre anticolonial ; cf , explication donee dans l article cité de . Y . Turin , Revue Histoire moderne et contemporaine, «littérature engagée et anticolonialisme en Algerie du centenaire», novembre _ decembre 1976.

² . L . Lecoq : Le demon du bon droit . p . 62.

المقدم من قبل الكولونيين « كان قد أصابه توعك وانحراف مزاج الآن بمشاركته في الضيافة»⁽¹⁾ . يلاحظ نفس اتخاذ الموقف للويس بيرتراند في *أفريكا*، ضد تعسف وتجاوز الإدارة الأهلية هذه المرة، فيبرتراند يرفض « المشوي التقليدي» . فهو يشرح تصرفه هكذا : « سأكون غاضبا ومستاء أن أقدم لمضيفي القايد حجة وذريعة لابتزاز عشيرته»⁽²⁾ . كان فيرديناند دوشين أكثر صراحة و وضوحا « إن كل قايد ينصب يجب أن يتلقى الهدية، فالفقراء يدفعون، يقول، ما يقدمه الأغنياء : المنزل، والضيافة»⁽³⁾ . ويقدم الحاكم العام موريس فيوليت شهادة لصالح الأشراف المسلمين . فهو يبين ويسجل الحالة التالية : أن « طباخا أهليا و ضابطا مرافقا في نفس الوقت، قد منح قطعة من أراضي البلدية مشتملة على بئر من قبل المحافظ الإداري المساعد ليكافئه عن كونه مصاحبا له في جولته . إن تخصيص هذه الأرض مع البئر كان قد حرم جماعة من الماء الضروري لحاجياتها . وقد اعترضت الجماعة والقايد على ذلك، والنتيجة أن خمسة وثلاثين أهليا يفكرون مليا في سجن عين البيضاء، في العواقب والأضرار التي يمكن أن تنجر عن مقاومة الظلم والجور، يستخلص فيوليت»⁽⁴⁾ .

ويمكن، من ثم، أن يستخلص، بفضل بعض الشهادات: شهادات لوكوك، وألبيرت تريفيموس ولوسيان فافر، بالنسبة لفترة المثوية، وتلك الشهادات المسجلة من قبل إيفون تورين بالنسبة لفترة « 1830 —

¹ . A . Truphemus : L hotel du sersou , p . 224(Diffa ; Mechoui de regueur offert par par l administration indigene).

² . L . Bertrand : Africa .p. 74.

³ . F. Duchene : Au pied des monts eternels , roman cié p. 52..

⁴ . M. Violellete :op,LAlgerie vivra-t-elle ? p .108.

(1888) «⁽¹⁾، أن الوضعية المادية للأهالي لم تكن تزداد إلا تفاقما و سوءا منذ بداية عملية الاستعمار. كانت هذه الشهادات نادرة و شاذة في ذاتها، لأنهم قليلون هؤلاء هم الذين يأخذون الدفاع عن المسلمين في المستعمرة . إن مؤلفيهم لا تنقصهم و لا يعدمون « الشجاعة الأدبية »، في هذا الاتجاه ، فهم لا يخافون و لا يخشون أن يجلبوا إلى أنفسهم « الدعاية السيئة والعار » لذوي « الامتيازات الغربيين » . لم يكن ذلك يغيب عن ماكسيميليان هيلر في البحر الأحمر فيما يتعلق بموقف محامي يهودي للمستعمرة « كان هذا انتحار أن يأخذ الدفاع عن أهلي »⁽²⁾.

و بالتالي، فالاستغلال ونزع الملكية من الأهالي، واللامبالاة وعدم الاكتراث وانعدام «السخاء و المروءة للمعمرين تفسر جزئيا التقهقر والتدهور المادي و المعنوي للمجتمع المغلوب والمسيطر عليه، لكن ذلك لا يكفي لتوضيح كل شيء . لأنه ليست أكثر من الأسباب والمسوغات، فالعلاجات ليست اقتصادية، إنها سياسية.

إنه من أجل ذلك أيضا فإن سلوك و تصرف لوكوك لا ينفك أن يكون غامضا مبهما . كان هذا في نفس الوقت هو صورة للكولون الصغير جواشيم في باسكولايت الجزائر (1931)، وتلك الصورة التي « لفرنسيي فرنسا» فيرون في الحريق (1921)، ودرونيت، في الشيطان العدل الحق (1928) . غير أن المعمر جواشيم سينتهي بأن يتعالى ويستعيد التفوق . إنه رد الفعل المنطقي الوحيد، في السياق الكولونيالي .

¹ . Yvonne Turin : signalait «l appauvrissement constant de la societe Algerienne depuis 1830 jusqu en 1880 » comme Affrontements culturels. Op. cit , p . 417.

² . Maximilienne Hiller : La mer rouge , Paris , B , Grasset . 1923. P. 277.

2/ المقاومة الروحية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي .

إن كل المشاكل الخطيرة، الملامسة عبر الروايات من قبل لوكوك، تترجم وتجدد، بالتأكيد، الوضعية الحرجة لبعض العناصر من المجتمع الإسلامي : الخرافة، البؤس والشقاء المعنوي، المغرّى به والمتسبب فيه، كما أقام المؤلف نفسه عليه الدليل، عن طريق البؤس البيولوجي، المعزوّ والملازم هو نفسه للوضعية الاستعمارية . فعلا، فالكل يترايط ويتشابك . لكن هم المؤلف، في تذكرها والتصدي لها، فلتتذكر ذلك، ليس إعادة طرح اتهام النظام الكولونيالي، فهو ليس أكثر من أي كاتب كولونيالي، من جهة أخرى، فقد كان الأكثر إنسانية .

كان لوكوك، كما قد رأينا، قد وصف بنوع من الفظاظة والخشونة المؤلمة سلوك الأوروبيين . كان هؤلاء، هم مسؤولون، جزئيا، عن هذه الوضعية . لكن طبيعة الأهالي نفسها كانت لا تساعدهم « على التطور »، و« على التقدم » يؤول . فعلا، لماذا يلقي هو جزءا من المسؤولية على الذهنية الأهلية ؟ كملاحظ جيد، لقد أدرك و فهم الاضطراب الأساسي الذي كان يحدث في الجماعة الأهلية غداة الحرب العالمية الأولى . إن جزءا من هذه الجماعة، نعرفه، كان ينظم نفسه للنهوض بالمعنويات والروحيات لأعضائه، إنها المعركة آنذاك « ضد الخرافة، وضد الخمر والكحول، ومن أجل المدرسة، والطب، والإسلام الحقيقي الصحيح »⁽¹⁾

إذن، فلو كوك يخاف و يفزع من الدرب الذي كان قد دلف واندفع فيه تطور الأهالي . فهو يظهر مخاوفه وهلعته ، منذ (1921)، في حكايته، *الحريق* . « كانت المتربول، كان يكتب، آنذاك، تغامر بنفسها و تحاطر

¹ . Keddache : op , cit . p . 291.

بإصلاحات عديمة الفائدة أو نحسة مشؤومة، فهي تمنح حقوق انتخابية إلى رعاياها، لكن ألا تعزز أيضا الإطار لمجتمعهم الخاص، وتشجع في معارضة حتمية مشؤومة وقريبة قادمة، وحدة الإسلام»⁽¹⁾. فهو يتمنى أن يحدث تطورا أهالي، لكن في الإطار الفرنسي. كانت عملية الاستعمار متصورة مفهومة في شكل «التأثيرات الثقافية» كان يطالب بها الجزائريانيون، يجب ألا تضع الرؤية تلك. كان المؤلف يوسع ويطور نظريته في الرواية الصادرة في (1925)، *خمسة في عينك*. فهو «كان يأمل وينتظر من أن تفكك الكتلة الإسلامية وتنحل أو على الأقل كانت تتقلص أو تنكمش تحت حامض العقلانية، الأوروبية»⁽²⁾، كان يشرح صديقه لوسيان بيلاز في (1925) كذلك.

إذن فلوكوك، بارتكازه على «(les pseudo_ tares)» شبه العاهات والنقائص للأهالي»، كان يقوم باستعارة خطة تكتيكية «لريح المعركة مع الإسلام». إذ أننا، فلنقل ذلك سريعا، إن الكاتب الكولونيالي سيفشل ويخفق في «مسعاه الإيديولوجي» وهذه الخيبة نفسها سوف لن تساعد على إثارة الصدمة، وردة الفعل المحسومة لدى الأوروبيين. بل على العكس من ذلك، فإخفاق وفشل لوكوك سيكون بالنسبة لهؤلاء الأخيرين، «صمام الأمن» لمرحهم وغبطتهم الهادئة». فالمؤلف يزودهم، إذن، لاشعوريا، بالحجج والبراهين التي سيلجأون إليها لتأجيل «كل حل» لصالح الأهالي وإلا التخفيض والتقليل من الحظوظ. لأنه ليس هناك أي شك، فالأوروبيون لا يريدون أي تطور سيجعل تفوقهم الراجح في خطر.

¹ Luis Lecoq : «L Algerie en France», Afrique, juin 1927.

² Lucien Pelaz : «Le prix de la littérature d Algerie : cinq dans ton œil», Afrique, novembre 1925.

خصائص أخلاق الأهالي : تعدد الزوجات (الضرات) ومحافظة المرأة المسلمة

وهكذا، يبرر ويفسر و يفهم أن حقيقة، تعدد الزوجات (الضرات) في المجتمع الإسلامي، هي السمة المسجلة الملاحظة من قبل المؤلفين في السياق الجنسي الشهبواني، جاهلين تماما الأسس و المسوغات العميقة الاقتصادية والاجتماعية التي تؤسس له . كان لكوك بعيدا عن أن يكون الكاتب الكولونيالي الوحيد، الذي قام بالتسجيل والكشف عن خصائص الأخلاق الأهلية، لكن يلاحظ أنه، بالنسبة إلى روائيين آخرين مثل فرديناند دوشين مثلا، فلو كوك يحاول « مع كل ذلك أن يفهم » . فهو سوف لا يستطيع أن يمتنع و يتوقف عن التأويل والترجمة صراحة . فهو يحكي في خمسة في عينك، أن سرير بن ململ، موظف الإدارة الفرنسية، كان قد تزوج بامرأتين : لكن سوء التفاهم السائد، بين هاتين المرأتين الأخيرتين، جعله ينوي أن يتزوج الثالثة « سأزوج المرأة الثالثة من أجل راحتي »⁽¹⁾ . كان الروائي يتكلم على لسان الحاج مزيان في بروميتش والقبائلي هكذا : « آه، لو كان لديه الدراهم همه الأول هو أن يتزوج امرأة ثالثة، لو كان لديه الدراهم أيضا، سيكون مهتما بعيش أسرته »⁽²⁾ . إذن فالحاج مزيان نادرا ما يكون نافعا و مثيرا للاهتمام لأنه « مزال خشنا، فظا »، يقول لوكوك . بخلاف، بلململ، فهو، يضمن عيش امرأته وجاريتيهما، وموته سيتركهن مجردات « كل الأربعة يتباكين، يكتب، يتوحدن من قبل المصيبة، السيد، المعلم، من سيوفر لهن رغد العيش، أمنهن في عالم مجهول ؟ »⁽³⁾ . لكن في هذا المجال، فلو كوك لا يمكنه أن يذهب أبعد من المظاهر . يبدو أن بلململ لديه تعاطف واثتناس . فسلوكه ليس مرذولا مذموما مثل سلوك الحاج

¹ . L .Lecoq : Cinq dans ton œil , op , cit . p. 178.

² . L . Lecoq : Broumitche et le Kabyle, op ; cit . p. 30 .

³ . L : Lecoq : Cinq dans ton œil , p 195 .

مزيان لمجرد سبب بسيط هو أن بن ململ يتطور شيئا فشيئا حسب المؤلف :
 ليس هو من خلال وظيفته في الاتصال مع الأوروبيين ؟

وبالمقابل، فذهنية، نساء الأهالي تكون، هنا بالضبط، إعاقة وعقبة في التغيير . فهن لهن جميعن، يلاحظ عدد من الكتاب الأوروبيين، ردود أفعال محافظة . فهن خرافيات وتقليديات . فلله عيشة، الزوجة الأولى لابن ململ، تؤمن بالخط السيء : « لا تمزح، كانت تقول لزوجها، العفريت قد دخل هنا»⁽¹⁾ . المرأة الثانية ميمي بن حسان، هي، ترى العالم مليء بالفخاخ وبالمكاييد : « كانت تخاف و ترتعب من أن تنقض وتحالف، مهما كانت هذه العادات، فهي ترفض الخروج من المنزل، ماعدا بالنسبة للزيارة المكرسة لحمام المور، وإلى المقبرة »⁽²⁾ . إذن، هذه المرأة الشابة الصغيرة المسلمة، ظلت بالنسبة للوكوك، منغلقة، منطوية على نفسها متحرزة بحنق وبيغيط . وتكون هذه المقاومة لتأثيرات العالم الأوروبي مكبحا وفرملة لكل « تطور» للعالم النسوي أولا وللخلفية العائلية بعد ذلك . وقد قدم أوكتاف دييون هذه الملاحظة عن الجزائر المتويزة : « كل جهود التقارب، والانصهار، التي يمكن جدا أن تحدث، ستتعرض للخطر بالضعف وبالتضاؤل، وإلا بالانكسار وبالتحطم عند أقدام هذه المرأة الخادمة المحافظة الأمينة والتي يتعذر اختزائها من المنزل ومن الأسرة، ومن تقاليدها، وباختصار، من الحفاظ، على الجنس»⁽³⁾ .

في روايات لوكوك، لا يتعلق الأمر على الإطلاق، بالمرأة السفلى ذات المرتبة الدنيا أو التي هي في وضع نصف عبودية بالنسبة للرجل، كما في الرواية على الخطى الوئيدة المتناقلة للقوافل لفرديناند دوشين . إن المرأة

¹ . L . Lecoq : Ibid , p. 13.

² . L . Lecoq : Cinq dans ton œil, p. 81 .

³ . Octave Depont :Dans l Algerie du , Centenaire , op , cit , p. 46 .

المسلمة، تختار، هنا، بالأ تخلق عن تقاليدنا . ومن ثم، فهي على العموم، معادية « للحضارة المستوردة الدخيلة » من أجل استرجاع نفس التعابير التي تستعملها لوسيان فافر في المشرقي 1930،⁽¹⁾ . إن حال ذهبية، التي تتزوج بأوروبي من الجزائر، هي فريدة في عمل لوكوك . هذه تكشف نوعاً من الواقع أي أن الزواج المختلط نادر التواتر في الجزائر. غير أن، حكم الكاتب الكولونيالي عن المسلمين كان متنوعاً : فميمي بن حسان تفكر في الزنا، لكنها كانت مصنونة محمية بأسلوب حياتها، ولوكوك يكتب : « إن نساء الإسلام ليس لهن قط، من أجل القيام بالدسائس والمؤامرات، وقت الفراغ المتسع الحر الذي للأوروبيات »⁽²⁾ . يلاحظ أيضاً هذا التأمل الشخصي للمؤلف، بمناسبة وفاة بن ململ، فيما يتعلق بعبادات وطقوس الأهالي : « إن الدفن بالنسبة لهم، كان شاقاً ومعجلاً به، علامة تعلق أو تقدير، خدمة تؤدي للمتوفى مكاتفة »⁽³⁾ . كانت المفارقة قارعة و صافعة عندما يصف دفن زوجة أحد الكولونيين . تكون المفاجأة حينئذ بانعدام الانفعال و التأثير لدى هذا الكولون وبرودة و لا مبالاة الحضور⁽⁴⁾ . إنه تقدير واقعي ينقله لوكوك عن المسلم أحياناً، وفي ظروف معينة .

وسيتجلى هذا، مرة أخرى أيضاً حينما يتصدى لكوك لمشكل من مشاكل الساعة الحالية : مشكل الكحول و الخمر . إذن، فقد كانت بعض من أخلاق الأهالي أفضل من تلك الأخلاق التي كانت لأوروبيي المستعمرة، يلاحظ الروائي . كانت إيديولوجيته، بالتالي معقدة متشعبة .

¹ . Nous reprenons les termes de Lucienne Favre qui arrive à la même conclusion dans son roman Oriental 1930.

² . Luis Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 56.

³ . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 206.

⁴ . Il s'agit du personnage Mauvoisin dans Couleur d'agave (1928). Nous y reviendrons lorsque nous aborderons : Les réalités de la société européenne .

النهضة الروحية والنهضة الأخلاقية

يحاول لوكوك حينئذ إنشاء «علاقات خيالية مختلفة»، تلك العلاقات التي كان يتمنى رؤيتها تنعقد بين الطائفتين، لكن انطلاقاً من فرضية دائماً أن: «الحضارة الغربية أرقى وأكثر تفوقاً من الحضارة الأهلية». «هذه الكائنات الفظة الخشنة، كان يقول، في الحريق، الناعسون المسترخون في غفلة وفتور الإسلام، كانوا سيعثرون و سيستردون في استيقاظهم نفس العبقرية التي صنعت مجد وعز إسلافهم القدامى، كانوا سيمنحون لوطنهم الفرنسي، ما كانوا قد أعطوه إلى إمبراطورية روما»⁽¹⁾.

إذن، فالمؤلف الكولونيالي يقترح دينه الخاص. «ليس لنا الحق، يكتب، أن نياس ونقطع الأمل من تطوره الممكن نحو النموذج الإنساني للأعراق الغربية، فالقضية، قضية المنهجية، والوقت، والقوة الأدبية المعنوية»⁽²⁾. ومن ثم، فلوكوك، بما أنه معمر، يزعم ويدعي أنه «ممدن و محضر»، يقترح سلم قيمه الخاصة. فهو يجعل، حينئذ، في حكايته، «الجنّتان»، عملية الاستعمار في السياق الديني، في مواجهة بين الإسلام والمسيحية.

وسيجد الدرويش يوسي الكتاني، نفسه حتماً، في سرد لوكوك، من خلال نفس الظرف الكولونيالي، في مواجهة الأب الأبيض، أو بالأحرى معالجا من قبله في مصحته. وذلك يكفي بأن تنفجر وتندلع «مأساة الأفكار، وأن تنافر و صدام الأجناس المرموز إلى كل واحد منها من خلال مثله الأعلى: الدين، كان قد حدث»، يعلق المؤلف. وسيبذل لوكوك منذ ذلك الوقت، جهداً في أن يظهر، مرة أخرى، أن اعتقادات الأهالي كانت مجالاً وموضوعاً متمماً ومكملاً «حيث تتراكم التأخرات والتخلفات

¹ . L . Lecoq : L incendie , p . 108.

² . L . Lecoq : L Algérie en France » , Juin 1927 . Afrique .

و تتكسد». إذ أننا، نحن سنرى ما الذي سيمثل ويقدم من الإسلام، « الجانب والوجه، الأكثر تمييزا و تشخيصا»، أي المرابطية . فهو نفسه يوضح بدقة « كان هذا الدرويش لا يعرف القراءة، لكن ذاكرته الإسلامية الخارقة المذهلة المتمرسه بهذا التمرين عن طريق الوراثة، كانت تحفظ كلمة بكلمة صلوات لا تحصى وتقريبا دعوات مماثلة و متجانسة . كان أبوه الكتاني مبارك، قد نقل له وورثه الشعائر والأوراد، وكذلك البركة، وتفويض التقديس و المباركة، قبسة صغيرة من الروح الربانية، إرث الأسر المرابطية »⁽¹⁾ . كان ذلك، إذن، أميا جاهلا، يلوك و يجتر لجام الثقافة الشفوية حتى وإن لم يكن يفهمها . ويختار لوكوك الحثالة المستهجنة كمرجع، ذلك حتى ولو كان هذا يؤبد و يديم الجهل و الأمية، والتعصب في الوسط الأهلي .

وسوف تدخل الممارسات المرابطية بشكل متناقض في الخصام، والانتهاج من قبل المعمر، نفسه . « إن هذا الدرويش كان يستغل سذاجة النساء العاقرات»⁽²⁾ . إنه كان موهوبا، متحليا برجولة وبفحولة قوية، تشتد وتزداد بالذات بالصرع، كان يحكي لوكوك . « إن الأهالي كانوا يحترمونه و يوقرونه أكثر، بعد أن ييكونقد تجاوز الحد في أعينهم، كانت هذه الحال تكشف و تفشي الحضور المؤثر للرب »⁽³⁾ . كان المؤلف يلاحظ، إذن، أن هذا المتصوف الزاهد كان محترما وموقرا من قبل الأهالي، الذين كان له عليهم تأثير كبير . ومن ثم كان ذلك نفسه، حسب لوكوك، الذي يجب أن يسحق و يحطم . يقوم الكاتب بملاحظة مؤسسة ثابتة . صحيح أن الحضارة الإسلامية كانت قد مرضت كثيرا و تأذت تماما بعد التدمير

¹ .L : Lecoq : Les deux Paradis , p . 186.

² . L . Lecoq : Les deux Paradis , p . 184.

³ . Ibid , p . 188.

الكولونيالي . تنقل المؤرخة يفون تورين عن مقدم وهران، في مواجهات ثقافية (1830 – 1880) « لقد نهينا أملاك المساجد والمدارس و الزوايا، لقد أخذنا المدارس من أجل تحويلها إلى محلات و مخازن، وثكنات، واصطبلات، و مرابط للخيل»⁽¹⁾ . إنه ليس على الإطلاق أقل صدقا أيضا، بأن الحضارة الإسلامية « تبعث من جديد »⁽²⁾ . إذن فلكوك، الواصف عينة منتكسة و متخلفة من المجتمع الأهلي، ألا يزعم و يدعي أنه يقدم فكرة صحيحة حقيقية عن مجموع إسلامي ؟ إذ أن، هذا الرأي المسبق المنحاز غير الملائم و المختزل للإسلام هو بالذات الأصل في كثير من سوء التفاهم في المستعمرة، في الوقت الذي يكتب فيه لوكوك ذلك . على أية حال، فلكوك، في حكايته، يلتزم بعزم و تصميم بخدمة قضية محددة : هي تحويل المستعمرة الأهلي، لأنه، حسب المؤلف، فالأهلي كان يستطيع الولوج إلى « الروحانية » بوجه آخر . وهكذا فمعاناة و تقرير القبطان ريشارد حوالي (1850)، المذكورة من قبل يفون تورين، تبدو دائما من الأحداث الحالية : « إنه من الغريب أن نسجل، أنه لدينا، رغم الذهول والاستغراب الظاهر أمام التصرف و السلوك، فإن الذهنية الكتابية التوراتية لم تحتف تماما »⁽³⁾ . وهكذا، على أمل أن يصل إلى غاياته، يلجأ لوكوك إلى « إسلام ساخر هزئي »، وإلى عادات و تقاليد و قيم تجاوزها الزمن كثيرا .

وحسب هذا الأخير، فالدرويش كان يعظ، ويوصي بالتأمل و بالتفكير السعيد التقي، طريق الكسل و الخمول، الركود في الجملة : « لماذا نتاجر، ونزرع و نبذر، نرعى القطيع، فالسعادة الدنيوية، لا تكسب قط من الاهتمام بالكسب

¹ . Cf . Y . Turin : Affrontements culturels , op.p. 119 .

² . M . Keddache : Op . cit , p. 291 . Voir aussi contexte historique.

³ . Cf . Y . Turin : Ouvrage cité . Constatations du Capitaine Richard cité par l auteur dans l affrontements culturels » , p. 141.

و بالربح والسعادة العلوية معرضة للخطر و المجازفة»⁽¹⁾ . وسيجري لوكوك كذلك على لسان بلقاسم، أهلي آخر : « يجب ألا أفعل إلا الأشياء الشريفة النبيلة: أتعارك وأقاتل، وأقوم بالمغامرات للغنم والسلب ومشاهدة الخماس وهو يعمل »⁽²⁾ . وهكذا، كان المسلمون ينسبون إلى « مجتمع متأخر متخلف » . إنه الكليشه و الكلام الكولونيالي المعاد للتنبؤ و التكهن .

ثم يمر لوكوك و يتتقل إلى رسم الشخصيتين للأباء البيض : « لقد كانا قد خيما و حط الرحال في هذا البلد الأهلي من أجل استمالة المسلمين المعالجين في غرف مصحاتهم و عياداتهم و كسب اعتقادهم في الدين المسيحي »⁽³⁾ . هل كانا قد حولوا و غيرا كثيرا منهم ؟ كانت الإجابة الآتية : « كانا نادرا ما يتتصران، و يغتتمان، منذ السنوات الطويلة التي كانا قد منحاهما إلى مهمة مستحيلة، إخلاصهما و تفانيهما، جدوة تعلقهما و اعتقادهما العنيد المتصلب »⁽⁴⁾ . تؤكد مارث كلوزيار، روائية كولونiale أخرى، ذلك في الحكاية، البيكو(التيس) « كان للقساوسة الكهنة و المبشرين، قليل من النجاح و التوفيق في شمال إفريقيا »⁽⁵⁾ . إلا أن لوكوك يشير، إلى أن البؤس هو الذي كان في الواقع، المعين و المساعد الثمين للأب الأبيض . فعلا، فبلقاسم كان يبرر « اعتناقه و تحوله » هكذا : « أيها الدرويش، تعال عند النصارى (الروامي)، فهناك لا يعرف الفقر و الجوع »⁽⁶⁾ .

لقد راح الإخفاق و الفشل في مسعى التحويل و التنصير يجعل انعدام الفهم و عدم الإدراك أكثر جسامة و تفاقما أيضا، بين رجال الدين . وسيكون

1 . L . Leco86.q : Les deux Paradis , p . 186.

2 . Ibid , p.

3 . Ibid , p. 208 .

4 . Ibid , 211 .

5 . Marthe Cleuziere : « Un Bicot » , p . 56 . Anthologie des conteurs africains , 1925 , déjà cetée .

6 . L . Lecoq : Les deux Paradis , p .257 .

تفسير و تأويل هذا الإخفاق من قبل الأب الأبيض مغرضاً و ذا نزعة مبيتة : « بسبب الإجبار و الالتزام بأن يكون عفيفاً طاهراً. الطهارة الرهبانية ؟ كان هذا الجنس لا يتصورها و لا يدركها قط »⁽¹⁾. كان من الملاحظ أن التأويل في رواية مقهى المور لشارل كورتان، يتحول و يتبدل، إنهم الأهالي هم، الذين يرثون، حيثئذ، لغياب الحشمة و الحياء لدى المسيحيين النصارى⁽²⁾.

أما يوسي، الدرويش، في حكاية « الجتتان »، فالحكم الذي كان يصدره عن المسيحيين بصفة عامة والأب الأبيض على الخصوص، قلما يكون بأفضل: « ها أناذا في سلطة و نفوذ الخصي، يفكر ويتأمل، الشيوخ النصارى (الروامى) الذين كانوا يعيشون في هذا البلد قبل ظهور الوحي »⁽³⁾. كان بلقاسم، هو نفسه « المفترض - مرتداً، معتقاً للمسيحية » متظاهراً، يقول، لوكوك، لأنه، في الواقع، كان لا يمكنه أن يمتنع عن أن يحتقر و يزدري البابوات⁽⁴⁾. فعلاً، ألم يكن يصرح « أن المصير الأسوأ بالنسبة إليه، هو أن يكون مشابهاً إلى البابا فوق، غاسلاً الصحون و ماسحاً الطاولات، تماماً، شبيهاً بامرأة عجوز لأنه كان قد أضع رجولته »⁽⁵⁾. بالتالي، كان لوكوك، قد استدرج إلى التحقق أن الاختلاف والتباين في الدين، وفي الأخلاق، و عداوة يوسي بالنسبة لهذا « الرومي ما قبل الوحي » (الرومان إذن : الرمزللاستعمار السابق)، لا يمكن إلا أن تبعد الأهالي عن الأوروبيين⁽⁶⁾.

¹ . Ibid , p. 208 .

² .C . Courtin :Café Maure , op . cit , p. 25.

³ . L . Lecoq : Les deux Paradis , op . cit , p. 252 .

⁴ . Baba : père en arabe.

⁵ . L . Lecoq Les deux Paradis , p. 218 .

⁶ . Cf . Ideologie de Lecoq : « Aucune pouce dans la fusion n a été gagné depuis cent ans » dit _ il en juin 1927 , dans L Algerie en France »

قد يكون، من المستنير أن يكون رأي جزائرياني آخر عن هذا الموضوع بالضبط، و بالنظر إلى ذلك : جان بومي . يكتب هذا في فيفري (1930)، فيما يتعلق بالتحول و اعتناق الرسام نصر الدين (إيتيان) دينيت للإسلام: « إن هذا كان مع أفضل الأصدقاء الجزائريين (مسلمون ضمنا)، كنت قد عرفت كرب و جزع المعركة التي لا يمكن أن توصل و تفضي، بينهم وبيني أنا، إلا إلى انتصار أو استسلام ، لكن واحسرتاه أبدا من مشبوه و متهم، من معاملة ومصالحة من خلال التضحية المتبادلة المشتركة، من تناضح وتأثير متبادل للروح (الفكر) »⁽¹⁾ .

كان لوكوك يظهر، إذن، الرجال من خلال الدين مسخرين، متجابهين وملتحمين على أرض الجزائر، لأن الارتباب و عدم الثقة، كان قد حل و استقر من الجانبين : « كان البابا يكرر القول مرارا مجترا الكلام عن تظلماته، و شكواه ، وقد رفع الدرويش ويخصص عقليا، ذهنيا، صلاته و دعاءه ضد تلك الصلاة التي يصلحها الرومي »⁽²⁾ . من ثم، فالأوروبي الذي كانت سيطرته مهددة ديموغرافيا يريد أن يستميل ويكسب الأهلي إلى روحانيته، إذ أن هذا كان مهيمنا عليه، ومستبدا به من الخوف الغامض المبهم الذي لم يفتته المجتمع⁽³⁾ . ومع أن لوكوك لم يقطع الأمل فسوف يحضر ويعد الصورة الشخصية للخصمين الغريمين، وهما صورتان شخصيتان أسطورتان .

كان الأب الأبيض الممثل الروحي للمعمرين الحامل لقيم الحضارة الغربية معتدا بنفسه، وبالتالي، متقلدا مهمة من أصول و مصادر فوق بشرية

¹ . J . pomier : « Attitude devant l Islam , celle d etienne Dinet » , Afrique , fevrier 1930.

² . L . Lecoq : Les deux Paradis , p. 209 .

³ . Cf . contexte historique : C est l époque de la lutte des « elus indigenes » pour l octroi de la citoyenté avec maintien du statu personnel . Refus du governemen colonial « il faut abandonner le statut personnel».

و مرسل من العناية الإلهية »⁽¹⁾ . حسب لوكوك : كان عليه أن ينير « ظلمات و دياجير روح المسلم » و « روح يوسي، يحكي المؤلف، تضطرب لأن هذا الرومي يقول الحق ويساعده فجأة على الرؤية بجلاء وبوضوح »⁽²⁾ كان الكاتب، إذن، يجري وراء طوباوية . كانت الصورة الشخصية المحطمة المنحطة مقبولة من قبل الدرويش، ذلك الذي كان يظهر أكثر تعذرا في تحطيمه و اختزاله، « لم يكن البابا أبدا، يكتب لوكوك، قد اعتقد أنه يستطيع أن يحصل من هذا الدرويش، المنور الملهم ما كان يحصل عليه من الآخرين »⁽³⁾ . هل كان هذا الانتصار ؟ هل كان يوسي الكتاني، سينتقل، من مخادع و مختل لنفسه، إلى مخدوع ؟ إذ أن يوسي قد توقف، في تدرجه نحو « المثل الأعلى » للمعمر (هذا الذي للكوك بالتالي) لأن « يوسي، المتجمد من الهلع و الرعب كان قد رأى صليبا لماعا، صليبا شبيها بذلك الصليب الذي يثبته الآباء على منازلهم، في تحدي، مواجهها للسماء ولأرض الإسلام، يحلل لوكوك، الصليب اللعين وليس هلال المخلصين الصادقين »⁽⁴⁾ . وقد فهم يوسي جيدا أن الصليب الظاهر في نفس الوقت مع الاستعمار، هو رمز، إذن، لدين الغالب المنتصر، ويصبح هو التذكير الأبدي لشرط حضوره . إذ أن، الدرويش لا يمكن له إلا أن يحقد، و يسخط على كل من يذله و يهينه . ثم إن، يوسي قد اقتنع أن « بلقاسم كان ضحية اختطاف و سلب بجيلة و خديعة الاعتراف والإقرار بالمؤمنين الحقيقيين »⁽⁵⁾ . فهو يحدد بدقة و يفصح عن فكرته ويؤكد اعتقاده بالإسلام « إن النور الذي كان يشرق في اتجاه المدينة المباركة المقدسة، ألم يكن من شدة كونه صافيا ناصعا، يتفق مع التفكير في أن الآخر كان يفشي

¹ . Y . Turin elle_ meme le Capitaine Richard , op .cit , p . 141 .

² . L . Lecoq :Les deux Paradis , p. 208 .

³ . Ibid , p. 208 .

⁴ . Ibid : p. 234 .

⁵ . Ibid , p. 260 .

الكذب وينشر الخداع، ويدعو إلى طريق الضلال و الانحراف «⁽¹⁾ . يؤكد هذا التفكير المعزوم، من قبل لوكوك، إلى الدرويش تحليل الرئيس القديم لمكتب أورليانفيل ريشارد، المذكور من قبل يفون تورين، في **مواجهات ثقافية** (1830 _ 1880) : « إن الشعب العربي يعتقد نفسه الأكثر تفضيلا عند الله، فهو يملك وحده الدين الحق، كل الآخرين فهم ملاحدة كفار »⁽²⁾ . كانت هذه الملاحظة قد قدمت ضمنا من قبل عدة روائيين كولونيين . فقد نسب فرديناند دوشين هذه الأقوال، إلى المسلمة بيجة، في **الخطى البطيئة للقوافل** الصادرة في 1931: « حتى في البلد المأهول بالمسيحيين، تقول، بيجة، فإنه الإسلام فهو في ملكه »⁽³⁾ . و يسجل أيضا في نفس هذه الرواية وكذلك في **المشرقي 1930** للوسيان فافر، اللفظة « كافر »⁽⁴⁾ المستعملة غالبا من قبل الأهالي للإشارة إلى « المسيحيين » .

إلا أن، إيفون تورين تقوم بتوضيح، لأنها تحدد بدقة : « لا يجب الاعتقاد أن فكرة التفضيل عند الله تكون أجنبية و غريبة تماما على الفرنسيين أنفسهم »⁽⁵⁾ . فعلا، بالنسبة للكوك، من خلال البابا، « إن اللجنة المسيحية قد تكون الملجأ الأمين المقترح على يوسي مقابل التخلي عن طريقه في الآلام و العذاب الذي كان يمثله الإسلام »⁽⁶⁾ . وهكذا، يبدو أنه لا الأوروبي، الذي كان حسب الكاتب يقدم و يعرض بإصرار و إلحاح، نموذج و مثله الأعلى، ولا المسلم الذي كان يدافع عما لديه بحصر و بغم، لم يكونا قد تغيرا و تبذلا أبدا .

¹ . Ibid , p. 236

² .Y. Turin , op , cit , Affrontements culturels, p. 141.

³ . F. Duchéne : Au pas lent des caravanes.Paris .A. Mechel , p. 172 .

⁴ .L. Favre : Orientale 1930 , p.92.

⁵ . Y. Turin , Op , cit , p. 141 .

⁶ .L. Lecoq : Les deux Paradis , p. 225 .

ألم يكن لكوك، إذن، في تصلبه و عناده، حتى، يكتب : « كانت الحاضرة والمدينة الفرنسية منبوذة مستهجنة، ومرفوضة ومحل جاهز من أجل إقامة المسلم » وكان يصل إلى الطريق المسدود . « كان قد فات الأوان»، كان يستخلص . كان الإسلام قويا ابتداء من الآن فصاعدا. يضيف : « ينسحب البابا منصرفا مثبط الهمة، موهن العزم من جراء هذا المخلوق المجدد المحنط لا يعرف في أي تفكير لا يخنزل»⁽¹⁾ . ليس هناك، بالتالي، لا انتصار، ولا استسلام : فقد استدارممثلا الجماعتين ظهرهما لبعضهما وتعاملا باحتقار، لم يستطيعا التواصل « من جراء سوء الإرادة المتبادلة » حسب الكتاب المذكورين و المستشهد بهم. غير أن لو كوك لم يتخل عن مبدئه في الإدماج لهذا: ما جعل شارل كورتان يقول في الغابة التي أكلت الرجل، كان معمرا أقل تمزقا و اضطرابا من لكوك « سقط المتاع، بقايا الإنسانية، الإدماج، أحلام اليقظة وأوهام الأدباء المتخلفين، على الكرة الأرضية في عصر النفعية»⁽²⁾ . لقد كان شارل كورتان مع الوضع الراهن، يقول ذلك بوضوح . على العكس من ذلك، يستبسل لكوك ويفتش عن الإحاطة و تفادي « الصعوبة » . كان الأهالي يرفضون التحول والارتداد عن دينهم « في الجزائر كما في كافة إفريقيا الشمالية، ، فوق ذلك» . وسيجد الكتاب الكولونياليون حججا و براهين أخرى، وسيظهر روبرت راندو، وجان بومي ولويس لكوك في الحكاية كل سائل يتبع الانحدار، الصادرة في 1925، اللاحقة، إذن، بالحكاية الجنتان)، و يبرزون أن الروابط و العلاقات بين الأهالي - الأوروبيين هي علاقات ممكنة في عالم لائكي علماني : « كان على الأديان أن تكتفي و تقتصر على ميدانها الخاص بها، ميدان القلب والأسرة ولا تظهر في العلاقات اليومية للمدينة

¹ .Ibid , Les deux Paradis ,p. 225 .

² . C. Courtin : La brousse qui mangea l homme , Paris ,Ed , de France , 1929, p.122.

الحاضرة من أجل الفصل و التمييز بين الرجال ذوي النية الحسنة الصادقة»⁽¹⁾. ولا يتخلى هؤلاء الكتاب ولا يعدلون، طبعاً، عن الإدماج للمستعمر الأهلي، بعد تبني و تكيف مع حضارة المعمر. غير أن لكوك أيضاً، يبقى هنا، على وجه الخصوص، مبهماً غامضاً، لأنه، رغم التوكيد المتكرر لحسن أخلاقه، ومؤسساته، وتفوقه الثقافي والتقني، فهو يرفع على أساس الاعتراف بالجريمة، في قرارة نفسه: «إن المجتمع الأهلي يفسد و يتلف، يلاحظ، بالاتصال ببعض الأوروبيين للمستعمرة». و يكون مثال الأخلاق بعيداً عن أن يكون صحياً سليماً، فالكحول يحتل مكانة كبيرة في حياتهم. ويسجل الروائي و يبرز هذه السمة في أغلب رواياته. فهو يصف و يصور معاً الحصر و الجزع المتفاقم للأهالي والمعركة لجزء من هؤلاء الأهالي الذين كانوا و اعين بهذه الآفة.

إذن كان لكوك، في كتابته، كل سائل يجري في الانحدار، يترجم و يؤول بقوة هذا المناخ الأخلاقي وكان يعرض و يندد بالكحول والخمرة «آفة و رذيلة الغربيين» حسب رأيه. «فالهواري لم يعد بربرياً همجياً بين الفاتحين، كان يقول، لكنه أصبح جسماً ضخماً معقداً، يشوّه سم الغربيين، و يمسخه، بإشارات و حركات غير ملائمة، يتكلم لغة أخرى غير لغة أسلافه القانعين المتحفظين، يرتدي ثياباً رثة كان حتى عامل السكة الحديدية الأوروبية لا يقبلها»⁽²⁾.

ونعثر على هذا الشعور بالذنب، من جهة أخرى، لدى بعض الكتاب الكولونيين لهذا العهد، لدى شارل كورتان، الحائز على «الجائزة الكبرى للآداب الجزائرية» في 1930، عن روايته: الغابة التي أكلت الرجل، التي

¹ . Cf. ideologie , J . Pomier , Article cité .

² . L . Lecoq : Tout liquide suit la pente , Paris , Monde Moderne , 1925 , p. 155.

كان يشير فيها إلى أن « الكحول و الخمر هو رذيلة، وآفة مجلوبة من أوروبا»⁽¹⁾ . وتلح لوسيان فابر في المشرقي 1900،⁽²⁾ وألبيرت تريفيموس في نزل السرسو (1930)⁽³⁾ و يصران، أيضا على ذلك . يطور لوكوك و يوسع مسهبا في الحديث عن هذا المشكل في (1921)، في الحريق . فهو يسجل أن المنتخبين الأوروبيين، هم أنفسهم، راحوا يواجهون هذه الرذيلة الآفة، لأسباب شخصية وأنانية ذاتية بما في الكلمة من معنى .

« إن مشروب الأنيسون كان ممنوعا و محظورا بتعليمات إدارة الشرطة، الملاحقة والمطاردة لدى البائعين بالتجزئة من قبل إدارة المصلحة العامة ونظام الجباية، رغم السعي الساخط والحاتق للنواب المتدبين للبلد الذين كانوا يشعرون بإعادة انتخابهم معرضة للخطر من قبل هذه المتابعة »، يحكي المؤلف⁽⁴⁾ . ذلك لا يمنع « البستاني من أن يقصف في القبو زجاجة كونياك فارغة بالقرب منه »⁽⁵⁾، و لا غياردان من أن يكون « في جريعته الثالثة »⁽⁶⁾، ولا الهواري بطل الحكاية، كل سائل يجري يتبع الانحدار، من أن يسكر ويثمل . هذا « يظهر احتقارا و ازدراء من اعتقادات وعادات شاذة وغريبة حقا بالنسبة لمسلم »، يسجل لكوك الملاحظ الصادق بإحكام وبدقة . فعلا، كان الهواري يتحدى الخوني ورفيقه في العمل، لحسن، ملوحا و رافعا قارورة كحول خلال رمضان، أثناء الصيام مشاهدا من قبل كل المسلمين عموما : « ليقوم بإهانتهم أفضل أمام أنفسهم، فجأة، صامين من الذهول»⁽⁷⁾ . يجعل الروائي الكولونيالي نفسه هنا الشاهد على قوة

1 . Charle Courtin : L brousse qui mangea l homme , p . 2.

2 . Lucien Favre : Orientale 1930 ; roman cité .

3 . Albert Truphémus : Hotel du Sersou , 1930, roman cité .

4 . L . lecoq : Tout liquide suit la pente , p . 144 .

5 . L . Lecoq : Couleur d agave , p . 167.

6 . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 167 .

7 . L . Lecoq : Tout liquide suit la pente , p . 142 .

الإسلام في المستعمرة . تظهر هذه وتتجلى حتى من خلال تميز وخصوصية موقف الهواري، و من خلال ردود الأفعال التي يثيرها هذا الموقف في الجماعة الأهلية. غير أن الهواري، غير واع بكل ذلك . فهو يشرح « أنا، قد عملت بفرنسا أثناء الحرب»⁽¹⁾ . إن هذا لم يكن تبريرا مقبولا بالنسبة للمسلمين . إن عدم احترام المبادئ الدينية كان قد شعر به كشتيمة و كإهانة . فعلا، فردود الأفعال للعمال المسلمين لا تعدم أن تكون عنيفة، بالنسبة للهواري، يلاحظ لوكوك . إنه « مارق مرتد، كافر ...» بالنسبة للجميع . وهكذا كان قد اختلق أعداء، لأن، المؤلف يضيف، « قد يكون أيضا الأهلي الآخر يتدخل و ينضم إلى المعركة، القاصفة، حانقا، بعد أن يكون قد علم، بمروره بالقرب من مقلع الحجارة، إن الأعور (المشبوه) كان قد ذهل وشرب في وضوح الشمس في وقت رمضان »⁽²⁾ .

معارضة التقليديين والدينيين (رجال الدين) للاستعمار

يوجد تحليل معركة الأهالي من أجل التمسك و الحفاظ على العادات وقوة التقاليد، أيضا (1925)، في *عند أقدم الجبال الخالدة* لفرديناند دوشين وفي *انسحاب سيدي احمد* لراوول سطيفان⁽³⁾ . كان هذان العمالان الأدبيان قد صدرا في نفس الوقت الذي ظهر فيه كل سائل يتبع الانحدار (يجري إلى الأسفل) . يمكن التحقق، إذن، من أن الرواية كل سائل يتبع *الانحدار* تهز و ترج من توترات و ضغط الأحداث الحالية : ويكتشف لوكوك شيئا فشيئا الانشغالات التي أصبحت يومية للمستعمرين الأهالي . فعلا، فالمسلمون يظهرون تخوفاتهم وخشيتهم أمام الفساد الأخلاقي لبعضهم،

¹ . Ibid , p . 142 .

107. Ibid , 139 .

³ . Raoul Stefan : La reraite de Didi emmamed, Paris , Monde Moderne , 1925 ,

من جراء الاتصال ببعض الأوروبيين. لكن هذه الانشغالات، يقول المؤلف، كانت مصونة و متعهدة أيضا من قبل شخصية الخوني . فهذا كان عنصرا خطيرا حسب رأي العديد من الكتاب، لأن هذا الخوني، سيجسد هنا في *الجنتان*، و في *كل سائل يجري مع الانحدار*، و يمثل مقاومة المسلمين للاستعمار في مجمله . فعلا، فهذا، ألا يعظ و ينصح باتحاد الأهالي حول الإسلام، وبالتالي، اتحاد الأخلاق و العادات. وفضلا عن ذلك ، فهو يهدد كذلك : « أيا كان يخرق و ينقض قواعد الإيمان سيكون معاقبا و مقتصا منه » . سيجعل من نفسه أداة لهذا القصاص و العقاب. كان الخوني يوصي و ينصح : « أيها المؤمنون، أنتم تجهلون تعفن وفساد المدن حيث يخسر المسلم عقيدته . بالتأكيد، فالكثير منهم يقاومون، و يصارعون بفعالية، حتى البعض منهم جاهزون و مستعدون للشهادة و لإثبات الحقيقة بواسطة الأفعال. مثل الحسن هذا الذي كان يريد معاينة المارق الفاسق » ⁽¹⁾ .

يثير لكوك الانتباه إذن إلى تعصب هذا المتدين – المتجول الذي لم يكن قد ضيع من تأثيره، يسجل « والذي يستغل و يستفيد بمهارة و براعة كبيرة من أقل زلة و هفوة من الخصم : فالكحول و الخمرة، في الحالة الحاضرة . سيلتزم الخوني و يتعهد، إذن، بالتلفظ باللعنة، بثلاث مرات، حسب الطقوس و الشعائر « فلتأخذك الشياطين و تجرفك إلى حتفك و هلاكك » ⁽²⁾ وهكذا، كان الهواري قد طرح من جماعته، حتى من أجل أن يكون مبعدا عن دينه. هذا الذي يعلم إذن الرفض و النبذ و حتى أنه مذموم، يجب أن يفر بأسرع وقت ممكن، و من الأفضل إلى فرنسا، بعيدا عن الأهالي لأن « الهواري يكون قد قتل، لو كانوا أكثر عددا، يؤكد لكوك، كان عليه الذهاب ،حتى هذا المساء ... » ⁽³⁾ .

¹ . L . Lecoq : Tout liquide suit sa pente , p . 163 .

² . Ibid , p . 143 .

³ . Ibid , p . 145 .

فالفعل الديني، هنا، يتخذ كثيرا، أهمية علاقة الاتصال بالنسبة للمجتمع الجزائري بكامله .

كان المسلمون حريصين ليس على المحاذة على عقيدتهم فحسب، ولكن أيضا على شخصيتهم . إنه الاتجاه والمنزع التقليدي، تحت علامات و سمات منور، موسى البابوج (الحذاء) الذي سيدرسه لكوك آنذاك . فمنور يعترض ويقاوم بحزم و بصلافة الإدماج، يسجل الكاتب . فهو سيكشف حينئذ عن الوسائل المستعملة من قبل منور ليجعل الضغط و التأثير على كل الذين (...) مع الأوروبيين ولتثييط الهمة لهؤلاء الذين قد حاولوا أن يفعلوا ذلك . فمطرز البابوج يقذف أولا وقبل كل شيء بالاشتباه والريبة الاعتقاد الشعبي على كل من يشتغل لدى « المسيحيين » . يذكر لكوك هذا المثال : فولد فاطمة بوسنة كان قد اختطف، يحكي، في خمسة في عينك، و كان قد عثر عليه ميتا من بعد . يقدم منور نفسيرا خارقا للعادة لهذا الحادث : « فالعفاريث (الجنون)، يقدم، قد عاقبوا الأم لأنها تشتغل لدى الروامى، فهي تتهم بأنها خرقت رمضان الأخير»⁽¹⁾ .

كان تأويل النهاية المأساوية للطفل غير مقبول و مرفوض عند الفرنسيين، « لدى الروامى » . وحسب رأي منور، فخطأ فاطمة بوسنة كان هكذا قد فضحه وأظهره الله : فهو يكمن أولا في العمل لدى الأوروبيين، ثم، إنها لم تكن تصوم كأحسن كل المسلمات الصالحات، فهذا قد أدى إلى ذلك . بالتالي، فالله قد عاقب المذنبه بالتأدية إلى موت ابنها . إذن ، فمنور، تماما مثل الخوني، يبحث و يفتش عن الإبقاء والحفاظ على « الكرب و الجزع لدى الأهالي مستغلا خرافاتهم و اعتقاداتهم الباطلة »، يوضح المؤلف، لأن منور كان مسرفا و مسهبا في التفاصيل المفزعة المرعبة « حول

¹ . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p . 101 .

الطفل، كان هناك أيضا نتونة و تعفن من الشياطين ... فالعفاريت تزداد تكاثرا في المدن حيث يعيش الروامي بسبب الممرات حيث تجري المياه ... ذلك يمنحهم وسائل الذهاب و التنقل في كل مكان »⁽¹⁾ . كان هذا، بالتالي، إشارة إنذار و ناقوس الخطر، قرع من قبل لوكوك ، من أجل تنوير و تبصير المعمرين . كان هذا، يندد و يشهر، بشكل من المقاومة نوعا ما، لقسم من الأهالي عن طريق « الإشاعات »⁽²⁾ .

يضاف إلى هذا أن، «(بخار الجاوي)» (الرجل ذو المجرة)، كان يتأكد في خمسة في عينك من أن بلململ، الموظف المسلم، « المتطور المتحضر»، إذن، « كان قد تفسخ و انحل من جراء الاختلاط والمعاشرة للفرنسيين »⁽³⁾ لأنه كان يسمح لزوجته برفع الصوت .

وهكذا، حسب رأي لوكوك، فالخوني، ومنور التقليداوي، وبخارالجاوي (المبخر)، إذا صح القول هو « الإسلام المشوه المحرف » من خلال ممثليه الأكثر « تعصبا و تزمتا » كان يعترض و يقاوم كل إدماج، وكان يحافظ على تجانس و انسجام الأهالي . إذن كان لوكوك قد سبق أن أدرك ما راح كورتان يكتبه بوضوح فيما بعد، في 1939، في مقهى المور « كان وحده التعصب والتزمت يمكن توحيدهم ضد الأجنبي الدخيل،

¹ . Ibid ; p . 100 .

² . Terme utilisé par Y . Turin dans «Affrontements culturels » . Op , cit , p . 138. Ce procédé de « bruit » ou « rumeur » est utilisé par Jerome et Jean Tharaud , dans la fête arabe , Paris , E . Paul , 1912 , « le bruit s'était mystérieusement repandu que le gouvenement allait interdire aux femmes de sortir voilées dans les rues , qu il faudrait payer cinquante francs pour se faire circoncire et que tout chapelet serait prochainement imposé d une taxe de cinq francs cinquante» p . 246 – 247 . Ceci provoque , selon Tharaud , le depart des musulmans vers les pays du Machrek Arabe , Syrie , Irak ...

³ . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 159 .

كانت الجفون تنزل وتنطبق على الومضات والأضواء المقلقة المحيرة ⁽¹⁾ .
 كان فرديناند دو شين، يصف « المسلم الصالح » هكذا : « إن القايد ينهض
 ويقف ضد العادات والأعراف ويفرض معاني القرآن » ⁽²⁾ . يقترب خطاب
 شارل عقون في *الإفريقية*، أيضا من كلام لكوك ⁽³⁾ . كان عقون يقوم
 في 1929، ضد « السياسة الإكلروسية الكهنوتية » لفرنسا في الجزائر:
 « يجعلها من المرابطية، يقول، أداة حكومية، فهي (فرنسا) قد وضعت
 ونصبت أبنائها المتبنين ضد أبنائها الشرعيين، لقد صنعت قبضة من الكره و
 اللاتسامح. لقد أفضت إلى هذه النتيجة التي اعتبر الأهالي أنفسهم كرجال
 العصابة التي يكون هدفها الأساسي هي أن تكره وتمقت الرومي . هذا
 الذي كان قد نزع ملكية الأجداد والذي كان قد أدخل إلى هذا البلد أخلاق
 و سلوكات سياسة الوشاية و النميمة، و الفساد و الانحلال الأخلاقي » ⁽⁴⁾
 . غير أن، لكوك كان أقل منهجية من عقون : « إن كل هؤلاء الذين كان
 لديهم اتصالات مع الأوروبيين، كانوا يتطورون»، كان يقول، المؤلف . لكن،
 في أي طريق ؟ إن بن ململ، ملصق طوابع البريد، كان يعرف « نفحات
 الكحول و الخمرة كالحقيقة الوحيدة الأصيلة الموثوق بها، فهو يؤمن بها،
 وبها وحدها » ⁽⁵⁾ . كان الهواري، المهاجر القديم، يزعم أن « المشروب
 الروحي كان ينساب و يتسلل إلى نفسه، مثل أصدقائه الذين يجلبون السعادة
 إلى البيت منذ العتبة » ⁽⁶⁾ . إذن، فالعلاقات بين الأوروبيين والأهالي تبدو
 تنعقد و ترتبط انطلاقا من هذه المحاكاة وهذا التشابه

¹ . C . Courtin : Café Maure , p . 33

² . Ferdinand Duchéne : Au pied des monts éternels , p . 90 .

³ . L . Lecoq : Article cité , Afrique , juin 1927 .

⁴ . Akoun Charles : « Nécessité des methodes algerianistes » Afrique ,
 juin 1929.

⁵ . L . Lecoq : Cinq dans on œil , p . 162 .

⁶ . Ibid , p . 153 .

في الأخلاق و السلوك، يوضح لكوك الشاهد الحائر المرتبك . لنلاحظ أيضا، نحن معه، مثلا، إن رب العمل، المستخدم الفرنسي للهوري : ماران كان مفعما بالحلم متساهلا معه تماما . فماران يمنح حتى يومين إجازة للهوري، ويعطيه من المال من أجل مواصلة الشرب . بخلاف لحسن، المسلم، خصم الهوري، كان على وشك أن يرى نفسه مطرودا . أما الأوروبيون الآخرون ؟ فالكل كانوا يظهرن أنفسهم معجبين ومتواطئين ضالعين مع الهوري في الوقت نفسه . « كان يوسف (جوزيف) البائع بالتجزئة للمشروبات يذهب حتى إلى إقامة الحراسة والمراقبة بحثا و استقصاء عما إذا لم يكن يظهر أحد من رجال الجندرمة، بينما كان الأهلي يشرب»⁽¹⁾، كان ينقل لكوك . يكتب المؤلف أن المجزئ الثاني كان يظهر ارتياحه و سروره حتى أمام سقوط الهوري : « إنه بطل ... دع له بعشرين فرنكا للقنينة »⁽²⁾ . وبالتالي، فالعالم الأوروبي الذي كان هوري يقترب منه، قلما يكون أفضل منه . إن هذا ما كان يتصاعد ويستخلص، ليس من حكاية كل سائل يجري نحو الأنحدار، فحسب، بل أيضا من كل هذه الحكايات التي تعالج و تصف الأوروبيين، باستثناء باسكولايت الجزائري (الرواية العاملة على تقريلظ و تمجيد الكولون الصغير).

كيف، بعد ذلك، يمكن اقتراحهم كنموذج للأهلي ؟ يتساءل لكوك . فهو يذهب بعيدا في اتهامه و ادعائه: كان سلوك و تصرف هؤلاء الأوروبيين غير مقبول و غير سائغ : كيف يمكن أن يجعل من إبادة و تدمير الأهلي تسلية و هوا ؟ « كان السباخون البقالون عند تناول وجبة العشاء، يحكي، قد غادروا المزارع . كان لديهم مدى نصف ساعة من الاستراحة أمامهم، و استخدمها و قضائها في جعل هذا السكر المدمن الآن يشرب، أليس الثمل

¹ . Ibid , p . 145 .

² . Ibid , p . 145 .

بهذا القدر من الفخامة حقا من التسلية؟»⁽¹⁾ . فضلا عن ذلك، فتعصب الأوروبيين ولا تسامحهم، هو نفسه، يوشك أن يؤدي إلى انبثاق وانبعث خصومة وعداوة الأديان من أعماق القرون، « إن الروامى يشجعونها بمن خلال مزاحهم ومجونهم، راضين و مسرورين من جراء السقوط و الانحطاط الذي يمدح و يطري ظلامية وطائفية سلفية بغیضة»⁽²⁾ .
الدين: القيمة الملاذ للمسلمين : « لا إمكانية علاقة في » عالم علماني لائكي» و«إنساني بتوسع» .

إلا أن لكوك يلاحظ، أن الأهلي الهواري المتحرر من المحرمات و الممنوعات من عقيدته، يبدو أنه كان قد أدمج في المؤاكرين المزارعين لأن هؤلاء الأخيرين يستحسنون و يقرون تصرف و حال الهواري : « كل هذا، كل من هذا، لا تأكل من ذلك، كانت هذه حكايات واختلاق الخوري والكاهن العربي أو الخوري الفرنسي»⁽³⁾ . ويجاول لكوك منشغلا بما يقع في المستعمرة أن يجذب و يستدرج سلطات البلد إلى النضج و الإدراك . فالروائي يرثي ويجزن لسلوك و تصرف فرنسيي الجزائر . إنه كان سلوكا مقلقا و مزعجا لأنه لأنه سلوك سلمي . فهؤلاء الأخيرون يقدمون هم أنفسهم حججا و ذرائع إلى خصومهم و أعدائهم الخواص، المسلمين . ثم إن، لكوك يدين و يندد بكل « الأعمال التطرفية » في الأديان، سواء كانت تلك الأعمال التطرفية التي لمنور أو تلك الأعمال التطرفية التي لمزارعي البقول، السباخين . فالعلاقات بين الطائفتين يجب أن تصنع و تقع في عالم لائكي، وعلى قواعد جديدة . ويبدو أنها الرسالة التي كان يريد المؤلف نقلها إلى القارئ وإلى المتروبول .

1 . Ibid , p. 149 .

2 . Ibid , p . 154

3 . Ibid , p . 155 .

إذ أن، لوكوك يصرح و يعترف بصعوبة الأمر، لأن الهواري، الأهلي، بالتالي، ظل في صراع مع « قوى الظلامية لذاكرته »، « إن هذا كان ينتهك و يخرق كل يوم القواعد، لكن كان لديه خوف مبهم غير واضح من العقوبات الأبدية : فالهواري تملكه الخوف، هل كان هذا شيطانا حقيقيا، كان قد وجد نفسه محررا بإرادة درويش الرحمانية ؟ »⁽¹⁾ . فهو قد ظل إذن، مسلما، رغم التشوهات الملحقة بالدين، ويرضخ لكوك أيضا لحكم الواقع . ومن ثم لا يمكن، محو وإتلاف الذاكرة، والتاريخ « القفز على القرون (مراحل التاريخ)» أيضا بسهولة و ببساطة ، فمثل الهواري لا يمكنه أن يقع في الخطأ، بلا عقاب وبلا قصاص . إن الخوني يدعي و يزعم حينئذ مؤقتا أداة الإرادة الإلهية السماوية، أي أنه مجرد منفذ . فعلا، حسب رأي الروائي، « فالخوني كان يقوم مقام الإله من أجل إنجاز معجزات بسكينه، وكان يقتل المارق المرتد»⁽²⁾ . من خلال إنجاز هذا الفعل «المتعصب المتزمت»، وسيصبح الخوني هو « المتمرد العاصي الثائر». لأن لكوك كان يحدد بدقة و بوضوح « إن الخوني يختار أن يغض و يخفي عيونه المتمردة الثائرة بالخمارة الورد لجفونه»⁽³⁾ . فالخوني، إذن يخفي و يحجب السبب الحقيقي لفعله . إنها عملية الاستعمار نفسه التي يريد هذا مهاجمتها وبلوغها(إصابتها) . وكونه معمرًا، فلكوك قد أدرك و فهم جيدا أن شبه المتعصب (pseudo fanatisme) هذا لم يكن إلا الدفاع الحائق الهائج عن حضارة كانت جماعتها الخاصة والإيديولوجية التي تنقل رواياتها أنها كانت تهدد بالخنق والإخماد . فهو، في الواقع، يعرف، أن الدين هو العنصر المكون للشعب المستعمر

1 . Ibid, p. 155 .

2 . Ibid , p. 155 .

3 . Ibid , p. 168 .

الأهلي، بامتياز، إنه من أجل ذلك كان قد أراد محاربته في مرحلة أولى . و في هذه الحكاية نفسها ألم يكن يقول على لسان الخوني : « أيها المؤمنون، أنتم لا تحيون تماما على أرض الإسلام، بما أن بعض الفرنسيين هم هنا، وهناك، في الأرض، كالخصى في النعل »⁽¹⁾ . هكذا كان الخوني يوصي ويرشد أمام القرويين الفلاحين المسلمين المجتمعين . إذن، كان هناك بعض التدرج و التطور في برهنة و إثبات لوكوك . هذه البرهنة كانت تفضي إلى الوطنية . كانت الوطنية والإسلام قد أصبحا إذن مترادفين . كان يعثر على هذا التوضيح نفسه في الرواية *قيام الموتى* في 1921 . فعلا، كان لوكوك يتصور أن ثني و طي أرضي كان يخرج إلى سطح الأرض هياكل عظيمة، كان يكتب آنذاك، بجلاء « فالعرب الذين كانوا يعملون بأرض الكولون كانوا قد راحوا مذعورين، مرتعيين تاركين هذه القرية، من أجل الاحتجاج ضد هذه الإهانة و الإساءة اليومية التي تعاقب وجود الروامي، فالأموات كانوا يخرجون من القبور »⁽²⁾ . كان هذا التأويل والتفسير واقعا بهذا القدر الذي ينضم ويلتحق بهذه الشهادة المؤداة من قبل الصحافي شارل عقون، في نفس السنة : « كانت قرى بأكملها مثل مليلة قد أخليت و أفقرت من قبل الأوروبيين لأن الأهالي كانوا يرفضون التجارة معهم »⁽³⁾ . إذن، فالأهالي كانوا ينظمون أنفسهم من أجل أن يقاوموا أفضل . كان راوول سطيفان، روائي كولونيالي آخر، في حكايته *انسحاب سيدي أحمد* (1925) يتحدث أيضا عن هذه العدوانية الظاهرة من الأهالي عشية الذكرى المئوية، : « ماذا

¹ . Ibid , p . 168 .

² . L . Lecoq : La levée des Morts , conte , Paris , A . Fayard , 1921 , p. 186 .

³ . Ch . Akoun : «Nécessité des methodes algerianistes » , Afrique juit 1929 .

يعني قرن عند الله؟ كان يقول الراوي لكن هم (الفرنسيون) سيكون لهم من الجميل أن يعضغونا ويلوكونا ويجترونا وسوف لن يبلعوننا⁽¹⁾.

كانت العلاقات، بالتالي، زيادة عن هذا، مزورة مزيفة وشاذة من جراء الوضعية الاستعمارية الكولونيالية. فالكاتب، هو يلقي ويحمل المسؤولية، مرة أخرى لـ «سوء النية المتبادلة»، تلك النية التي كانت لدى الأهالي وتلك التي كانت لدى الأوروبيين. لأن الأهلي هو وحده «الساقط الخائر» كان حسبه مقبولا من قبل الأوروبي. كان قد أصبح هذا متواطئا معه وكان يساعده حتى على التنكر لمبادئه الدينية. إن لكوك يصبح إذن، شاهدا عاجزا ضعيفا. فهو يعلق، على موت الهواري آنذاك هكذا: «الله أكبر، هكذا تهلك وتتلاشى الأجناس والأقوام التي لا تراعي التزاماتها وواجباتها التي خلقت من «أجلها»⁽²⁾. لكن، الهواري كان قد طرد وأقصى من جماعته من غير أن يكون متبنى من قبل الجماعة الأخرى. لم يكن إذن هناك من مخرج كذلك.

مع أن، لكوك، كان لا يتخلى و يعدل بسهولة عن اللعبة (المعركة). فهو يطالب حينئذ «بالفتح والغزو الفكري المعنوي» خارج عن كل فكرة التبشير الديني. إن سياسة «الغزو والاحتلال الفكري المعنوي» للأهالي، قد سبق أن كانت ممدوحة و موصى بها في القرن الماضي تحت حكم الجمهورية الثالثة: إن كل المحافظين الإداريين والحكام العامين الذين كان عليهم التعاقب غداة الحرب العالمية الأولى، كان عليهم الرجوع عنها. (لاسيما موريس فيوليت). يذكر أوكتاف دييون، المفتش العام للبلديات المختلطة لعمالة قسنطينة، يذكر الحاكم العام ليتود «أن نسبة المواليد الدنيا

¹ . Raoul Stefan : Op . cit , p. 286.

² . L . Lecoq :« Tout liquide suit la pente » , p. 168 .

تمنعنا من أن نعمر و نستعمر كما نريد و نبتغي ... من حيث الضرورة الجبرية بالنسبة إلينا لمتابعة الغزو الفكري للأهالي بهمة وبنشاط، خارج عن كل فكرة التبشير الديني»⁽¹⁾.

ب / إمكانات العلاقات الأهلية - الأوروبية في الجزائر الكولونيالية.

1 / الانتماء المشترك لعالم البحر المتوسط

لقد كان التجميع والحشد لمختلف السكان من الأصل المتوسطي الموضوع المركزي للروايات الكولونيالية، خاصة، ابتداء من (1935) . مع أنه، ابتداء من 1921 نعثر على هذا الموضوع في روايات لويس لوكوك، بروميتش والقبائلي 1921، قيام الموتى 1921، خمسة في عينك 1925، و مصنف الحكايات شمس 1928 . فهي تعكس كلها وضعية تاريخية خاصة، بالجزائر، في هذه الفترة . فعلا، قد وقعت مشاهدة حضور خليط هائل لشعوب، ولذهنيات متوسطة كانت تتحاذى و تتقارب أثناء الفترة الكولونيالية. فعلا، إن عالما متوسطيا، حيث كان البحر دائما يتواجد و يحضر ماكثا و مقيما على هذب و تخوم البلد، قد وصف كثيرا عبر الأعمال الأدبية الكولونيالية.

يشير التاريخ الرسمي إلى أن الأوروبيين كانوا يقفزون و ينتقلون في 1921، من خمس مائة وتسعة آلاف ساكن إلى سبع مائة ألف في 1926⁽²⁾ . لقد كان المارون المشاة يملأون و تفيض بهم الأرصفة الضيقة، كانوا يذرعون الأقواس، العاجزة عن احتواء و استيعاب أمواج العمل الصباحية، كان يصف لوكوك، على مقربة من النابوليتانيات المنهارة

¹ . Octave Depont : L Algerie du Centenaire , Paris , Sirey,1928, p . 50 .

² . Ch. Julien , Op. cit.p . 33.

المتصدعة والقذرة الوسخة كان ذلك الحشد الكبير من الرجال بألبسة شاذة غريبة : بلوزات (فساتين)، سترات (بذلات)، برانس، عباءات (أثواب رثة (للصيادين الإيطاليين، قلانس و قبعات على الأنف، كان بعض المور المدنيين محزمين وملتفين في أثوابهم و قنادرهم ، قبائل من الجبل، ملتحفون بأسمال (الأثواب الرثة)، اسبان جرد مرط، مالطيون، مواكب كاملة من النساء والرجال»⁽¹⁾.

وبالتالي، فإن « جزائر المثوية » كانت، طبعاً، هي المكان حيث يتعايش مختلف سكان المتوسط، لكن حيث يخرج المهاجر الفرنسي عن اللحن و ينشز قليلاً . وبفضل بعض الحقائق أيضاً المادية المحسوسة، أن المشابهة المتوسطة، يلاحظ جبريال أوديزيو في الشباب المتوسطي أن « اتحاد عالم جديد يمكن أيضاً أن ينضج حول هذا البحر الذي عرف عدة مرات تجمعه الخاص»⁽²⁾ . إنه من الميادين ومن المجالات حيث يوجد التواصل بين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية التي تجابهتها و التحمتا محلياً، على الأرض، في الإطار الكولونيالي : « لقد انضم مولدون مهجنون متوسطيون، وأهالي متفرنسون، و التحقوا بهم ... مرة أخرى في الوقت المحدد، كما يريد ذلك قدر و مصير هذا البلد الإفريقي، كان هناك رجال من كل الأمم»⁽³⁾ . يشدد لكوك، غالباً، على الاستمرارية للأخلاق، وللثقافة تقريبا، للضفاف المتوسطة . فهو يشير حتى إلى البعض من استمرارية الأصالة في خمسة في عينك . فعلاً، سكفالي بوروبون، طالب، هو ابن « الغني بوروبون من تنس الذي تجعله الرواية ينحدر من أحد برابنة الإسبان، اختطف طفلاً صغيراً جداً، تماماً من قبل القراصنة»⁽⁴⁾ . هناك خليط و امتزاج، بالتالي، لكوك

¹ . L . Lecoq : La levée des Morts , p. 127.

² . Gabriel Audisio : Jeunesses de la Méditerranée , op , cit , p. 11 .

³ . L . Lecoq : La levée des Morts , p. 127.

⁴ . Luis Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 47 .

يلجأ إلى تاريخ المتوسط ، نفسه . لكن الاختلاط يحدث ويقع خاصة في الطبقات الشعبية بين السكان الأوروبيين من أصول مختلفة، من جهة، وبين الطبقتين الشعبيتين الأوروبية - الأهلية، من جهة أخرى .

يخبرنا الكتاب عن طائفتهم الخاصة. فهناك لدى الأوروبيين، كل أنواع درجات التطور والتحضر والجذور الاجتماعية المختلفة. كانت آداب هذه الفترة قد أبدعت « نموذجاً لهذا الرجل الجديد »، فهو في الجملة نموذج للمنتوج الكولونيالي، نموذجي، من إنسانية « محرومة » . و نعثر على أثره حتى قبل بداية هذا القرن، في 1894، بالضبط مع ظهور و صدور سلسلة من الحكايات مكونة الرواية (جاجايو) و المؤلفة من قبل الصحافي الكولونيالي أوغيست روبينيت، المعروف أكثر تحت الاسم المستعار ميسات . كان روبيرت راندو يجلل جاجايو هكذا : « لم يكن الملك المضاد للكل ولحكومات (ولايات) باب الوادي قط كائنا خرافيا، ليس من الأسطورة في شيء، وليس هناك من المبالغة، ومن الملحمة المغامرة، لكنه شخص فقير معوز مهجن من مختلف الأعراق والأجناس، ابن المدينة الحاضرة الجزائرية . إنه وضع ، كان يضيف، فهو لا ينتمي إلى الآداب إلا لأنه يجسد نموذجاً إنسانياً حقيقياً جداً»⁽¹⁾ . « إنه دم مختلط وممزوج، يستعيد، جبريال أوديزيو في الكلام المصنوع و المؤلف من الفرنسية، ومن العربية، ومن الإسبانية، ومن كل اللهجات المتوسطية »⁽²⁾ . كان على هذا البطل كاجايو أن يسمى فيما بعد، في بداية القرن، ببييت (Pepete)، بقلم لويس بيرتراند، وبروميتش في رواية لكوك الصادرة في (1921)، بروميتش والقبائلي،

¹ . R . Randau : « roman picaresque» en A.F.N . Afrique , janvier 1933, P. 3

² . G . Audisio : La jeunesse de la Mediterranée , p. 13.

تيتوس في 1931، في رواية بول أشارد : رجل البحر، باكولا في كتابة لوسيان فافر، باب الوادي 1927.

في سرد لكوك، بروميتش هو ابن إيطالي ومالطية . إنه إذن ممثل الشعب الصغير لباب الوادي ⁽¹⁾ . فهو يشعر بنفسه محتقرا من قبل الأوروبيين الأفضل منه نسبا و مولدا على العموم، ومن قبل الفرنسيين ذوي الأصول الفرنسية . فهو يغازل و يتودد إلى السيدة مارشال، « الفرنسية » التي كانت تنتمي إلى طبقة أخرى أكثر يسرا و رخاء، « إنها كانت أرملة الرجل،الذي كان يدعى بروميتش، والذي كان قد شغل منصب في الحكومة » ⁽²⁾ . انطلاقا من هذا الإثبات والمعينة، فهو لا يمكنه أن يتوقف عن أن يعاني و يقاسي و يتألم من « القلق وانحراف المزاج» معها، « والآن ماذا يجب أن نعمل، كان لا يتوقف، عن التكرار و الثرثرة ، عندما كان يجد نفسه معها ؟» يقول لنا لوكوك ⁽³⁾ .

وهكذا، أصبح المؤلف الشاهد، هذه المرة، على مجتمعه الخاص . كان يظهر أن هناك داخل هذا المجتمع، كان يوجد فصل و حاجز حقيقي بين الطبقات . بالمقابل فبروميتش كان يشعر بنفسه أكثر قربا من ذهيبية، الفتاة المسلمة التي لم تكن ظروفها المادية تبتعد عن ظروفه. « كان هذا الهروب و الاستطراد مع السيدة مارشال لا يفيد في النهاية إلا للارتباط أكثر بذهبية » ⁽⁴⁾ . كانت هناك، فكرة في عمل لكوك المذكور آنفا، أن تناضحا وتأثيرا متبادلا، بطيئا يحدث بين الجنسين في الطبقات الشعبية للمجتمع، حتى ولو أن بروميتش يبرز نفسه بغموض و بغير وضوح محتقرا، مزدريا، بعض

¹ . Bab- El-Oued : Quartie populaire européen d Alger .

² . Luis Lecoq : Broumitche et Le Kabyle , p. 13.

³ . Ibid, p. 43.

⁴ . L . Lecoq : Broumitche et Le Kabyle , p.44.

الأهالي « فذهبية ليست أكثر من موريسكية، يرى »⁽¹⁾ . كانت هذه بعض الامتيازات وبعض المزايا لبروميتش « منزل كبير لاثنين، منزل حقيقي ... كرسى من القش »⁽²⁾ ، قليلا من الأشياء في الواقع « لراحتهم ورفاهيتهم » التي ستكون الأصل في شعوره بالتفوق و التعالي على الأهالي عموما، وعلى الحاج مزيان، أب ذهبية على وجه الخصوص، فضلا عن أنه أفقر منه .

مع أن سمات الأخلاق كانت قريبة جدا بالقدر الذي لا يجد فيه بروميتش فائدة كبرى في التمسك بالمسافة والابتعاد عن المسلم . فهو يتزوج إذن ذهبية . ومن ثم، كان هناك اختلاط، حسب رأي لوكوك، لكن كان أيضا، هناك فصل، لأن هذا الشعب الصغير المتكون خاصة من المالطين، ومن الإيطاليين والأسبان، لهم النزعة إلى اعتبار أنفسهم أعلى و أفضل من الأهالي انطلاقا من حقيقة نفسها، أنهم كانوا ينتمون إلى الجماعة السيدة المسيطرة . كان أ . تريفيموس يكتب أن « كولونيالي القرية، كان لهم بالنسبة للشيخ الطاهر (المتنمي، إلى أسرة أكثر شرفا، في الناحية، مع أنه، قد تجند تطوعا في (1914)، ضابط وحامل وسام صليب الحرب في شارلوروا) كل الاعتبار والاحترام المتنازل عنه المتعجرف الذي حتى أن أوروبيا ولو كان قدرا وسخ الجسم والروح، قلبا وقالبا، يمكن أن يمنحه إلى أهلي »⁽³⁾ .

يمكن أن تسجل شهادات أخرى من هذا النوع في السرد و الحكايات سبق أن ذكرت أنفا لراؤول سطيفان، ولمارث كلوزيار وشارل كورتان في مقهى المور . في انسحاب سيدي احمد، كان راؤول سطيفان يسجل في 1925، أن « سيدي احمد ضابط أهلي كان يشعر بأن موقف و حسن التفات الروامى كان يخفي أحيانا الاحتقار و الازدراء »⁽⁴⁾ . جعلت مارث كلوزيار تقول

¹ . Ibid, p. 22.

² . Ibid, p. 58.

³ .A. truphémus : L Hotel du Sersou, p. 162.

⁴ . Raoul Stefan : La retraite de Sidi Emmehamed ,1925 , p. 283.

على لسان فرنسي في الجدي (bicot) 1925، أن ذلك الجدي ذكي و فطن على وجه أكمل و مثقف . إنه جدير بأن يكون مقبولا كزوج لفرنسية»⁽¹⁾ . ويكتب شارل كورتان في مقهى المور : أن لخضر يروي « أقل بقال و مزارع إسباني يعتقد بأنه مأذون له بأن يرفع الكلفة عنا بحجة أننا عرب»⁽²⁾ . في هذا الصدد، يظهر موريس فيوليت نقمته و سخطه في هل ستعيش الجزائر 1931 « سياستنا في الجزائر ... أنه من الصعب الدفاع عنها، عندما تجعل مبدئيا أنه ليس هناك من أهلي، مثقف بهذا القدر الذي يجعله يتموقع في السلم التصاعدي بعد الأوروبي . إنها نظرية الأجناس والأعراق الهالكة المختلقة التي وضت، في العالم من أجل مجد وعز الأجناس والسلالات المختارة . كانت مثل هذه النظريات دائما تغضبني و تثيرني»⁽³⁾ . غير أنه بالعكس من ذلك، فلكوك لم يعد الملاحظ المنصف الحيادي النزيه في هذه الحال بالضبط، إنه قبل كل شيء فهو المدافع المخلص عن الإمبريالية الفرنسية . فعلا، في خمس في عينك، في مكتب البريد حيث يجعل المعمر « التقنية، التلفون» في خدمة « البرابرة الهمج » حسب رأي لوكوك، « هناك سد حاجز من وراء متراس من الطاولات كان يكتب، كان يلمح الشباك العالي، حيث تفتح الشبابيك بحيث أن العريش (الشباك) كان يبدو مجهزا و معدا من أجل وقاية ، الممثلين من الجنس الشريف، من العامة الدهماء»⁽⁴⁾ . كان يوجد، إذن، في ذهن لوكوك، « جنس مختار»، كان، من خلال نفس فضائله « خاصياته الوراثية»، معدا و مهيبا للهيمنة و السيطرة على الآخرين . إذن يلاحظ هنا، لدى المؤلف، نزعة فاشية . وهذه المرة، ستكون « باسم المبادئ العامة للديمقراطية، أبناء وبنات الفاتحين

¹ . Marthe Cleuzière : Un Bicot , 1925 ,p. 53.

² . Charle Courtin : « Café Maure » , p. 100.

³ . Maurice Violette : L'Algerie vivra_t_elle ? roman, cit , p. 422.

⁴ . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 27.

المحتلين كانوا يجدون أنفسهم، إذا صح القول وفي حدود مقتضيات الخدمات البريدية، خدام البرابرة الهمج»⁽¹⁾.

إذ أننا، فلنقل ذلك سريعا، يوجد هناك تعارض وتناقض بين المبادئ العامة للديمقراطية الفرنسية، والدوافع النفسية، إن الأفعال و الترضيات (التعويضات) التي تعار إلى المعمرين في رواياتهم نفسها، مثل الحريق، لون الأغاف، شيطان العدل الحق ومن بينها روايات أخرى . كانت سمات وملامح المعمرين فيها منفرة و مثيرة للاشمئزاز و ممنهجة . فلويس لكوك يبذل جهدا آنذاك في فصل و تفكيك مبادئ هؤلاء الذين كان يحسب عليهم تطبيقها .

بصفته كولونياليا، فهو يلجأ إلى دهاء و خدعة أخلاقية فكرية، فهو يتمسك و يتذرع بالمبادئ الكبرى للديمقراطية الفرنسية في إطار العلاقات الغالب والمغلوب، مع كل اعتبار للمحتلين كمثال سيء . يمكن أن نتساءل إذن، إن كانت هذه المبادئ قد طبقت، في الواقع، بالتمام، فماذا كان يقع و يحدث للمستعمرة ؟

2/ حقائق وأساطير : « لا تطور » لكن تدمير و تخريب

كان الروائي الكولونيالي هنا، أيضا، واقعا و متلاعبا في نفس الوقت فعلا، فإن لويس لكوك سيكون متساوي الحدين و مزدوجا بالنسبة للأهالي : فهو يصنع أولا « مستعمرا أهليا كاملا » بن ململ، الذي كان يعترف بالمعمر بصفته أعلى وأكثر تفوقا⁽²⁾ . من أجل ذلك، يستعمل لكوك أسلوبا متقنا يجري به العمل قليلا، بين الروائيين الكولونيين حتى هذه اللحظة . فهو يشتمل على استخدام الوهم والتخيل لخلق و تكوين

¹ . Ibid, p. 27.

² . L. Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 26.

شخصية للمستعمراً أهلي، فهي ليست مشاهدة و مرئية من قبل المعمر فحسب، ولكنها توجد بما أنها تتكلم وتعمل وتنشط، وخاصة ترى المعمر كما كان يريد هذا أن يرى . لكن هذا، ليس مجرد صورة « للمستعمراً أهلي الكامل» إنه أيضا نقل وتسجيل لواقع الأهلي المتطور، وموقعه الصعب العويص . إنه مأخوذ و مشدود، تتنازعه حضارتان أصبحتا متخاصمتين ومتعاديتين خلال هذه الفترة . كان رسم هذين الوجهين لابن ململ مختلطين بدقة في رواية لكوك .

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستجيب شخصية « المستعمراً الكامل » للواقع . هكذا يحتج بن ململ، في خمسة في عينك، ويعترض بشكل متناقض، هو نفسه، على المسافات والابتعاد بين الغالب والمغلوب . فهو يحتقر و يزدري، حتى الأوروبيين الذين يستخدمونه . فهو يكتشف شيئاً فشيئاً، في كتابة لكوك، أن « الجزائر بلد حيث يجب أن ينتصر المثل الفرنسي و يسود» . إنه ضمر، زوج اثنتين، بالتأكيد، لكنه عادل صحيح إذن فهو محترم و مقدر. لا يقتصد المؤلف في التفصيل: « على أريكة مشابهة و مماثلة لتلك الأريكة التي للمرأة الكبرى، كانت المرأة الثانية جالسة، في غرفة مؤثثة بشكل مماثل و مجانس إلى درجة أن ذلك كان يخذل الوهم »⁽¹⁾ . كانت داخلته تفضح انتماءه إلى العالم المتوسطي « مرآة من الخشب المنقوش، هبة بالوصية لهذا العهد حيث كان أتراك الإيالة يتاجرون مع ليفورن»⁽²⁾ .

لم يكن بن ململ، ينشرح و يبتهج إلا وسط الأوروبيين، حسب رأي الروائي، وبدقة أكثر، في مكتب البريد حيث كان يعمل : « هنا، كل هذا يدل على البساطة، والود، كان يعترف و يقر، أي تناقض قرب المنزل حيث كانت

¹ . Ibid ; p. 11 .

² .Ibid , p. 92.

الزوجتان المتعادياتان تجعلان الأمل عبثا في أن يكون سعيدا»⁽¹⁾ . هكذا كان الأهلي، من جهة، يقطع الصلة شيئا فشيئا مع أهله وأقربائه لكي يتبع الطريق التي سطرها له لكوك، المعمر.

من جهة أخرى، فبن ململ يرى أن طائفة « فرنسيي الجزائر»، كانت منطقية وعقلية . « إن الروامي لا يعتقدون و يؤمنون بأي شيء، فقارئو الطالع، ليس لديهم ما يفعلونه عندهم، فهم لم يكونوا يمشطون بالأيدي الحمراء في فتيلة صفراء من كل جانب لبابهم، هم يفضلون في ذلك تسمير وثبيت اللافات في صفائح الزنك لشركات التأمين»⁽²⁾ . إذن، فالمسلمون في الاتصال بالأوروبيين، مثل محمد بيرنوت، رجل أمن وبن ململ، عامل البريد، يلجان شيئا فشيئا وينضم إلى « الحضارة الحديثة العصرية». فهما لا يؤمنان بالخرافات لكن يعتمدان على التفسيرات و التأويلات المبنية على العقل والمنطق . يلاحظ ذلك أيضا في معارضتهما كليهما لسي منور ممثل الرأي التقليدي (كما قد قيل ذلك سابقا) . إن محمد بيرنوت يقدم تفسيراً عن موت طفل فاطمة بوسطة إلى سي منور، وحتى أنه تم توقيف القبائلي الجاني: هذا الذي كان قد لف البطانية عند سرقتها من غير أن يعرف أن هناك طفلا داخلها. إذ أن سي منور كان مستعصيا على العقل و الصواب، « فهو كان يبتسم شفقة، غير أنه لا يتجرأ على، أن يصطدم مواجهها لقوة بوليسية يحتقرها و يفزع منها . يسجل بهذه الدقة لكوك»⁽³⁾ . كانت هذه القوة ممثلة، بالطبع، من قبل محمد بيرنوت . وهكذا تتقاسم الأهالي نزعتان في حزن جماعتهم: « فالمتطورون»، أنصار التغيير، يشير لكوك، لائكيون،

¹ . Ibid, p . 92 .

² . Ibid, p. 30 .

³ . Ibid , p. 101 .

موظفو الإدارة الفرنسية، الذين يقيمون علاقات مع الأوروبيين و « يعجبون بهم حتى » . من جهة أخرى، هؤلاء الذين يقاومون، التقليديون، قد يكونون مؤمنين لكنهم « خرافيون » أيضا، ضمنا معارضون للسلطات الكولونيالية، لأنهم، ألا يرفضون القوانين الفرنسية الممثلة من قبل محمد بيرنوت، في الحكاية ؟

وهكذا، كانت الحقيقة التاريخية محترمة و مراعية، في *خمس في عينك* . كانت في الوقت نفسه حيث كان لوكوك يكتب روايته في 1925، المناقشة السياسية حول « القضية الأهلية » قد أخذت أبعادا كبيرة ⁽¹⁾ . حقا كان هناك اتجاهان يتنازعان كتلة المسلمين : « المتطورون » و « التقليديون ». فالأولون كانوا يطالبون بالإدماج في « الحاضرة الفرنسية » مع التمسك و الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية، وهذا منذ 1919، في حين أن الفريق الثاني أنصار المحافظة (حماية الوحدة)، كانوا يخشون تأثير « المتطورين »، من جهة، وتأثير الأوروبيين من جهة أخرى، على بقية الأهالي . ومع كل ذلك كان المحافظون يصبون إلى نوع من المساواة مع الطائفة الأوروبية .

إذا كانت شهادة الروائي الكولونيالي مطابقة لتاريخ الجماعة اسلامية، إلا أن، لوكوك، لم يكن قد فهم الأهلي في حقيقته العامة . بالإضافة إلى ذلك، فإن المعايير التي كان يرجع إليها المؤلف لا تخص ولا تتعلق بالجماعة الأوروبية، كما يعترف بذلك كثيرا، فضلا عن ذلك من خلال رواياته . إن المجتمع الأوروبي هذا كان أيضا مقسما تماما، في الواقع، بين العقلانية والخرافة . فالاعتلام وتحديد المعالم الاجتماعية للوكوك كانت، بالتالي سلبية . لقد كان مشدودا، وممزقا بين « مجتمع بعيد » يريده المؤلف (هو مجتمعه)

¹ . Cf . Contexe historique.

ومجتمع مسلم يرفض في الغالب أن يراه كما هو . فعلا، فالمستعمر الأهلي يقبل و يسلم، حسب رأي لكوك، بالتسوية و الترضية ، ويعترف حتى بأوروبي الجزائر، كونه الأكثر تحضرا و تمدنا « يحيا الروامي، كل شيء جلي واضح عندهم حتى أدغال المرافعات، والإجراءات القضائية » (1) .

لكن، بن ململ يمنح أيضا انضمامه و انخراطه التام ، فهو إذا صح القول، قابل « للإدماج» أو « قابل للاستعمار» كما كان يتمنى المؤلف ذلك . من خلال هذا الأسلوب، الذي لم يكن على الإطلاق تمرينا تقنيا روائيا، كانت العلاقة قد نشأت بين فرنسي المستعمرة والأهلي . يرى هذا منخدعا، وممتلئا بالإعجاب بالنسبة للمعمراخيالي المختلق لابلوبان، موظف بإدارة البريد مثله . كان هذا الأخير، « رجلا عاقلا، ذا تمييز، إيجابيا، ذا فكر بناء، في الأفراح و المباهج العائلية البسيطة المألوفة » . لا يتعلق الأمر بالهندسة معه، يكتب لكوك، لكن بالأشغال المدنية » (2) . فهو يترك الكلمة لابلوبان « كل أيام الأحد يحكي هذا، إلى بن ململ، مع عائلي الصغيرة نحن نذهب نتجول ... أنت تعرف التيليملي ؟ الطريق المتكونة من المنعرجات لا تتقدم ... إن هذا مزعج، كان لابد أن تبنى جسور ... لربط هذه الأودية والشعاب، أن تختصر، ما أجمل القيام بتلك النزهة ... لا أفهم» (3) . إذن لابلوبان، المعمر في الجملة ، طائفته، من ثم، كانت ترمز حسب رأي كوك إلى الفكر العلمي وإلى يقين الأوروبي. كان لابد أن يمثل هذا الزميل الأوروبي النموذج الوحيد الممكن للتطورات، هذا ما يجب أن « يميل » إليه بلململ، لأن، حتى ولو أن لابلوبان لا يفهم، فهو لم يكن له

1 . L . Lecoq : Cinq dans on œil , p. 182 .

2 . Ibid, p. 91 .

3 . Ibid, p . 91 .

أي كرب و جزع : « مع ذلك، ها هي، بعض الأشياء التي لا يعرفها الرومي، يلاحظ بن ململ، لكن لا يوجد هناك أي سر عجيب و خفي، في جهل الرومي، لا إزعاج ولا حصر كذلك »⁽¹⁾.

ويتصدى لكوك هنا لمشكلة أساسية يواجهها « المتطورون » والمثقفون الأهالي : إنه مشكل الإزعاج و الحصر الذي يصاحب تطورهم . إن بن ململ نادرا ما يؤمن بعبادات جماعته. فهو يراجع و يتحقق حتى كل يوم، حسب رأي المؤلف، عدم فعاليتها . فضلا عن ذلك، فهو قد يقع أن يحدث له منها خجل و حياء، لكن فهو يريد مع كل ذلك أن يخادع و يخاتل الأوروبيين بالتلاعب بالألفاظ، وأنواع الجناس في لغتهم الخاصة («deux mains» signe cabalistique , superstitieux et «demain» , «je pense a deux mains , mon ami , a deux mains , oui a demain le dernier «يدان» (jour du mois , le jour de la Sainte touche) بين اللفظ « يدان» علامة قبلانية، خرافية و « غدا » ، « أفكر في يدين، يا صديقي، في يدين، نعم في غد اليوم الأخير للشهر، يوم القديسة - توش) »⁽²⁾ . فهو كان يبتهج و يتسلى، يحكي لكوك، بأن يسخر، من الروامي في لغتهم الخاصة بهم ... « وهم كانوا يضحكون منه، لأنهم، كانوا يعرفون قصة اليدين»⁽³⁾ . لكن هل من الاعتقاد أن ازدواجية لغة بن ململ تترجم هنا تنازع الحضارتين : حضارته و حضارة المعمر ؟ ويتأكد لكوك أن بن ململ، لم يكن قد فقد، و تخلى عن عدوانية المهزوم بما أنه يخادع و يغش الأوروبيين مع كل الفرع من أحكامهم . فهو لا يعتقد كذلك في قدرتهم على الفهم . فالثقة هي إذن

¹ . Ibid, 92.

² . Ibid, p. 30 .

³ . Ibid ; p . 30 .

بعيدة عن أن تسود . إن هذه الازدواجية اللغوية ترمز إذن إلى عالمين متنازعين : عالم المعمر، وعالم المستعمَر الأهلي . كان لكوك يوضح بدقة ، يضاف إلى هذا، « فبن ململ كان أهليا، مقتلعا و مجتثا من اعتقاده التقليدي، من قبل سلطان و نفوذ اجتماعي أجنبي والسقوط منذ زمن طويل في شكوكية و ارتياحية من نوع الجحود المعيب الشائن »⁽¹⁾ . كان الروائي الكولونيالي قد حلل جيدا «التطور» لابن ململ . فهو يلاحظ، أولا وقبل كل شيء، أن هناك تمزقا و تصدعا مع عالمه العادي التقليدي، في ما كان يحوي و يتضمن من اعتقادات و تقاليد، وأن هذا التمزق و التصدع أو بالأحرى هذه الصدمة كانت مفروضة من الخارج، و تتصادف مع العدوان الكولونيالي . ويبدو أن بن ململ محكوم عليه بأن يفقد الذاكرة تدريجيا، بما أنه ينجل و يستحي من مؤسسات جماعته . وبالتالي، لم يكن هناك تطور تدريجي و منسجم داخل نفس جماعته الخاصة . فهو يفقد العلاقة مع وسطه هذا من غير أن يكتسب ثقافة جديدة، و معرفة جديدة : فبن ململ ما يزال دائما يلصق الطوابع .

كان ذا ملاحظة، كما قد فعل ذلك لوكوك، إن الأهلي يتشبث و يتعلق بشكل متناقض يبدو، بكل ما يمكن أن يكون أكثر محافظة في مجتمعه، كان راندو يكتب في 1933 : « لو لم يكن هناك إلا قرن من الزمن مع فرنسا، لكان البربري من جديد على طريق الحضارة، إن هذا في ذاته المدافعة، المقاومة . فهو يتشبث بكل قواه بماضيه . هل سيتحرر و ينعثق يوما ما ؟ »⁽²⁾ . إذا اعتبرنا أن بن ململ قد تحرر و انعتق، بما أنه قد انقطع و بتر عن ماضيه، فماذا يبقى له ؟ « شكوكية و ارتياحية ساخرة هازئة، من نوع من الجحود

¹ . Ibid , p . 182 .

² . R . Randaud : « Le professeur E.F. Gautier et les Vandales » , Afrique , juin 1933 .

والكفر و الريبة المهينة الشائنة ». لم يكن لديه إذن أية جائزة ومكافأة « للإنسانية وللثقافة، و للفعالية » كما كان قد وعد و أغرى بذلك راندو، ولكوك، وبومي، وآخرون أيضا . كان هناك بالأحرى تدمير و تخريب في السياق الكولونيالي .

و يمكن أن نتساءل عندئذ في من يجب أن يندمج بن ململ ؟ لماذا وخاصة، كيف ؟ وبالتالي سنقول مع إيفون تورين، وفي هذه الحال بالضبط، إن التغيير المكره عليه لم يحصل في سياق متجانس ومتلاحم مع مأساة مطلقة بهذا القدر ⁽¹⁾ .

3 / التعليم الفرنسي « نفوذ و استيلاء اجتماعي أجنبي»، مقبول، مسلم بصحته وحتى مطالب به كذلك.

ينطلق الكتاب الكولونياليون في معظمهم، ما عدا، ألبرت تريفيموس ولوسيان فافر، من مسلمة، أي أن « الطائفة الأوروبية هي أعلى و أرقى من الجماعة الأهلية » . وهكذا، فإن رفعة و تفوق المجتمع الأوروبي كان قد تأكد مرة أخرى في بروميتش والقبائلي (1921) . غير أن، لكوك يتخلى لوقت ما، عن الطوباوية، ويلتزم طريقة و شكل الشهادات والاعترافات . إن ذهبية الصغيرة الشابة، كانت في الرواية المذكورة آنفا، فخورة بكونها تذهب إلى المدرسة : « كنت في مدرسة الفرنسيين، كانت تقول، بافتخار و زهو في الصوت» ⁽²⁾ . كان « النفوذ و الاستيلاء الاجتماعي الأجنبي» كما يسميه لكوك في خمسة في عينك، إذن مسلما به، عندما كان يتعلق الأمر بالمدرسة وبالطب. أما بالنسبة لذهبية، فقد كانت هذه « ترقية اجتماعية »، فهي لم تعد ترضى بالقدر و بالمصير البئيس الشقي لها : فالعيش في قربي.

¹ . Y . Turin : Affronements culturels , op ;; cit, introduction , p . 9 .

² .L . Lecoq : Broumitche et Le Kabyle , p. 11.

فهي لم تعد تستطيع أن تتصالح و تنسجم مع البؤس والفقر، « كان عليها أن تأكل جيدا، أن تملك منزلا حقيقيا... »⁽¹⁾. ومع أنها كانت من ظروف متواضعة بسيطة جدا، (فهي كانت تخدم في بيت فرنسية) كانت تشعر مع ذلك أنها أرقى وأرفع من أولئك الذين من طبقتها . « فهي كانت تغضب وتنفر من التفكير في تقاسم و مشاركة فراش بربري همجي فظ ، قدر، كان يقول، لكوك »⁽²⁾. إذن، كانت لديها النزعة في أن تدخل إلى حياتها، الحضارة الأوروبية أكثر بالنسبة للمرأة الأمية الباقية، فهي، محافظة، كما يقول ذلك الروائي . لكن ارتياد المدرسة، بهذا القدر الزهيد جدا، قد يسمح لذهبية أيضا أن تؤكد تفوقها عن هؤلاء الذين هم من جماعتها وكان هذا يقربها من الأوروبيين، بوجه خاص أكثر، من أولئك الذين من الطبقات الدنيا من المجتمع الكولونيالي . وستكون ذهبية، إذن، في سعيها للتمييز عن بقية الأهالي، ملاحظة من قبل بروميتش ومن قبل وسيطها ولوج، واكتشاف المجتمع الأوروبي. لكن هذه الحال كانت وحيدة في آداب لكوك، فلنتذكر ذلك . هكذا، فللكوك، بعد أن كان قد تأخر في نسب الجماعتين إلى العالم المتوسطي، هذا المولد والمكون لنوع من العلاقة الحقيقية بعد خلق نموذج ونوع من المستعمراً أهلي، حقيقي جدا، من بعض الجوانب، لكنه خرافي و أسطوري من جوانب أخرى . يعني أن بن ململ، يقترح علاقة و رابطة أخرى : هي رابطة اللغة الفرنسية و رابطة « مدرسة الفرنسيين »، هل يمكن أن يكون هناك إدماج عن طريق المدرسة ؟ أو هل هي خرافة و أسطورة فقط لازال يطورها ويتوسع فيها لكوك، الذي أصبح « إنسانيا»، من وضعية فعلية، بمعنى الدواء و العلاج ؟

¹ . Ibid , p . 47 .

² . Ibid , p . 47 .

و يلاحظ، أنه في الوسط، الأهلي، فإن ارتياد المدرسة الفرنسية يفصل و يعزل الشخص عن الجماعة بفعل أنها لم تكن تتسع و تتوفر لكل الأطفال الأهالي . يكتب شارل كورتان فيما يتعلق بأهلي متعلم مثقف « أن معرفته و تبحره كان يفصله و يعزله عن ربه و مولاته المسلمة، كفاصل وكحاجز »⁽¹⁾ . إن ذهبية هي نفسها كانت لا تريد قط أهليا من ظروفها ومن مستواها . « فهي كانت تغضب و تغتاظ ... حتى من التفكير في ذلك ... » . كان قد سبق أن قال لكوك ذلك آنفا .

كيف يلمح و يستشف لكوك مشكل المدرسة في المجتمع الأهلي ومشكل مكانة و وضع الطالب في المجتمع عموما ؟ أليس الطالب هو الأهلي الأكثر تطورا ؟ الأكثر تفتحا على أشكال و صيغ التفكير الحديث ؟ إنه بالتالي، أليس هو الذي كان يستطيع أن يطلب بأن يكون مدجا منضمنا إلى المجتمع الأوروبي ؟ سؤال يطرح نفسه في المقام الأول، كيف يكون الطالب الأهلي متوجسا منه من قبل المعمر الذي هو لكوك؟

على العموم، يلاحظ الروائي أن الطالب ينتمي إلى البورجوازية الإسلامية خلافا لذهبية التي كان أبوها فقيرا . كان سكفالي بوربون ينحدر من أسرة غنية جدا . فالأب كان سمسارا وسيطا في الحبوب، ومقاولا في النقل، مخازنيا للنسيج والحياكة، ومقرضا بالرهن (راهن)⁽²⁾ . وكان الطاهر رمضان، طالبا آخر، داخليا في الطب، ابن قايد . إذن فهم وحدهم أبناء الأغنياء كان يمكنهم القيام بالدراسة المتواصلة . كان هذان الطالبان يرتديان الملابس على الطريقة الأوروبية . كان لكوك يصفهما هكذا : هما « مغطيان الرأس بالطربوش المبهرج المفتول، في سترات ضيقة وسراويل

¹ . Charle Courin : Café Maure , p . 25 .

² . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 52 .

ذات أنابيب مقصبة، عبارة عن زجاجة طويلة مختومة من الخمر الأحمر» (1) . مبدئياً، كان هذان الطالبان متهمين بعدم احترام العقيدة من قبل المحافظين « كان الشيوخ ذوو العمامات يحترقون ويزدرون الأتراك الشباب، الذين يغطون الرأس بالشاشية الساطعة اللامعة » (2)، كان يروي شارل كورتان في مقهى المور في 1939 .

ماذا كان مثلهم الأعلى، حسب رأي الروائيين الكولونيين؟ هل كان لهم منها واحد فقط؟ يبدو أنه كلا . لكن فلنستمع أولاً إلى لوكوك يقول: « كان الطاهر رمضان، داخليا في الطب، يحدد في بعض الجمل المهمة المقصرة، موقع صفه، وطموحاته، ومستقبله الكهنوتي الإكليروسي، حتى يجعل كل ذلك محسوسا مؤثرا و بليغا، كان يقدم مجموع مكافآت شرفية، عشرين ألف فرنكا في العام، على أية حال، بعد ستة أشهر من التنصيب» (3) . كانت الدراهم هي المقياس الوحيد لقيمه، « كل أصدقائه المسلمين يشعرون ببذرة من الغيرة والحسد، من الاحترام، الافتخار في كون الارتباط بالشخصية » (4) . إن الشغل الشاغل الأول للشباب المسلم المتعلم هو « أن يكون لديهم منصب ذو مكافأة و تعويض جيد » تؤكد لوسيان فافر (5) . ويكتب راندو، في المجلة الإفريقية، في 1940: « إن جامعتنا تمارس على أطفال البورجوزية المسلمة، جاذبيتها وإغراءاتها. فالشهاد والديبلومات التي تسلمها تؤدي إلى نتائج و محصلات ذات طابع عملي تطبيقي بحيث لا تحتقر ولا تستخف بأي رجل مثقف» (6) .

1 . Ibid , p. 130.

2 . C.Courtin : Café Maure , p . 14 .

3 . Luis Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 130.

4 .Ibid , p. 131 .

5 . Lucien Favre : Orientale 1930 ,p. 169.

6 . R . Randaud : Article cité , Afrique , juillet- aout 1940.

إذن، فهي توصل وتفرض إلى الصورة الشخصية من النخبة الأهلية في طريق الإدماج، قد تكون، لكن ما تزال « قليلة الاهتمام » جدا، حسب رأي ملاحظة الكتاب الكولونيين، لهذه الفترة . كانت هذه النخبة مجتهدة في نقل وتقليد العادات الثيابية اللباسية للأوروبيين . فهي مازالت في مرحلة تحول و انتقال، لكن فهي تبحث، خاصة، على إقامة احترامية جديدة مرتبطة بالقوة المستعمرة بما أنها مؤسسة على المال . إنه على الأقل هذا ما يظهره الروائيون الكولونياليون .

4/ تأكيد شخصيتهم الإسلامية من قبل المثقفين .

كانت، ما بين الحربين العالميتين، فترة حيث كثر فيها الكلام عن الإدماج، وعن « وحدة الثقافة ووحدة الروح » . فماذا كان منها بالضبط ؟ وما هي ردود فعل المثقفين الأهالي ؟

إن « أجسامهم تتصالح و تتلاءم مع الرفاهية ورغد العيش، و يسر ورفاهية أوروبا، لكن أرواحهم و نفوسهم ظلت ملقحة و مشبعة من اللاتسامح و التعصب ... »⁽¹⁾ . إن هذا ما كان يؤكد كورتان في مقهى المور في 1939 . كان لويس لكوك في خمسة في عينك، 1925، ولويس بيرتراند في أفريقيا 1930، وأوكتاف دييون في الجزائر المثوية 1928، وألبيرت تريفيموس في نزل السرسو، 1930،⁽²⁾ قد صرحوا بنحو من ذلك، ببضع عشر سنوات أكثر بالأحرى : فالمثقفون الأهالي لم يتخذوا من الحضارة الغربية إلا العلامات والإشارات الخارجية . فهم يظنون عربا

¹ . Charle Courtin : Café Maure , 1939, p. 225.

² . Luis Bertrand , dans Africa , en 1933. _ Albert Truphémus : Il s agit de l intellectuel Tahar dans le roman Hotel du Sersou , 1930. Truphémus est beaucoup plus nuancé . _ Octave Depont , ouvrage cite l Algerie du Centenaire.

حتى النخاع، وكانوا يعتزون بكونهم مسلمين . فهم يكبرون و يعظمون ماضيهم الخاص . « فالطب، كان يقول، رمضان، حسب رأي لكوك، قد كان دائما علمنا، وكان الأوروبيون يعيشون في الهمجية و البربرية، حيث كان ابن سينا، وابن رشد ما يزالان شهيرين ... إلى أيامنا هذه، كم من مريض فرنسي كان يلتمس من المجريين الأهالي، شفاء لم يكن يستطيع الأكثر شهرة من ممارسيهم ضمانها لهم ؟»⁽¹⁾ . ومن ثم يندد الطاهر رمضان، من خلال الوسيط لكوك ، بسرعة التصديق و سذاجة الأوروبيين، هم أنفسهم . من جهة أخرى، فكل روايات لكوك في مواضيع الأوروبيين، تظهر ما كان ضابط البلدية قد دونه من قبل : « إن العربي يشبه في ذلك كثير من المسيحيين الأذكياء جدا، خاصة كثير من المسيحيات من كل الأوضاع اللائي يتوجهن بالتتابع إلى الأطباء إلى التساعيين و إلى المروبيين (المرغنين) أي الحكمة و العقل، وإلى الله أو إلى الشيطان من أجل الإشفاء و التعافي من أمراضهم وآلامهم ... الموريس، واليهود، والإيطاليون، والاسبان، والألمان لديهم شافيهم و مطبهم »⁽²⁾ . إذن فتحليل لكوك يكشف هنا، عن موضوعية مؤكدة . فعلا، فهذا يتناقض مع الخطاب الذي كان يعزوه إلى بن ممل، في نفس الرواية . يريد الطاهر رمضان، المهان المخزي بوضعيته في المستعمرة، إذلال المعمرين بدوره . فهو يقيم نوعا من التوازن بين المجتمع الأوروبي

¹ . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 137 . Jean mélia , confirme les dires de Lecoq , il s agit de deux écrivains coloniaux donc , qui n ignorent pas la civilisation musulmane « par leur influence intellectuelle, ils (les arabes) ont ouvert à l Europe , le monde des connaissances scientifiques , littéraires et philosophiques qu elle ignorait et ont été nos civilisateurs et nos maitres pendant 600ans .» Dans la Patrie Française , La Patrie Algerienne , op , cit , p. 127.

² . Yvonne Turin , Op ; cit : p. 396.

والمجتمع الأهلي بالرجوع إلى تاريخ الحضارات . كانت حضارته لامعة . لم يكن رمضان إذن منخدعا مغترا، فهو يحس ولا يشعر بأي إعجاب واستحسان لهذه الطائفة المقترحة كنموذج على بن ململ، من قبل المؤلف نفسه . كان الطاهر ذكيا ومتفردا متميزا، يبدو قول لكوك . « إن الأهالي والأوروبيين، يواصل الطالب رمضان، يتوجهان كلاهما إلى مطبين ومشفين » . نحن نكتشف في العمل المذكور أنفا لإيفون تورين هذا الذي يؤكد أقوال رمضان : « جملة من التقارير لـ 1851، تعتبر أيضا وتتنظر بعين الرضى إلى علاج وإسعافات بعض الكسور، استخدام النباتات والأعشاب كالفساغ، والحنة، التي يستعملها طيب بونة (عناية) بدوره » ⁽¹⁾ . هكذا كان لكوك مطالعا جيدا عن الممارسات الطبية لسكان المستعمرة .

تعيد الكتابات الكولونيالية إلى الأذهان، إذن، أن المسلمين يؤمنون بالعلم كما يؤمنون بالطب، وخاصة منهم الرجال . كان هؤلاء أكثر عددا في ارتياد المدرسة الفرنسية . بخلاف النساء، اللاتي كان لديهن ميل ونزعة في ربط الطب بالخرافات . وهكذا كان عمر بوساح، مثلا، مثقفا . كان جاحدا و منكرا للشروحات و التفسيرات المقدمة من قبل أخته، في خمسة في عينك عن الأصل الخارق للعادة لداء السعار والكلب : « كان يشتم نوع من القصد في السخرية و التهكم، كان يقول، لكوك في الكيفية والنبرة التي كان ينطق بها الكلمة الشاذة الغريبة قائلا مكروب ». غير أن، لكوك يقدم انتقادات بالنسبة للنساء المسلمات، بوجه خاص، فلالة عيشة وميمي بن حسان في خمسة في عينك، كلاهما أميتان: إن العلوم والدين لا يكونان إلا شيئا واحدا . حتى بالنسبة للمثقفين الأهالي الأكثر تطورا، مع أن،

¹ . Yvonne Turin , Op , cit, Affrontemens culturels , p , 395 .

المؤلف يصرح أن الطب والخرافة، هما عالمان مازالا لم يتحددا بعد . فعلا، فالظاهر رمضان ألم يكن يقول: « عندك في جييك شيطان النوم، الأطباء يسمونه التخدير (مورفين)، والمرأة الجاهلة الأمية : تسميه شيطان : إنهما اسمان، كلمتان، لا يفسران شيئا »⁽¹⁾. وبالتالي كان لكوك، قد سجل جيدا، هذا النوع من الاجتثاث و الاستئصال الثقافي الذي يكابده، ويخضع له الأهلي في المدرسة الفرنسية. كان يكتب فيما يخص الطالبين الأهليين : « لم يكونا قط قد تأملا هذه الأسرار، الملاحية النووية الجريئة المخاطر بها منذ قليل في البحر المليء بالمخاطر من الافتراضات الحرة ومن مشاهدة تلاشي الساحل(الشاطيء) بالجوامد والمجسمات و مسكنات الروع والتطمينات الخرافية هذان اللذان كان قلباهما يعتصران و ينقبضان منه قليلا »⁽²⁾ . لم يكن هناك هدم وتخريب في هذه الحال بالضبط، لأن الطالب لا يريد أن يكون « مطروحا و مختلسا » من جماعته الخاصة . فهو يظل إذن بين عالمين متحركين : عالم « المورفين و التخدير » و عالم « الشيطان » . فعلا، كان المثقف المستعمرا أهلي في السياق الكولونيالي، مضطربا حائرا بما أنه ليس لديه إمكانية حياة اجتماعية تامة . فهو لا يمكنه التخلي عن القيم التقليدية لمجتمعه الخاص التي تنقذه و تخلصه من اليأس، لا سيما أنه لا يمكنه أن يلج المجتمع الأوروبي، هذا المجتمع الذي ظل منغلقا عليه (في حال ما إذا كانت له الرغبة في أن يكون جزءا منه) .

¹ .Luis Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 214 .

² . Luis Lecoq : Ibid , p . 142. L auteur rejoint « l opinion du Gouverneur général Lutaud qui dans son rapport du 14 juillet 1915revenait encore « sur les inconvénients de cette situation » ; « l indigène ... prend davantage conscience de sa mentalité musulmane et la distance qui le separe de nous » Ch. A . Ageron . Les Algeriens musulmans et La France » , op, cit. p. 884.

وقد يمكن أن إضافة أن « التأثير العقلاني، دائما أكثر بروزا من الإنسان على العالم الذي يستخدمه ويخضعه لحاجاته، هذه المواقف والوضعيات، تصدرها أوروبا حتى قبل أن تكون قد حصرتها وأحاطت بها . في هذا السياق الموسع، تكون المدرسة والطب هما الانعكاس والصدى، المحسوس المؤثر، بوجه خاص، لتطور يضع دائما نظرة دينية ما للأشياء موضع الاتهام »⁽¹⁾. إن هذا ما يبرز ويستخلص شيئا فشيئا من نصوص الكتاب الكولونيين أنفسهم.

كانت حركة الإنطواء والانكفاء للطاهر رمضان على ما يمكن أن يوحدده أيضا مع جماعته (المورفين والشيطان، كلمتان ...، لا تفسران شيئا) هي هنا ردة فعل عفوية و تلقائية للدفاع الذاتي، فهي وسيلة للمحافظة على « الوعي الجماعي » الذي من دونه لا يوجد أي شعب قط . يشار إلى المقال التالي في الجريدة الأهلية التقدم لشهر أكتوبر 1926، أن « الأهالي هم متأثرون بكل بادرة تعاطف وإئتناس بالنسبة للمستعمرين الأهالي، لماضيهم، ولحضارتهم : فالمتخبون والصحف الإسلامية، تهنئ الحاكم العام فيوليت الذي كان قد دعا و نبه الممثلين في الجزائر إلى أن عملية الاستعمار لا تشتمل فقط على خلق الثروة لكنها أيضا تشتمل على مساعدة، وحماية الشعب المحتل المغلوب »⁽²⁾. يمكن أن يسترد أيضا لحسابنا و لصالحنا، ما كان يكتب لويس فيدال ناكي في جريدة الموند ليوم 13 جوان 1967، ملمحا و مشيرا إلى الوضعية الفلسطينية، « هؤلاء العرب هم مندمجون في الحركة الضخمة الهائلة التي وصف فيها السيد م. فانون العلامة الأساسية :

¹ . Y . Turin .Op , cit , p . 417 .

² . Attakadoum du mois d octobre 1926, cf M. Kaddache , op , cit , p. 150 .

الرفض الساخط الحائق، دموية القيم الجارحة المهينة للغرب التي نادرا ما تكون بالنسبة إليهم، إلا لازمة ونتيجة طبيعية للازدراء وللاحتقار وللسيطرة والهيمنة»⁽¹⁾.

فهذا بالأحرى صحيح أن المثقفين المسلمين كانوا قد اعتقدوا و صدقوا في وقت ما ، بمبادئ الحضارة الفرنسية، ليكتشفوا سريعا جدا، أن هذه المبادئ لم تكن أبدا قد احترمت، وأن السلطات الكولونيالية تسخر منها و تهزأ بها . « فالمثقفون الأهالي كانوا يتكلمون ويتحدثون عن سحر و جمال فرنسا، فقد كانت بالنسبة إليهم، بلد إعلان و إقرار حقوق الإنسان » كان يكتب، شارل كورتان⁽²⁾ . كان هناك تناقض فاحش و كبير بين هذا البلد والمستعمرة حيث كان سكفالي يتأكد و يسجل بمرارة أن « الظلم و الجهالة كانت هي قوانين العالم »⁽³⁾ . ما يؤدي بسكفالي إلى رفض الحضارة المزعومة المدعاة التي ترسخ وتلقن له في المدرسة والتي لا تطابق ولا توافق الواقع الراهن . و مرة أخرى يقوم لكوك بمعاينة فشل وإخفاق . ألم يكن يتكلم على سكفالي : « ألم يكن يكفيه أن الاستغراق في الأحلام في التحريض على كتب الروامى ؟ » وبالتالي، فالنقل والتحويل من المعلم

¹ . Y . Turin : cite le monde du juin 1967 dans l'affrontements culturels . Op , cit , p . 412 . Ch . A . Julien relève « la condescendance méprisante avec laquelle le plus illettré des Européens traitait l'intellectuel musulman » ,op , cit , 39 . Jean Méliá , quant à lui , écrit « il faut donner à chaque culture la part qui est due . Il n y a aucune humiliation à reconnaître que la civilisation musulmane eut dans le monde une influence immense et qu elle n est due qu aux Arabes » . Dans la Patrie Française , . La Patrie Algerienne . Alger , la Maison du livre , p.128.

² . Charle Courtin : Café Maure , p. 91 .

³ . Luis Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 223.

الكولونيالي المعمر إلى الطالب العربي لم يقع ولم يحدث. إن التعليم، في الوضعية الكولونيالية الاستعمارية لا يمكن أن يؤدي « دوره في الترشيح والتأثير» بفعالية في الكتلة الأهلية، يبدو قول لوكوك . فهذا التعليم هو نفسه غير متحكم فيه ولا معد لهذا الغرض . وتوجد نفس هذه الشهادة في **فرحات المعلم الأهلي 1935**، رواية ألبرت تريفيموس مفتش ابتدائي في 1925، في الوقت نفسه حيث كان لوكوك يصدر روايته . ويعبر تريفيموس عن خيبة أمله السرية من فعل رؤية المبادئ الملقنة إلى الشباب الأهلي، لا تحترم من قبل السلطة الكولونيالية . وهكذا يخضع لوكوك إيديولوجيته الخاصة إلى اختبار قاسي . أليس هذا تناقضا؟ ومن ثم في هذه الظروف، لا يمكن أن يكون إلا تمزقا ثقافيا وليس إدماج « النخبة الفرنسية » . لماذا كان لوكوك يصل إلى طريق مسدود؟ لأن الأوروبي لا يريد حقا، كما لا يمكنه من جهة أخرى، «إدماج» الأهلي مهما كان. قد تكون الوضعية الكولونيالية معدلا فيها، فالظاهرتان كونهما متناقضتين ومتعارضتين .

لم يكن لويس لوكوك، السجين المترهب في النظام الكولونيالي بإمكانه إذن إلا التشديد والالتكاء على السمات، والملاحم غير الملائمة المناقضة للطلبة من أجل أن يثبت و يقيم الدليل على أن التحرر والانعقاد لم يكن تاما ومن أجل ألا تختفي وتتوارى العلاقة الكولونيالية . كان أحد أصدقائه، لوسيان بيلاز معلقا على **خمسة في عينك**، يكتب هذا : « يظهر لوكوك إلى أي درجة أن بن ململ، موظف الحكومة، سكفالي بوروبون، الكسول الخامل الانفعالي، وحبيب يوسف كاتب عمومي، ومزخرف الصناديق، حتى الطاهر رمضان طالب في الطب، المنتفخ المتبجح مع أنه مغموس ومستحم في العلوم و المعارف الفرنسية، فهم يشوهون و يحرفون نص المبادئ

أو الوقائع من أجل الترتيب والتدبير لها، وبلورتها حسب متطلبات ومقتضيات جنسهم : وضعها وتصنيفها في خانة من غير تباين وتنافر مع تخاريب (حويصلات) الثابت المستقر في حضارتهم المتحجرة . هذا الإنجاز في التحريف، كل شيء يصبح واضحاً إلى أبنائهم الكبار الذين يعتقدون في الانتفاع من نظرياتنا «⁽¹⁾ . إذن، فمجموع المراجع والإحالات، وسلم القيم بالكامل كانت مختلفة . إن المجتمع، والحياة كانت لهما معنى آخر مغاير وهدف آخر بالنسبة لكل جماعة . ربما قد لا يكون لكوك ولوسيان بيلاز، معدين و مهئين إلى « نظرة دينية للعالم »، التي تكون حتى صعبة عليهم في الاستيعاب و الفهم . لم يكن المسلمون لا هم مع الحضارة الغربية ولا هم مع خصومهم « هذا الإعجاب الطافح الذي كان الفارق فيه صارخاً في الرفاهية وفي القوة في صالحهم، كان لا بد من أن يجر ويجرف »⁽²⁾ .

وهذا ما يسمح لنا أن نؤكد على أنه لا يوجد هناك انفتاح و انفراج ما إلا نادراً بين هذين الجماعتين . غير أن توهم « امكانية أخلاقية » للانفتاح تلح و تستمر لدى الأوروبيين، ولدى لويس لكوك مثلاً . وعلى العكس من ذلك، فالمسلمون، هم، قد سبق لهم أن قاموا باختيارهم داخل السياق الكولونيالي: ليس المدرسة والطب، مقبولين ومسلماً بصحتهما فحسب . بل هما متمنيتان و يطمح إليهما . إن ذهبية فخورة بكونها تذهب إلى المدرسة . والظاهر رمضان، الداخلي في الطب، كان قد اكتسب الثقة بالنفس وكان يدافع عن الحضارة العربية الإسلامية، حضارته الخاصة .

¹ . Lucien Pelaz : Afrique , novembre , 1925.« commentaire de Cinq dans ton œil , de Luis Lecoq » .

² . Yvonne Turin :Op , cit , Affrontements culturels dans L Algerie coloniale ,p. 140.

وهكذا، كان الجزائريون المسلمون، يصبون و يتطلعون إلى التقدم في التعليم وهذا من غير تنكر لماضيهم الخاص، وشخصيتهم الخاصة⁽¹⁾.

ويخضع لكوك في النهاية للأمر الواقع ويطلب في 1927، من المجتمع المسيطر المهيمن ومن السلطات « أن يكون لديهما الحصول على علاقة، كعلاقة أخلاقية بما أنهما لا يستطيعان أن يكون لديهما الحصول على تلك العلاقة الدينية، وتلك العلاقة الإنسانية والتقدمية»⁽²⁾.

في 1931، كانت الحصيلة تبدو دائما سلبية « لو أن الرغبة والأمنية في الاتحاد من خلال الفكر، و من خلال التعاطف و التوادد، كانت تتسرب و تتسلل إلى الكولونيين، وإلى الصناعيين، والتجار، والخواص، كان يكتب، بيار فيلان، في الأفريقية، مهمتهكم و دوركم، فنانون ومفكرون قد تكون أكثر يسرا بكثير. لكن ... »⁽³⁾. وتكشف هذه الـ « لكن » عن تشاؤم وتطير واضح ... ويثبت هذا التشاؤم و يستمر دائما، في 1939، في عمل شارل كورتان، مقهى المور. وتفضي روايته الأخيرة، هي نفسها أيضا، إلى مأزق. فألبيرت كاموس، وإيمانويل روبلس، وجبريال أوديزيو، وجيل روي، وكتاب كولونياليون من «مدرسة الجزائر»، الذين استخلفوا وورثوا « الجزائريين »، ابتداء من 1935 — 1957 يتخذون بعدهم و مواقفهم، ومسافتهم إزاء المشاكل الجزائرية « اللاهبة جدا » آنذاك .

¹ . Ch . R. Ageron : dans Les Algeriens musulmans et la France fait reference à Desparmet Jean et relève « Les poetes algeriens et notamment ceux cités par cet auteur (Elegie e Satires politiques , J . Desparmet) ne tarissaient pas en effet d indignation contre cette civilisation (occidentale) construite sur le renversement des lois et habitudes de l Islam , ce monde ; à l envers matérialiste et athée , attaché au culte de la force et de l argent , veriable défi à la raison » .Op, cit , p.1026.

² . L . Lecoq :« L Algerie en France » , Afrique , 28 juin , 1927.

³ . Pierre Valin : « L àme algerienne » , Afrique , novembre , 1931.

في 1938، قد أخذ الحزب الوطني الجزائري الـ (ح . ش . ج) (حزب الشعب الجزائري) زمام المبادرة والتفوق نهائيا . ولم يعد موضوع الإدماج قط من الأمور التي يتشرف بها.

فلوما تناولنا، الآن، دراسة الجماعة الأوروبية هي نفسها، من خلال شتى الروايات لهذه الفترة التي تهمننا وتشغل بالنا .

ج / تصوير ورسم الجماعة الأوروبية : حقائق الأقلية المهيمنة المسيطرة .

وهكذا فإن القيم الغربية الممثلة مبدئيا، من قبل أوروبيي الجزائر، حسب رأي عدد من الروائيين، كانت قد رفضت، ونبذت من قبل المسلمين . « فالغزو المعنوي الفكري » لم ينجز ولم يقع . يذهب المؤلف لويس لكوك، أيضا أبعد في اكتشافه للحقيقة الجزائرية : إنه من الممكن أن تفشل « المهمة الممدنة و المحضرة » لفرنسا . فعلا، يقول، إن نوع العمر الذي يعيش في الجزائر لا يضطلع ولا يؤدي « الدور المتقل والآيل إليه من قبل القدر : قدر ومصير هذا الإنسان المتفوق، ابن الجنس المنتصر الغالب » . ويرفض لكوك هو نفسه، أن يتعرف على نفسه، في الصورة الشخصية « لفرنسيي الجزائر » المنشورة والموزعة من خلال الصورة الكولونيالية . إن المجتمع الكولونيالي الذي يرسمه بواقعية والذي يتخذ شكل الشهادة ، لا يمكن أن يكون مقدما كنموذج إلى الشريك المسلم . ولا يمكن بأي حال من الأحوال، « أن يضطلع بسيادة وهيمنة فرنسا في الجزائر » . فهو يجازف حتى في الذهاب ضد « المصلحة الوطنية الفرنسية » معرضا وجود هذه المستعمرة للخطر .

يلتزم عمل لكوك المنظور إليه من هذه الزاوية، ويرتبط بقضية هي على النقيض من البحث عن التهرب والتخرص . كان ذلك قد سبق

أن شوهده في مجرى دراسة إيديولوجيته. فهو يجري بالتوازي مع التبرئة والتسويغ، والتمجيد للمؤسسة الكولونيالية بالعمل على تصوير و وصف «عاهات و نقائص» الأهالي. كان هذا داعية و متشيعا للإمبريالية، قبل كل شيء، كان قد اتخذ مكانه و أقام داخل نظام لا يحكم عليه ، بل يستعرضه، ويدعو له ويدافع عنه . مما يندد ويشهر به، هنا، في أي شيء يصبح هذا مهما من جهة أخرى، إنهم الرجال الذين يجب، حسب رأيه، إن يجلبوا و يسهموا في خيرات و محاسن الحضارة، لأنه بالنسبة للجزائريين حسب « الغرض المصرح به »، فالتوسع الكولونيالي أليس هو عملا إنسانيا ؟ فهذه الحجة، كان لكوك يريد لها ألا تدحض ولا تجادل، إذ أن مواطنيه لم يكونوا متأثرين بأي مثال، هذا ما يترجم في عدد كثير من كتاباته . إنه قد انضم والتحق بذلك بكتاب آخرين يباشرون و يقومون بالتنديد والتشهير بـ « تعسف و ظلم المعمرين » : ويتعلق الأمر بلوسيان فافر، وألبيرت تريفيموس، وماكسيميليان هيلر، ولويس لوكوك، وشارل كورتان ... كل هؤلاء الكتاب يعيدون إذن، طرح مناقشة « الكفاءة والأهلية الاستعمارية الكولونيالية » إذا صح هذا القول، لأوروبيي الجزائر، فماذا كان يجب عليهم أن يقترحوا آنذاك ؟

1 / تفوق « فرنسيي الجزائر » كان أسطورة (خرافة): عنصرية ومعاداة السامية.

إن المجتمع الأوروبي لا يمكن أن يكون مقدا للأهالي كمثال وكنموذج، يقولون . فالعديد من رواياتهم تترجم، بقوة هذه الحقيقة . فعلا، فهم يؤكدون أن الأوروبيين، في الجزائر الكولونيالية، يتقاسمون بعض السمات والملامح السلبية مع الأهالي . فمثلا، تلك السمات التي تتعلق بالخرافة كانت مشتركة بينهم . فلالة عيشة، الزوجة الأولى لابن ململ، كانت

تعتقد في السحر و الشعوذة : « يجب أن تعرف القيام بعمل خمسة في عينك ⁽¹⁾ التي كنت قد حدثتك عنها اليوم كذلك ، كانت تقول لزوجها ⁽²⁾ . إن الأوروبية، هي، مثل لاسيا سامبوريتا ، تعتقد أن ابنها كان قد سحر من قبل امرأة « قدر، إنه قدر كان قد قذفه ورماه بها » ⁽³⁾ . وبالتالي فهناك تشابه في الاعتقادات في الوسطين : الأهلي - الأوروبي . فلوسيان فافر تشهد بها أيضا في المشرقي 1930، و باب الوادي 1926، وفي القصة 1937 .

إن الأوروبية، مثلها، مثل المسلمة تماما، تتعاطى الدسييسة والمغامرة الغرامية . فميمي بن حسان، المرأة الثانية والصغيرة (الشابة) لابن ململ، كانت قد دفعت، و انسقت إلى الزنا، وهو كذلك نفس الشيء بالنسبة للفرنسية، خطيبة بيبي . سامبوريتا، الأم، محذرة ابنها « هناك منذ مدة طويلة، إنها تسخر منك و تستخف بك ييب، هي تجعلك تجري، وهي تنام و تضاجع شيخا » ⁽⁴⁾ . إلا أن، هناك فرقا بين الجماعتين : فتقاليد المسلمة تقيها و تصونها من هذا الانحطاط الخلقي، كان قد قال لكوك، أنفا . من جهة أخرى، لم تستحضر لوسيان فافر ولم تتصد لـ « هذا المظهر » في رواياتها، فهي ليست أكثر من تريفيموس.

إن نساء الجماعتين يخبين أيضا الهدايا . فذهبية توصي و تحث بروميتش خطيبها : « تجلب و تحضر لي العطر و تقدم لي وشاحا أسود » ⁽⁵⁾ . وكانت ميمي قد قبضت مهرا بـ « خمس مائة دورو، قلادة من الذهب

¹ . Khamsa filainek , peindre la main sur la porte contre le mauvais sort.

² . L . Lecoq : Cinq dans ton œil , p. 13 .

³ . L . Lecoq : La Marque , p. 89 .

⁴ . Ibid , p . 103 .

⁵ . L . Lecoq :Broumitche et Le Kabyle , p. 33 .

عليها صورة نابليون، وفضلة قماش أطلس ساتان مقصب وعشرة منادل من الحرير»⁽¹⁾.

أما لاسيا سامبوريتا، فهي تثن و تتحسر « آه، النصائح الإرشادات الجميلة التي تقدم له ... لا بد له من الدراهم، ومن التنزه و التجوال، ومن الهدايا»⁽²⁾. فعلا، فقد كان ابنها، بيبي، من أجل إدخال السرور على « الفرنسية ذات الأصل الفرنسي»، قد سرق معلمه، وكان قد خطط مرة أخرى للسطو على أرملة ثرية مع غلامين سيئين، أخيرا، ذات مساء آخر، كان قد ضرب أمه بالسياط لأنها كانت تعظه و تنصحه . لم يكن العالم الأوروبي متفوقا و أعلى، هيهات أن يظهر ذلك لكوك .

ونعشر على نفس الموضوع في *لون الإغاف*، فجاكلين سماجيل تعاني من غزل و تملق مديرها القديم، الشيخ، موفوازان . « ما العمل، فكرت، حياتها المادية للتيتم كانت لا ترتبط ولا تتوقف على هذا الشخص؟»⁽³⁾. وهكذا فالدراهم والخرافة تهيمن في الواقع، على الجماعة الكولونيالية المعمرة.

إن هذه أيضا تلجأ إلى الشعوذة وإلى السحر. لاسيا سامبوريتا تعرف، يلاحظ لكوك، « أنه من أجل الإمساك و المحافظة على الرجال، يخلط بعض النساء لهم في مشروباتهم الأشياء الأكثر تقززا و قذارة»⁽⁴⁾، فهي تذهب، أيضا، لدى فيليب « صانع المعجزات الوجه الفظ للطوريرو (Torero) أو تاجر البغال حيث كان لا يظهر أي شيء من حرفته المرعبة و حيث كان يخلط السحر والطب الخفي، العرفي الممنوع، وديا»⁽⁵⁾.

¹ Cinq dans ton œil , p. 41 .

² . L . Lecoq : La Marque , p. 89 .

³ . L . Lecoq : Couleur d agave , p. 125.

⁴ . L . Lecoq : La Marque , p. 106.

⁵ . Ibid , p. 106.

لكن، كان على المؤلف أن يوضح بدقة، فيليب « كان حارسا و حافظا لتجارة الأرواح والقيام بالدخول العابرة والتجاوز إلى ما وراء، إلى العالم الثاني، مثل الكفار الموريس أو اليهود»⁽¹⁾. حتى في هذا الميدان الساطع قليلا، فإن صانع المعجزات الإسباني يعلن متباها بتفوق ديني الذي هو، هنا، لم يكن شيئا آخر إلا معاداة للسامية، مطبوعا و مدموغا « فهو لا يسهل، كان يقول، التحالف مع الشيطان»⁽²⁾.

ويقوم لكوك بالتلميح إذن، إلى ما كان قد لاحظته هو نفسه في المستعمرة. إن المظاهرات المضادة للسامية التي كان لابد أن تقع بعد ذلك، تؤكد من ثم، أقواله. تبرز ماكسيميليان هيلر، وهي روائية كولونيلية أخرى، من أصل يهودي، التباعد و الاختلافات التي تفصل الإسرائيليين عن الباقي من الجماعة الأوروبية في البحر الأحمر، الصادرة في 1923. فهي كانت ترجع و تحيل في ذلك، إلى التاريخ وإلى الأحداث المضادة للسامية في نهاية القرن الماضي الأخير.

وسيتجاوز لكوك مرحلة أخرى: فالأوروبيون هم أنفسهم كانوا ضحايا تدهور و انحطاط العلاقات الاجتماعية. وسيصبح ذلك طابع و سمة لهذا المجتمع حيث واقع الجنس يسجل علاقات مقررة و معينة سلفا بينهم. ويقول لسان حال لكوك مع جبريال أوديزيو « سوف أحتج أيضا بقوة و بشدة ضد هؤلاء الذين كانوا يبحثون و يفتشون عن هذا الإحساس والشعور بالعرق و الجنس في الجر إلى عنصرية أخرى»⁽³⁾.

وقد سجل حكم عنصري مسبق آخر في قيام الموتى. يتصور لكوك أن عظام موتى تبتعث وسط قرية استعمارية. في ضوء العلوم، السر

¹ . Ibid , p. 106.

² . Ibid, p. 106.

³ . Gabriel Audisio : Jeunesse de la Mediterranée, p . 16.

واللغز الخفي يتبدد ويزول، لكن التفسير و التأويل لا يطمئن أحدا . بالنسبة للقرويين، ثلاثي، ميساني ، ثني، تغضن لا يهم . فالوحيد بن زكون، اليهودي هو الذي يبقى صانع و باعث السوء والشؤم المشترك والسخطة العامة . إن خروج ورحيل الديوثتين يبتدىء إذن وميرلوكس الكبير، الكولون يطلق صراخ غله وحقده العام، فهو يصيح و يعوي من الغيظ و الحنق الذي يُحتمق و يضيق الكل منه : « لو أمسك به، ذلك تباله، يهودي السوء و النحس هذا»⁽¹⁾ . وبالعكس من ذلك، عندما يتعرف على الهياكل العظمية الرومانية، «أسلاف وأجداد الأوروبين» يقول، فهو يوضح فكرته و يعبر هكذا: « هؤلاء الرومان، هؤلاء الإغريق هم مواطنون تقريبا، كونهم قد قتلوا ودحروا من قبل أولئك الأقسام لا خزي و لاعار، لا إذلال و إهانة»⁽²⁾ .

إن الكارثة و النكبة تعزى وتنسب عموما إلى طي و تغضن وانكسار أرضي مخرجا على وجه الأرض معظمة رفات (Ossuaire) كبيرة، إذ أنه، كما قد شاهدنا و عاينا ذلك، كانت التأويلات و التفسيرات قد أعدت، حسب العادات العدائية . فالأوروبيون المعادون للسامية يشيرون أكثر من مرة إلى خطر اليهود، « بن زكون كان يخرج الموتى من القبور، من أجل سلبهم، كانوا يؤولون»⁽³⁾ . كانت هذه الشهادة مطابقة لشهادة ماكسيميليان هيلر . تنقل هذه في البحر الأحمر، نهب و سلب الحي اليهودي، من قبل الأوروبيين المؤيدين من جريدة **صرخة الكولون** : « إن غزوا يهوديا يهددنا » كانت تكتب هذه الصحيفة⁽⁴⁾ . يضاف إلى هذا أنه، كان من العلانية و من الشائع للعامة في المستعمرة أن اليهود كانوا رباويين . إن لوسيان فافر،

¹ . L. Lecoq :La levée des Morts , p . 16 .

² . Ibid , p. 186.

³ . L . Lecoq :La levée des Morts , p. 169.

⁴ . Maximilienne Heller : La mer rouge , p. 290 à 292.

تماما مثل ماكسيميليان هيلر، ولويس لوك، تسجل هذا الاتهام من الأوروبيين في *المشرقي* 1930، « إن اليهود هم رباويون»⁽¹⁾.

وبالمقابل، يترك الطبيب ترانك، من أصل هنغاري، معمر، في رواية *قيام الموتى*، ويدع الشك في « مناورة الوطنيين العرب ضد السيطرة الفرنسية»⁽²⁾. لقد كنا قد رأينا أنه في 1927، كانت هذه الحركة الوطنية تقلق و تشغل بال لكوك نفسه كثيرا .
تجاور (تجميع) لمختلف السكان الأوروبيين : مجتمع مركب، مقسم (مقطع) ومفصول عن بعضه .

وهكذا، كانت، بعض التوترات والاضغوطات، في المجتمع الأوروبي، تتضح و تتجلى . وذلك يسمح لنا بأن نقول مع أغلبية الكتاب الأوروبيين للمستعمرة، إن المجتمع الأوروبي كان مفككا، مركبا و مفصولا في نفس الوقت عن بعضه البعض . فعلا، نرى من خلال أغلبية الروايات : شخصيات من الإيطاليين، ومن الاسبان، التي لم تندمج تماما مع الفرنسيين : « فالاسباني الزنجي مع أنه يتكلم بصعوبة لهجة إقليمية مازال يخفض أيضا من صوته »⁽³⁾ . إن لاسيا وفيليب يحتقران الفرنسيين، « تعالى، فيليب، تعالى، ترى، كانت العجوز تسخر، انظر الجبة القصيرة، هل النساء الشريفات العفيفات تتبرجن هكذا؟ » يعتقد فيليب أنه من الواجب من جانبه أن يشرح : « إنها فرنسية»⁽⁴⁾ . فداخل المجتمع الأوروبي، كل مجموعة تحافظ و تقيم مع الآخرين علاقات مبهمة غامضة . « إن لاسيا سامبوريتا لا تريد موت أي أحد، تقول، لكنها تريد فقط أن ابنها ينفصل عن جارية فاجرة

¹ . Lucienne Favre : L Orientale 1930 , p. 65 .

² . L . Lecoq : La levée des Morts , p. 170.

³ . L. Lecoq : La Marque , p.93.

⁴ . L. Lecoq : La marque, p. 83.

تغويه و تغريه ، وما تطمح و تتوق إليه، هو أنه فيما بعد، عندما سيصبح شيئاً آخر غير نصف عامل، يتزوج فتاة من بلده، من عاداته و تقاليده ، من لغته، مطيعة، و ممثلة لأمره و عذبة ظريفة محترمة، تجاه (la madre الحماة، عاملة شغالة و عاقلة عفيفة)⁽¹⁾ . يضيف الروائي، في سامبورتا ينمو و يكثر « الحقد و الكره للأجنبي، فهي تكره و تمقت من لا تعرفه، وكل ما يكون مختلفاً عنها فهو معاد »⁽²⁾ . كان هذا ضمناً تماماً، ليس الأوروبيون لا يبذلون جهداً للاندماج في «فرنسي فرنسا» المقيمين في المستعمرة، فحسب . بل يعتقد فليب ولاسيا أكثر أيضاً أن أخلاقهما وعاداتهما أفضل ويريدان أن يتمسكا بالمسافات و الابتعاد مع « الفرنسية » . وبالتالي، فإن تجاور و تجميع مختلف السكان لا يمكن إلا أن يثبت و يستمر هكذا .

يرفع لوكوك الحجاب و يزيل اللثام عن الطوباوية و السراب . نحن بعيدون، عندئذ، عن « المعمر الكامل التام، المثالي »، لا بولبان في خمسة في عينك . وهكذا، يفضي المؤلف، شيئاً فشيئاً، من الخرافة و الأسطورة إلى نوع من الموضوعية و النزاهة في الحكم . و منذ ذاك الوقت، لم يعد يتعلق الأمر بمواجهة و معارضة المسلمين الجزائريين، صورة شخصية تامة، متمنجة (متأمثلة) للمعمر الذي كان يجعل بن ململ يصرخ، مفعماً بالإعجاب : « يحيا الروامي، فكل شيء جلي لديهم » فالوهم يتلاشى و يزول، و الحقيقة تخلفه و تعوضه .

لماذا يدعي المعمر الوضوح ؟ لا يتعلق الأمر قط بمعادة الاستعمار . إن الأوروبيين المذكورين هم ليسوا ضد الكولونيين على العموم لكن ضد أولئك الأوروبيين كما هم (على علاتهم) آنذاك . لم يكن الأمر، في أي

¹ . Ibid,p. 101

² . Ibid , p. 101

وقت، إعادة التفكير في النظام، بل على العكس من ذلك، إن هذا ما كانوا يريدون الدفاع عنه قبل كل شيء . لكن لويس لوكوك، مثلا، يؤكد و يسجل أن الاختلافات و التباينات بين المجموعات، حتى بين الطبقات، فإن المعاكسة والتنافر الشديد بين الأجناس، يزداد و يتفاقم أكثر فأكثر، مما يذهب بخلاف و بعكس مثاليته، بالأحرى إيديولوجيته و ضد السيطرة الفرنسية . وتبرز انشغالاته و قلقه ترشح بوضوح من خلال تنديداته . إن اتخاذ هذا الموقف سيسمح له أيضا بتسجيل عزلته صراحة بالنسبة لهذه الجماعة التي نموذجها لم يكن أبدا نموذج و مثاله . فهو لا يتردد ولا يحجم عن أن يصف جحيم و سعيير المواجهة بين الجماعتين، من أجل هز و زعزعة، إن لم يكن إرعاب و تخويف الأوروبيين . وقد يكون أيضا من أجل إثارة و إيقاظ « نوع من الإنسانية من جانبهم ومن جهتهم » أكثر، إزاء الأهالي . كانت الرسالة واضحة . قد كان يتمنى « استعمارا أقل فظاظة و قساوة وأكثر ذكاء » . مع أن، الوقائع كانت هناك . فهو يواجههم و يتصدى لهم بعزم و حزم . ويشير في نفس الوقت مع لوسيان فافر و ماكسيميليان هيلر، إلى أن المساكنة والتعايش لمختلف السكان تنحرف و تتجه أكثر فأكثر نحو العدوانية .

وسيزدهب لويس لوكوك بعيدا حتى في تنبؤ و تكهنه، فهو يحذر من أن العنف يوشك أن يتجاوز إطار الكلام و المشاعر، من أجل التسجيل في الأفعال . وهكذا، نرى الحسن، المسلم، في كل سائل ينحدر إلى الأسفل، يتبع الهواري « المارق المرتد » من أجل قتله، لأنه خالف و انتهك قواعد الدين . « فهو يتحسس في جيبيه، يقص لوكوك، مدية عريضة، من الصفيح المطوي والصلب مثل الخنجر »⁽¹⁾ . كما أن لاسيا تشد و تضغط على الخنجر الذي راح ابنها في تحريضه، يضرب به « الفرنسية »، من أجل تبديد و إزالة السحر⁽²⁾ . نحن

¹ . L . Lecoq : Tout liquide suit la pente , p. 158.

² . L.Lecoq : La Marque ,p. 83.

نشعر، ونشتم بوضوح، من خلال هذه القراءات أنه يزجر ويدمدم في أعماق القلوب، الخوف والهلع من « الآخر»، الإزدراء والاحتقار لأخلاق وتقاليد « الآخر»، أخلاق الذي لا يعرف، الذي لا نحاول معرفته، من جهة أخرى. بل بالعكس من ذلك، نحاول حفظ أنفسنا منه ونتقيه من كل تأثير بكل الوسائل، بما في ذلك الموت والاختيال .

وبالتالي، فروايات لكوك تهز وتزيد من تفعيل توترات وضغوطات الأحداث الراهنية، والحوادث الجارية، فهذا يمسك بالقلم وينقل إلى القارئ وإلى فرنسا انشغالاته وقلقه، لأن الأمل غالي و ثمين على قلبه، يعني أن انصهار و ذوبان السكان الذين يتعايشون في الجزائر، لا يمكنه أن يتحقق في تلك الظروف . منذ 1921، كان يكشف في *الحريق* عن أمنيته في « الإدماج، هذا الحلم الذي كان يمكن أن يصبح حقيقة »⁽¹⁾.

لكن، ما الذي يبقى من هذه الطوباوية في 1928، عشية الذكرى المئوية؟ في الوقت الذي كان ينشر فيه مصنفا من أربعة حكايات بعنوان *شمس* . ويقوم في إحدى هذه الحكايات، *شيطان العدل الحق*، بالإخبار عن مرارته للقراء، فكل شيء يثبط ويوهن عزيمة و هممة الفرنسي في الإقامة في الجزائر. فدرونيت « فرنسي من فرنسا » لم يتمكن من الحصول على مكانته لأنه مستقيم ونزيه، طيب القلب وسمح . ومن ثم، لا يمكن إلا أن يكون ضحية الاختيار لأن « الحيلة و الخديعة، والمراوغة، و سوء النية الثابتة والممنهجة، كانت تطبع هاو تسم بسهولة، المغامرين المتوسطيين، وكانت تقود و تجر فرنسيي فرنسا إلى مستواهم قليلا، قليلا »⁽²⁾ . وبالتالي فإنه على النقيض، من بيرتراند الذي يؤكد في *بيبيت وبالتهازار* : أن « جزائريا مثل بيبيت كان متفوقا، بصفته قيمة اجتماعية، على صعلوك

¹ . Luis Lecoq : L incendie .p.102.

² . Luis Lecoq : Le Demon du bon Droit , p. 64.

بلوريتاري كادح ميتروبولتاني، ملغم بالكحول والسل، مندهل و مضطرب من جراء ضغط صحافة، حمقاء، ... مستعبد، معزول و منحط ...»⁽¹⁾ .
 ويتفق بالمقابل، بومي ولكوك في هذه النقطة : « آت من فرنسا بمتاعه القليل من المبادئ الكبرى، ومن التقاليد القديمة، وثروة العائلة، يسجل بومي، إن القادم الجديد، ما يكاد ينزل، حتى يتوقف، مفتتنا بالمناظر الطبيعية، وبمشاهد الجمال و الزينة . تدوم النشوة و الإعجاب الشديد، والانهجاب حسب الأشخاص من خمسة عشر يوما إلى ستة أشهر و بالضبط إن لم يعد يحزم حقيبته في المبدأ ويعيد ركوب الباخرة»⁽²⁾ .

لم يبق، بالنسبة لدروني أكثر إلا الذهاب « ثم، في الساعة، إلى فرنسا، محمد، في بلدي، بلدي أحسن من هنا »⁽³⁾ ، كان يقول، لرفيقه في البؤس، محمد بركي . إن الفرنسي لم يكن يستطيع أن يتكيف مع الوسط البسيكولوجي النفسي للمستعمرة، في حين أن الكولون، مثل الكبير ميرلوكس، في قيام الموتى، يبحث عن التصديق والإقرار شرعا لعائداته وكسبه بالعودة والرجوع إلى ماض أيا كان « ذلك الماضي الذي كان للإغريق والماضي الذي كان للرومان » . ويظهر ميرلوكس الكبير، بوضوح، معاديا للسامية، فبن زكون اليهودي، كان حسب رأيه أصل الشر و النحس في القرية. لكن ما القول عن غله وحقده و ضغينته بالنسبة للمسلمين : « كل ذلك، كان يقول، يصعد ثانية، يزدهر و ينهض كان هذا بقية الجنس العدواني من الجدبان المرابين كثيرا جدا، ومن الدهاة الماكارين جدا، المزعجين جدا بعد موتهم كما في حياتهم»⁽⁴⁾ . إنه كلام نادر و شاذ بما فيه الكفاية من جانب الكتاب

¹ . Luis Bertrand : Pépète et Balthazer , Paris , Albin Michel , p. 221.

² . Jean Pomier : « Attitudes devant l Islam ; celle d Etienne Dinet » , Afrique , fevrier 1930.

³ . L. Lecoq : Le Demon du bon Droit , p. 64.

⁴ .L.Lecoq : La levée des morts ,p. 159.

الكولونيين. لكن لكوك لم يعد، هنا، هو ممثل المعمرين، بل هو ممثل فرنسا الإمبريالية : هل يستشعر ويتوقع حقا المخرج و النهاية الحتمية ؟ إن الصدام بين الجماعتين كان مرتقبا . نحن لا نستطيع أن ندفع بالتأويل أبعد ...

3/ الشعور بـ « معاداة الفرنسيين » من أوروبيي الجزائر.

يندد لكوك أيضا بالتناقض والعداء بين « فرنسيي الجزائر » و « الميتروبوليتانيين » . إنه واقع موجود، فالمؤلف كان قد شعر بذلك في 1921 . فهو يكتشف في شروق 1921 من أن « مئوية الفتح و الغزو »⁽¹⁾ مازالت لم يحتفل بها وأن التباينات تظهر و تبرز في الجنس المنتصر الغالب بين أبنائه المقيمين المنبثين في المغرب وهؤلاء المقيمين في أوروبا⁽²⁾ . كان هذا الموضوع قد أسترجم في 1928، في العلامة، فلاسيا سامبوريتا كانت معادية لخطيبة بيبي، ابنها، لأنها « فرنسية من فرنسا ». ويبدو أن هناك إذن، نوعا من السلم التصاعدي والتدرج في الكراهية و البغض المغذي من طرف أوروبي المستعمرة . إن العدو المشترك : هو « العربي »، ثم يأتي « اليهودي »، وأخيرا، إنه « الفرنسي » الذي يحتقره،⁽³⁾ . فكيف يمكن في هذه الأحوال و الظروف أن يحدث اتحاد الأجناس ؟ إن شارل كورتان يؤكد و يسجل في ما بعد في 1939، أن « ليس هناك تحكيم و تسوية ممكنة،

¹ . Dans « Shorouk », édité , en 1921, Luis Lecoq , ainsi que tous les auteurs Algerienises utilisent l expression « le Centenaire de la Conquête »

² . L . Lecoq : Shorouk , p. 213.

³ . Luis Bertrand montre dans la concession de Madame Petitgand, op ,cit que le ciment entre les différentes populations européennes de la colonie est la haine viscerale à l'encontre du musulman, le colonisé . Il écrit « Ce charle Muller ,gros Alsacien sanguin et brutal , cogna contre le comptoir en vocifèrent : _ les bicots tous tant qu ils sont , ils ne méritent qu une balle derrière les oreilles.» p. 89 _ 90.

فالأجناس كانت تبدو و تنكشف متعادية متنافرة نهائيا . أبدا، سوف لا يمكن اقتلاع واستئصال الكراهية التي تتفرع وتبرعم جذورها في الأعماق الأكثر ظلاما وعممة للكائن»⁽¹⁾ .

وكما قد رأينا ذلك، فليس تنوع و اختلاف الأصول هي التي لم تكن قد كونت و أسست إعمارا و إسكانا متجانسا فحسب . بل فرنسي فرنسا درونيت، في *الشیطان العدل الحق*، الذي كان قد فشل في مسعاه في الثراء كان له في فشله لجوء أخير إلى « الميتروبول » . فهو يلجأ و يلوذ في « النهاية» إلى عالم هو أجنبي تماما عن أوروبيي الجزائر وعن الأهالي، من أجل التأكيد مع ذلك تفوقه عليهم، « فرنسي من فرنسا، تجميع و رص لكلمات، كان يجب ترديدها و إعادتها لتحديد أصله جيدا، كان يكتب لكوك، عن شرفه ونبله الخاص»⁽²⁾ . كان له حنين لبلده حيث « كانت الحياة أكثر عذوبة و سهولة، يقول، فالقلوب أكثر سخاء و كرما لأن في فرنسا، الوفرة، الرخاء تمنح الأنانية أكثر مما يجب »⁽³⁾ .

تظهر الرواية الكولونيالية هنا كمنبر من أجل عملية الإعمار والاسكان . فعلا، فإن درونيت، ذات الأصل الفرنسي، لم يأت من أجل مسلمة و مصادرة شاذة غريبة، و مخالفة للمألوف : تلك المسلمة التي تخص التحضر و التقدم، يؤكد لكوك . إنه اغترب عن وطنه « من أجل أن يصبح ثريا، و ثريا جدا، في هذا البلد الواقع على بعد أربع وعشرين ساعة فقط من مرسيليا »⁽⁴⁾ . لكن الفرنسيين الأكثر يسرا و غناء في الميتروبول، يفضلون البقاء في ديارهم، لأن المستعمرة كانت بلد السراب والوهم الخادع، لا يمكن أن تجذب إلا الوضيعين أراذل القوم، فهم أشخاص ليس لهم لا عقيدة،

¹ .Charle Courtin : Café Maure ,p.133.

² . L . Lecoq : Le Demon du bon Droit , p. 164.

³ . Ibid ,p.63.

⁴ . Ibid , p.63 .

ولا قانون، « كان هذا البلد ملائما و مناسبا للقراصنة النصايين السلايين»⁽¹⁾، كان يلاحظ لوكوك، وتريفيموس ولوسيان فافر في وصفهم وتصويرهم، خصائص، وملامح المعمرين. لقد كانوا إذن قد جمعوا و كدسوا ضدّهم اعتراضات ومطاعن كبيرة . إن درونيت كان قد قدم كمعمر صغير قديم ضحية التركيز و التجميع العقاري . كان ذلك يتناسب ويتفق مع تنامي حقيقي للنزاع الاجتماعي داخل الجماعة الأوروبية . كان هذا النزاع، على الخصوص، قد ثبط العزيمة في كل إقامة و استقرار في الجزائر، لفرنسيي فرنسا . إن هذا الفرنسي، حسب رأي لوكوك، كان « وثوقا، مسلوبا ومنسلخا من روحه، قد يكون لا طائل منه، مزهوا قليلا بنفسه ربما، لكنه سهل، مستقيم، نزيه و أمين»⁽²⁾ . إن درونيت، الناطق بلسان لوكوك، يصرح بأن العدالة غير موجودة: « لا يوجد هناك إلا صدفه الأشياء الموقوفة المقررة»، التي لا يمكن أن تغير منها إرادة درونيت و بالتالي إرادة لوكوك شيئا . إن الانعزال يبدو أنه قدر و مصير المعمر من ذوي « النية والإرادة الحسنة » مثل درونيت . وهكذا فالعيش في المستعمرة، يكون بالأساس ذاتيا و شخصيا . إن هذا قد جاء إلى أرض إفريقيا مجتذبا و مغريا بالوعود المغشوشة الخادعة " تلك الوعود التي تزيد بثلاثة أضعاف، وحتى بأربعة أضعاف رأسماله في بضع سنوات". تصف أنا كولنات في فيرجيني **ديبارك** 1936، أيضا هذا الانجذاب للسواد من الناس الصغار إلى المستعمرة التي أصبحت مرآة تجذب طيور القبرة. لكن، كان قد وجد، في الجزائر، في عمل و مهمة « أبناء آوى الطماعين، السغبة المتضوورين جوعا، مغامرين، جاؤوا من كل ضفاف المتوسط، حيوانات ذوات أكشاح

¹ . Ibid , p . 63

² . Ibid , p. 63.

متقورة جائعة، حانقة من اشتهااء بلد السراب و الوهم الخادع» (1). إنه التنديد و التشهير من قبل المؤلف، بعالم مجهول حتى هذه اللحظة « بالنفس والروح الودية القلبية والساذجة لدرونيت» (2).

و بإجمال، فإن هذا تحذير، ودعوة لتصفية و تطهير العالم الأوروبي للمستعمرة. « أن تستعمر. أية حماقة و بلاهة، كان درونيت يصيح متعجبا، كان على حق أولئك الذين كانوا في بلده قديما، يهزون الرأس عندما أخبرهم عن مشروعه، في محاولة المغامرة» (3). هكذا فإن نموذج ونوع المعمر الذي يوجد في الجزائر يكون قد جعل هو المسؤول عن خيبة الأمل والفشل في عملية الاستعمار الرسمية للإسكان و التعمير. إن فرنسي فرنسا، درونيت يرفض، تماما مثل لكوك، هذا العالم، الذي يعتبره دنيئا وحقيرا. فهو مع أنه لا يمكنه أن يبلغ و يصل إلى الحصول على الثروة بصفته هو نفسه معمرًا. فهو يقع، بالتالي، في انحراف المزاج، وفي الغموض و الإبهام، لأنه أن تكون استعماريا فهي النزعة الوحيدة للمعمر. أما « المزايدة على المتروبول»، فهي لا تكفي لتبرير الفعل الكولونيالي. لم يكن لكوك، أيضا، قد نجح في تبرير الاستعمار، بما أنه كان قد استسلم كذلك إلى الإنقاص و الحط من قيمة المستعمر الأهلي. في حالة ما، من جهة أخرى، حيث تكون الأحكام قد حملت من خلال الإحالة والإشارة والألماع إلى فرنسا، فإن لكوك كان يكشف عن الفشل و الإخفاق في مساعيه ومحاولاته الإيديولوجية. لكن، من جهة أخرى، بصفته معمرًا، كان لا يمكنه الاعتراف بأخطائه. غير أنه، يريد أن يسترد و ينقذ سمعته و شرفه. ألم يكن لكوك قد انخرط و انضم إلى الحزب الاشتراكي؟ إن فرنسي فرنسا درونيت، في الشيطان العدل الحق، وفيرون دو

1 . L . Lecoq : Le Demon du bon Droit , p . 44.

2 . Ibid , p. 44.

3 . Ibid , p. 72 .

لوم في الحريق يتصرفان كما كان قد تمنى لكوك ذلك من قبل كل المعمرين . فعلا، فدرونيث يدعي و يزعم الكرم و السخاء، والوصاية إزاء الأهلي، محمد بركي . إن العلاقة التي توحد بينهما هي « حدثهما و حماستهما المولعة بالقضايا المزاجية المشتركة » كلاهما كان مسلوخا و مسلوبا من خلال دعواهما و قضيتهما المستمرة الدائمة، ومن قبل محامين مزججين . كان محمد بركي يواصل جهدا و يدافع منذ عشرين سنة عن قضية وعن خصومة، ناشئة عن تقسيم أرض بالقبائل . إنه ضحية الاستعمار، وبالتالي، فهو ضحية لدرونيث نفسه، لأن هذا ألم يأت ليصبح ثريا ؟ فدرونيث المحطم بالبؤس و الشقاء، يدرك، إذن، ويفهم وجود بركي . فهو يفكر مليا و بترو، حتى في الالتماس و التوسل للحضور وللمساعدة في صالح الأهلي المرافع عنه « فهو كان يفكر في ذلك من كل قوى قلبه الرحيم الخير »⁽¹⁾ . لكن درونيث، نفسه، ماذا يستطيع، في ذلك؟ يضيف لكوك، « ألم يكن أوروبيا معتوها مغبولا، مواطنا مصالا (نصابا) من العدل الحق (du bon droit) كسولا، راقدا على أسلحته من الورق؟»، وبالتالي فقد كان، عاجزا . حقا فالعدالة لا توجد في المستعمرة، يعيد المؤلف إثر فرنسي فرنسا .

إن درونيث لا يمكنه أن يدافع عن نفسه شرعيا وقانونيا «كما لا يستطيع أن يحمي نفسه، يلاحظ لكوك، من أوغاد قرويين، ذوي رائحة فوسفاطية ممتازة، ماهرين بما فيه الكفاية من أجل سرقة، رغم أظافرهم

¹ . Luis Lecoq : Le Démon du bon Droit , p . 33 . Jerome et Jean Tharaud avaient dans La fête arabe , plaidé , « la cause du Français de France » . la civilisation musulmane est « menacé » selon eux par les éléments étrangers . « les Calabrias , les Espagnols, les Italiens, Malais » qui sont naturalisés français et qui prennent peu à peu « ce qui doit revenir aux vrais Français » . les tharaud , comme ici Luis Lecoq , rejettent les « Maltais » (tels que la spoliation des terres indigènes et le racisme) sur « ce peuplement d étrangers » .

السوداء، وقمصانهم القذرة وجهلهم المطلق بالحروف الهجائية، لا من هادئة وديعة، طابعا مظهرا بوضوح الفرق في الأوساط»⁽¹⁾. نذالة مدنية، أنيقة، تقريبا بارعة، « هناك، في فرنسا، يوجد تنظيم تام من أجل تحقيق نظام أكثر، وعدالة أكثر . في الجزائر، كان يشرح بومي في 1931، نحن في عز و غمرة فترة التولية والإقامة والإنزال، لا يوجد هناك إلا طبقتان، أولئك الذين هم كولونياليون... والآخرين . إن تصنيف و ترتيب القوة الاقتصادية كان هو أيضا ابتدائيا متخلفا أكثر من تلك القيم الأخلاقية . إن الجزائر ليس لديها وحدة الثقافة ولا وحدة الروح، ولا حس اجتماعي . فهي ليست فرنسا التي كان الفكر فيها واضحا، والنفس شريفة، والقلب لا تحصى جوانبه، الأكثر إنسانية في البلدان»⁽²⁾ . فدرونيت لم يكن له إذن الاختيار . فهو ينتحر مقابلا للبحر، مواجهها لفرنسا، لأنه لا يستطيع أن يعيش في وضعية متناقضة جذريا، وبعثق تماما . إلا أن لكوك لم يكن كذلك متشائما مثل بطله درونيت، فهو يرفض المجتمع الأوروبي في زمانه مثل ألبرت تريفيموس، ومثل لوسيان فافر، لكنه يقترح مجتمعا آخر بديلا عنه . إنه إذن من الممكن، حسب رأيه، تدارك و معالجة الوضعية . لكن كيف؟

د / تطهير و تصفية ضرورية للعالم الأوروبي الكولونيالي، أو تعرض « المصلحة الوطنية الفرنسية» للخطر

إن إيديولوجية لكوك تتطور أكثر فأكثر بوضوح كما سنراها . وإن شهادته تلتقي مع تلك الشهادات التي لفرنسي الجزائر، الدكتور فيتال الذي كان يوصف بالحب للأهالي . إن هذا كان يكتب آنذاك إلى صديقه

¹ . L . Lecoq : Ibid , p. 23 .

² . Jean Pomier : « Prélude à l'exposition coloniale de Paris , Afrique avril 1931.

إيربان (Urbain)، في 1867، «ستسقط النسور الكواسر على الأهالي، سيسغتلونهم، أو بعبارة أفصح يجردونهم ويسلخونهم. أقرأ وأرى في كل العقول والأذهان اشمئزازا ونفورا يعجز عنه الوصف، من أشياء و أمور الجزائر. فالشيوخ المسنون الجزائريون مصممون و لا يزالون موطدين العزم، منذ سنوات أيضا على العيش هناك والموت هناك يحزمون أمتعتهم أويطمحون و يصبون إلى رجوعهم إلى فرنسا»⁽¹⁾. إنه نفس الكلام الذي يقوم لكوك بإبلاغه ونقله إلى دورنيت في 1928، في شيطان العدل الحق. إن لويس لكوك، هو نفسه، يصرف أنظاره غالبا نحو فرنسا. فابتداء من 1925، سيذهب ليقيم هناك مرارا، حسب أقوال صديقه الخاص، ومساعدته ومزامله جان بومي⁽²⁾. لقد كان قد انفصل عن الوسط الكولونيالي الذي كان قد جمع وكدس ضده، كما قد رأينا، عددا من الاعتراضات والمآخذ. إن فرنسيي الجزائر كانوا قد انشغلوا واهتموا فقط بأنفسهم. فهؤلاء، بتعسفهم وتعديهم، وطغيانهم وعنفهم و فظاظتهم حتى، يعرضون «المصلحة الوطنية الفرنسية» للخطر.

من الآن فصاعدا، سيتبنى الروائي منهج الداعية المبشر الواعظ. فهو يصف ويصور أهوال و رعب الجحيم المصنوع من قبل المعمرين والإدارة المتورطة الضليعة. وهكذا، ينفصل لكوك عن جوقه المديح بالنسبة للكولونيين. كانت رواية الحريق و لون الأغاف كثيفتين ثخينتين. فهو يقدم تفسيرات و شروحات طويلة ويتخذ نبرة بيداغوجية. فهو، يظهر إرادة في البرهنة و إقامة الدليل، في الإيضاح و الإبانة بالأمثال التي تضفي على الحكايتين قيمة أدبية بقدر القيمة التاريخية. فهو يدافع بشدة عن تلك

¹. Correspondance du docteur A. Vital avec L. Urbain (1845 _ 1874) . Lettre du 24 septembre 1867 (Consantine) .

². Lettre Personnelle de Jean Pomier du 5 mai 1974.

القضية التي هي قضية الكولون « فرنسي فرنسا » ومكانة الاختيار التي يجب أن تعود له في المستعمرة . إذا كان العديد من الكتاب الذين من بينهم هو نفسه كانوا قد حللوا الشعور « المعادي لفرنسي فرنسا » من أوروبيي الجزائر، يمكننا أن نؤكد و نسجل من خلال كتابات لوسيان فافر (باب الوادي، 1926) لألبيرت تريفييموس (نزل السرسو 1930) للويس لكوك (بروميتش والقبائلي 1921)، شمس (1928) لماكسيميليان هيلر (البحر الأحمر 1923)، الشعور المعادي « لفرنسيي الجزائر » من هؤلاء الكتاب المؤلفين، هم أنفسهم، لأسباب معينة ومحددة . في هذه الفترة، فالحصيلة، التي كان يقدمها لكوك عن الوضعية كانت كالتالي : كان المجتمع الأوروبي قد ظل في مجموعه مقيما، على هذب و ضفة البلد، منتبها يقظا و محترسا على الساحل، فلنقل ذلك . لا يحاول و لا يبحث عن « اختراق الحضارة الإسلامية، فضلا عن ذلك، فهو لا يبحث عن التمهيد والتوطئة و تذليل التباعدات و التفرعات و الاختلافات من خلال فعل التأثيرات الثقافية، يرثي لها المؤلف « . وأكثر خطورة أيضا، ف « الأرياف و البوادي تقفر و تخلو و تهجر من السكان أكثر فأكثر لصالح المدن »، يكتب لكوك في باسكولايت الجزائري، في 1932 . إن الكولونياليين يسكنون و تزداد إقامتهم بفرنسا أكثر فأكثر، تاركين الأراضي إلى وكلاء مسيرين . « ها هو ذاك الدليل، الدليل أن الجزائر تقفر و تهجر، و تخلو، و تفرغ من عناصرها الأوروبية، يقول لكوك، بالأحرى، بالتأكيد ورغم الخطب الرسمية الجميلة»⁽¹⁾ . كانت هذه المعاينة قد انجزت و أعدت من قبل راندو في الجزائريانيين قبل الحرب العالمية الأولى، كان هذا يعترف أيضا بخوفه و وفزعه من رؤية « العرب يطردون و ينزعون الأوروبيين شيئا فشيئا من الأراضي المستعمرة»⁽²⁾.

¹ . L . Lecoq :Pasculette I Algerien . p. 2.

² .R. Randau . Les Algerianistes , p .40.

كان شارل كورتان يشير في 1930، هو أيضا، إلى الخوف و الهلع الدائم المستمر للأوروبيين « من رؤية العرب يستعيدون شراء الأراضي »⁽¹⁾. وهكذا، يتجمع الأوروبيون ثانية عاملين على نسيان، من هنا، لكل عضو منهم جروحيته (vulneracite).

1/ تنديد بالمستعمرات الكبرى :

أصل وضع وعدم تكيف، جوع أبدي و تعطش للحيازة و التملك والشعور المزيف المصطنع للأمن و السلامة .

كان السواد الأعظم من المهاجرين في البحث عن بلد للاستغلال، و كان هذا يبدو من غير التخلي عن بلدهم الأصلي. في العلامة، إن لاسيا لا تنسى إسبانيا : « و هناك، طلبت لاسيا من فيليب مظهرة الجريدة، هناك في إسبانيا؟ » « آه، هناك، أجابها دون فيليب، ليس أكثر سهولة من هنا، هناك؟ »⁽²⁾. إن لكوك يصبح شاهدا معاصرا، مثل جان بومي، ومثل راندو : إن الأوروبيين، بالنسبة للأغلبية، قد سبق لهم أن كانوا مستأصلين ومقتلعين من موطنهم الأصلي، فهم كائنات من غير أي مستقبل لهم، حيوات و عيشات على غير هدى، فهي كائنات غير مرغوب فيها في فرنسا، مثلا كومتالوكس في الحريقي، يلاحظ . إن هذا « عرييد، مفلس من قبل الفتيات، والمقامر، آت للرفع من شأنه في المستعمرة، مستغنى ومثرى باستغلال الأهالي، بعملية الربا (ربا الوفاء) »⁽³⁾. وإلا أيضا مثل موفوازان في العلامة، فأجداده كانوا فلاحين قرويين « غير أنه على العكس منهم فقد أصبح في الجزائر « سياسيا، خبيرا في ممارسة الابتزاز في الاستجواب و المساءلة في المجالس حيث كان يعمل على انتخابه، مستشارا عاما وعضوا

1 . Charle Courtin : La brousse qui mangea lo homme , p. 107.

2 . Luis Lecoq : La Marque , p. 116.

3 . Luis Lecoq : Couleur d agave , p. 129.

في المجلس البلدي، منذ ثلاثين سنة، فهو كان يعيش من هذه الصناعة التي كانت تسنده الصحافة الفاشلة المتكونة عشية الانتخابات والمبيعة فيما بعد للأفضل»⁽¹⁾. «كانت هذه الشخصية الكولونiale، بعد حكاية غامضة و مبهمة من الباطل و الكذب، قد احتجرت لبعض الشهور في السجن»⁽²⁾. إن هذا الرسم و التصوير للعالم الأوروبي كان يقترب من الرسم و التصوير الذي قام به ألبيرت تريفيموس في *نزل السرسو* 1930، والذي أثار ردود أفعال حية و قوية في المستعمرة⁽³⁾.

كان كل هذا العالم من النصايين و من المزورين المزيين، و من المبتزين، و من المنحرفين الساقطين في البحث عن ساذج بسيط لخداعه و الاحتيال عليه، يؤكد المؤلف . لكن ذلك لا « يمنع ولا يحول من الحلم بفضاءات أخرى»⁽⁴⁾. وبالتالي، فالكولوناليون كانوا هم على الأقل « مخيمين و معسكرين نازلين» في الجزائر يؤكد لكوك بمرارة⁽⁵⁾.

¹ . Ibid , p. 130.

² . Ibid , p. 131.

³ . Les reacions de Jean Pomier, en mars 1930, dans Afrique et de celle de V. Cometz en avril 1930, dans Afrique , lors de la parution de l ouvrage de Trupémus L arrière _ cour de la paisible , il s explique ainsi , « il me souvient d avoir naguère , quelque peu égratigné Albert Truphémus . Il avait soumis à la critique, un livre à la fois plein de qualite L Hotel du Sersou ... mais aussi tavelé de defauts, dont l essentiel à l époque , m avait paru consister dans l outrance de l expression et surtout l incongruité immanente de présenter en 1930, en algérie « une situation » de ce pays véritablemen forcée au noir. Si vous préférez, je dirai que ce meme livre, s'il eut été non en 30, mais en 3, c'est à-dire après le centenaire, eut certes éé prisé davantage, et facilement. »

⁴ . Louis Lecoq : « L'Algerie en France », Afrique, 28juin 1927.

⁵ Ibid.

هل كانوا يشعرون و يعون باللااستقرار وعدم الثبات، وانعدام التوازن لجماعتهم ؟ كلا، لا شيء يعتبر بالنسبة إليهم، ما خلا الربح المجمع والمكدس في أسرع وقت ممكن . هل الكولون لا يجذون، و يطرون على أن « ذلك سيدوم وسيستمر، مثلنا » ⁽¹⁾ . إن الجزائر كانت قد استغلت بجشع و بشراسة و بسرعة من قبل هؤلاء الأخيرين، لأنهم يشعرون، بعدوانية صامته و خرساء في كل مكان، العدوانية تلك التي للأهالي لكن أيضا تلك العداوة التي كانت للعناصر الطبيعية . ألم يكن موفوزان قد غرس نبتة أغاف « أمام منزله، نبتة معادية كان يحبها، من أجل أن تذكره بأنه تحت سماء إفريقيا، بالسماء المغرب المعفر مولد الظهيرة و الهاجرة » ⁽²⁾ . لكن على العموم، فالمشهد الطبيعي للإحالة والمرجعية يبقى رطبا مبللا وأخضر، بالنسبة لكل هؤلاء المستغلين . كانت صورة فرنسا، بالنسبة لدرونيث أيضا، في *الشیطان العدل الحق*، على الدوام صورة ماثلة « شيئا فشيئا، في هذا المشهد الطبيعي حيث تهيمن و تتغلب المغرة (الجأب) الحمراء للمدرة وللحقل الإفريقي، كان يحل ويقيم في ذهن المبعد، المتوسل (المغربي) من خلال النداء الفرعي البنوي، لصورة بلد الدهن و السمن حيث كان يعيش، البلد القديم الغزير الخصب وبوجه آخر، أنه أكثر صحة من إفريقية الجافة اليابسة والمضطربة القلقة » ⁽³⁾ . إن لكوك، هو نفسه، كان يبدو معانيا و مقاسيا من هذا الاغتراب والحيرة . فهو يكتب في 1930، « لقد نسينا أن نخبر و نبلغ عن حصته من الانطباع والانفعال وعن الاقتلاع

¹ . Ibid.

² . Louis Lecoq : Couleur d'avage, p. 160.

³ . Louis Lecoq : Le démon du bon droit, p. 62

والاستئصال»⁽¹⁾، في تعليقه عن الكتاب بالعنوان الكاشف الموحى الغابة التي أكلت الرجل، لشارل كورتان .

لكن، هذه الأقلية تتمسك و تتشبث بالاحتفاظ بمزاياها، فهي لا تريد إذن أن تكون مدججة مع الأهالي . إن هذا ما يفسر موقفها المحافظ، فهي تريد أن تبقي و تحافظ على تفوق مادي يؤمن ويضمن لها سيادتها وهيمتها على الآخر. كان المؤلف نفسه، قد ناضل بفعالية من أجل أن تكون للأوروبي امتيازات حتى تجذب إعمارا وإسكانا واسعا . لكن فهو له أيضا وعي وشعور بحفاظة الأوروبي . لقد فهم أنه في هذه الظروف و الشروط، فإن مستقبل الكولونيين مرشح بأن لا يتوافق ولا ينسجم مع ذلك المستقبل الذي للجزائر . إن الكولون ليس، لا حقا يقرر «تحويل الجزائر إلى صورة فرنسا»، ولا، أن يفكر في مصير مشترك مع الأهالي . و نساءل نحن بمجازفة في الإعادة لنا، هل الإدماجيون، هم أنفسهم، فقط مقتنعون و واثقون بنظرية الإدماج؟ هل يستطيعون، بصفتهم معمرين، أن يجيزوا و يسلموا بمثل هذة المعادلة ؟

حقا، لم يكن، في عشية المئوية، هناك أي تقارب بين الجماعتين، فالتناقض والعداء يزداد تفاقما ويستمر . عن هذه النقطة، تترجم كل روايات هذه الفترة وتنقل الحقيقة . ألم يكن لويس لوكوك يكتب في نفس السنة المئوية : « أن انطباع الاقتلاع والاستئصال كان حيا نشيطا قليلا لدى، أولئك الأوروبيين الذين يقيمون في مدن الساحل، المتغربة للغاية، لكنه بالعكس فهو كان قويا بما فيه الكفاية ومحسوسا بوجه محتم، لا مر منه من قبل الفرنسيين الذين يعيشون في داخل البلد، وسط بلد العرب،

¹ . Louis Lecoq : « commentaire du prix de la littérature algerienne : La brousse qui mangea l'Homme de charles Courtin », Afrique, janvier 1930.

مغمورين، ومطوقين تماما بجنس أجنبي»⁽¹⁾. هكذا، كان يبدو، في 1930، لا شيء قد تغير منذ قرن. فقد ظل الأوروبيون والأهالي غرباء أجنب عن بعضهم البعض.

إذ أن «التحرك والاندفاع الحيوي للرعايا المسلمين لم يكن قد كسر من قبل المد والهجرة المتدفقة، للكولونيين». حينئذ ما هو الحل بالنسبة للكتاب الذين يبشرون وينصحون «بالإدماج؟» كان هؤلاء يسلكون ويتصرفون كمحللين ويتصلبون في موقفهم إزاء الكولونيين.

وهكذا، يلاحظ لويس لوكوك، في 1927، أن الكولونيين «لا يفلحون الأرض، لم يكونوا، باستثناء البعض منهم، أبدا قد أفلحوا الأرض». إن الأهالي هم العمال الحقيقيون للأرض. فالكولون بالعكس، يزعم ويدعي أكثر فأكثر أنه غني وثري، فهو يبحث عن إرضاء وإشباع أنانيته. وهو يظن نفسه «في بلد النعيم الخالد»⁽²⁾. الأكثر خطورة أيضا: هو أن العامل الوحيد للتماسك والتلاحم الذي هو «أن التجربة الكولونيلية، لم تكن مشحونة من نفس المعنى بالنسبة للجميع». و يكتشف من خلال روايات لوكوك، في الواقع أن: علاقة أوروبي الجزائر مع المستعمرة يصبح في بعض الأحيان غامضا ومبهما. إن الإسباني، مثلا، بومي جورجورنيس، في *لون الأخاف*، «قد اختار بلوغ الشهرة عن طريق زواج ثري وغني»⁽³⁾. وأن صديقه موفوازان هو أيضا يفكر و يحلم في تنمية ثروته المعترية: «لم يكن قد استلم رسالة من قارئة، أرملة تملك عقارا»⁽⁴⁾. إن هؤلاء المغامرين هم موجّهون و مساقون من خلال جوع أبدي للتملك.

1. L. Lecoq : ARTICLE CIT2 Afrique, janvier 1930.

2. L. Lecoq : « L'Algérie en France », Afrique , 28 juin 1927.

3. L. Lecoq : Couleur d'avage, p.142.

4. Ibid ., p.142.

غير ان ذلك لم يمنعهم من الانسحاب من « اللعب » سريعا جدا، من غير أن يناضلوا ويقاتلوا و يعاركوا عندما يكون هنالك خطر. وهكذا، يندد لكوك بروح الهزيمة لدى الكولونيين، الذين لا يبحثون عن التجاوز وعن التغلب على العقبات و العوائق التي يمكن أن تعترضهم . فآل ديبي بونتوه، في *قيام الموتى*، يفرون و ينهزمون « شيئا فشيئا، بلا شعور من القدر المحزن ، يقول، من المهمة الكولونيالية ». ⁽¹⁾ فهم غير مباليين وغير مهتمين على الإطلاق بالإيديولوجيات ذات الاستحقاقات الآجلة، خلافا لما كان يرجوه الروائي الكولونيالي . لقد راح هذا، بواسطة عامل العمالة في الحكاية المذكورة أنفا يوصي و ينصح بالنضال و الكفاح من أجل الحفاظ على المستعمرة . « لقد توسل عامل العمالة ملحا بالألا نستنفذ ونستهلك تماما قط ، في خراب و تدمير المهمة الاستعمارية، التي مازالت تنتظر قبل انقطاع الأمل، وأن يدافع عنها أيضا، قبل الإفلاس في المهمة الحضرارية التي كان القدر قد استأثر بها، بطريقة تثير الشفقة». ⁽²⁾

إذ أن المعركة لم تكن قد انتهت، « كانت المباراة قد بدأت منذ قرن، يكتب لكوك في 1927، وهي ما زالت مستمرة وستستمر » ⁽³⁾ . وبالتالي، فإن هذا تحذير و إنذار حقيقي، موجه هذه المرة للكولونيين . فهو يصر حتى على خلق وإيجاد جو و مناخ من الخوف لجعل القلق يتولد : « إن الرياح الحمراء كانت تعصف و تهب برشقات و زوايع، يقول في *قيام الموتى*، فالرياح التي كانت تدفعهم و ترجعهم إلى الشمال (الكولونياليون) من حيث كانوا قد جاؤا، على أمل مزهو مغتر والآن فهو أمل خائب من تأديب و تهذيب هذه الأرض المتمردة، فالعظام في كل مكان منصبة

¹ . L. Lecoq : La levée des morts, p. 178.

² . Ibid., p.195.

³ . L. Lecoq : Article cié, Afrique, 18juin 1927.

و مسلولة كالسيوف المنتصرة المظفرة التي تطارد الأموات و تلاحقون بها الدخلاء المختلسين»⁽¹⁾ . إن الرسالة المغزى تصبح كالتالي : فالأهالي، لم يكونوا خاضعين منقادين . والسلم و الهدوء الذي يخيم على المستعمرة كان خادعا مضللا . إن الأوروبيين كانوا قد أقاموا و استقروا في شعور وإحساس مزيف و مصطنع من الأمن و الطمأنينة . إن ها هناك، آداب النضال و المعركة . إن ألبرت تريفيموس يقف هو أيضا ضد «التفاؤلية المغتبطة الساذجة» للأوروبيين « إن العربي كان أمينا صادقا، مخلصا صدوقا ووفيا متفانيا) ... كانت المستعمرة رائعة ومعجب بها، ... كانت مهمة فرنسا عظيمة ، يفترق الشعور و الإحساس الحقيقي في هذه البلاغية الثابتة المهمة به »⁽²⁾ .

لكن لكوك يتنبأ بالإخفاق ويتوقع الإفلاس و السقوط . لماذا ؟ وإلا، لأنه كان قد رأى الجزائر، « قد سلمت إلى أشخاص ذوي شهية و نزوع خطير وجسيم كانوا يريدون أن تكون مؤكدة » . إن الشعور بكون الاستفادة والانتفاع من حظ ومن فرصة موالية أولية منحهم وعي وإدراك المغامرين. «إن هؤلاء هم كانوا محدثي نعمة وصوليين، مغتنمين حديثا، يعلنون بتباه و بفخفة امتيازاتهم ومصالحهم المادية» . كان لا يكفيه هذا الفخر أن يكون هو الذي قطف عنبه الساشلة (العنب الأبيض) قبل غيره أو الذي يحزم و يعبئ أكبر عدد من صنادق الطماطم، كان عليه أن يكون أيضا الفخور الحائز على السيارة الأكثر غلاء، والفيلا التي كان مظهرها أكثر غناء، وبمجرد الموت، كانت هذه المجارة تلتحق به على قبره : أقيبة

¹ . L. Lecoq : la levée des Morts, p. 199.

² . A. Truphémus : l'Hotel du Sersou, roman cité, p. 129.

صغيرة، سرايب للدفن، جصهم (معجون المرمر)، قضبان الحديد المطرقة، صفوف الأعمدة...»⁽¹⁾.

كانت هذه الظروف تعكر و تنغص عيشة المستعمر الواعي المدرك والصريح الواضح . كان لكوك يستنكر و يدين « حب التملك و الكسب و الربح » هذا . فهو يرشد و ينصح فضلا عن ذلك، ويوصي المعمرين بأن يبرهنوا وأن يقيموا الدليل على قليل من « الكرم والأريحية والإنسانية» وذلك، من أجل مصلحتهم الخاصة .

هل هم فقط، قادرون و أهل لذلك؟ . وهل هي نزعتهم، وموهبتهم؟ كان راندو في *قصاد البربري*، في 1920، قد قام هو أيضا بالتحذير، عبثا، كما راح التاريخ يظهر ذلك و يبرهن عليه . « من شدة المقارنة من دون توقف ظروف حياتهم الخاصة، بظروف حياة السكان الأوروبيين، كان للسكان الأهالي الميل في أن يجعلوا هذه هي المسؤولة عن كل الشرور والأضرار والمعاناة وكل الدونية والنقائص والترديات . إن قيام الثورة والعصيان يتخذ شكل الانفجار من الغل و الحقد الوحشي الهمجى ضد الكولونيين . ويتعلق الأمر بتدمير و تخريب كل ما يتعلق بالكولونيين : الحياة كالأملك »⁽²⁾ . « إن الخطر كان هناك» الكولونياليون كان عليهم ألا يرونه ...

2 / الكولون الكبير: الوحيد مالك القوة السياسية – السلطة الحقيقية للمستعمرة

بالنسبة للوقت الحالي، فإن المجتمع الأوروبي يريد أن يزعم أنه مجتمع قائد مسير و حاكم . فهو يملك القوة الاقتصادية، ويريد أن تكون له القوة

¹ . L. Lecoq : Pascualette l'Algérien, p. 191.

² . Randau : Cassard le berbère, p.169.

السياسية . إن الكاتب يطرح هكذا المشكل الحالي، من مشاكل الساعة . فموفوازان يريد السيطرة و التحكم حتى في كاتبته الفتاة الشابة : جاكولين سماجيل التي يقول لها : « لم يكن من عادتي أبدا، أن و أعرج وراء الناس، حتى مع الشخصيات، إنه لي أنا أن أعدل المشية والمحاذة»⁽¹⁾ .

إن هذا الكولون يبدي ازدراء مطلقا بالنسبة للضعفاء . لقد رأينا أنه ليس هناك مكانة لهؤلاء في المستعمرة . فهو تدفع به الدناءة حتى إلى اقتراح وإلى الوسوسة إلى زوجته بالانتحار. هذه المتوفاة، إنه حينذاك فقط كان يكبر من شجاعتها . إن هذا الرجل في الواقع ضعيف، من غير شخصية، كان يخاف الموت : « كان يتصور نوعا من الاعتبار الموقر المبجل والهلع المفرع المخيف»⁽²⁾ . فهو، لم يكن لديه حتى « الاعتذار من كونه دفع بزوجته إلى الموت، تحت سلطان الهوى والشغف بجاكولين»، كاتبته . فهو، سيؤكد لها هكذا: « من تكونين ؟ يقول لها، من غيري، أنت لا شيء، لا شيء، قد يكون هذا تصورا بالنسبة لك ... ما ... لا هذا كان بالنسبة لي، بالنسبة لحرיתי»⁽³⁾ . وبالتالي فالكل يجب أن ينحني تحت سلطة الكولون الكبير . يلح لكوك . إن موفوازان يريد « أن يتقيا الآخر، كل ما ليس هو نفسه، والطبق الخادم نفسه ويقدم نفسه كغاز محتل، يعلن ويصرح حقا إن لم يرد إنكار حياته، يجب عليه قهر و قمع الفتاة العنيدة الصعبة المراس»⁽⁴⁾ . هكذا، فإن الكولون لا يمكن أن يتصور علاقات إلا سيذا و معلما للخادم . إنه صلب قاس وعدواني . كان موفوازان فاقدًا للحس الأخلاقي ومنتصنا متملقا . « فهو كان ينهض، يحكي لكوك، بتثاقل متأهبا و مستعدا لشروح

¹ . L. Lecoq : Couleur d'avage, p 169.

² . Ibid., p.172.

³ . Ibid ., p. 172.

⁴ . L. Lecoq : Couleur d'avage, p. 173.

تدبيراته و ترتيباته مع الخياط واللبن وأن الأكثر من مواردّه كان مقدما وعمونا به، من قبل حملات الصحافة و النشر (1) .

يظهر لكوك، إذن، جين ونذالة هذا النوع (النموذج) من الرجال . إنه قليل الذكاء سيء، فهو يمتنع عن رؤية ومواجهة الحقيقة: « كانت جاكلين قد انحنت عليه، الكلمة التي تحتفظ بها بداخلها، تصفر، و تهس بجميع و بكل حروف سيناتها (س) بين أسنانها – (سفاح) ... فهو يخضع و يسيطر على الأطياف و الأشباح، كانت الكلمة الرهيبة المخيفة قد انبعثت من اللاشعور ومن اللاوعي حيث كان يعرف جيدا تكفينهم و دفنهم، إخفاءهم ... فهو ينسحب و ينصرف للبحث عن نفسه بالذات عن مظهر أقل شناعة و فظاعة و رعبا » (2) . وبالتالي، هناك، عالم بين هذه الشخصية « والرجل المولود الجديد من دم الأجناس و السلالات » في كتابة بيرتراند الذي كان قد سقط وانحط بالقرب منه « المثروبوليتاني » . كان بطل راندو، كسارد، « متصلبا عنيدا، ذكيا، منهجيا، وباختصار فهو رئيس » لا يتلاءم ولا يتطابق كذلك مع الحقيقة و الواقع (3) .

إنه حقا، موفوازان، الموصوف من قبل لوكوك، الذي يفرض النبوة العامة والنغمة، للمستعمرة والذي كان المستعمر الأهلي قد سلم إليه من غير دفاع . ويعثر على التنديد بنفس هذه الشخصية في روايات تريفيموس وفي روايات لوسيان فافر. إذن فموفوازان كذلك مثل كومتالوكس، فهو شخص من نفس النموذج الموصوف في الحريق، كان لديهما الاحتياج الأكثر في التعويض. إنهما عاجزان وغير قادرين على أن يحبا أيا كان خارجا عن نفسيهما: « أيتها الطبيعة، الشيء الوحيد الذي كان محبوبا، حقا، يصرح

1 . Ibid., p. 177.

2 . Ibid., p. 193.

3 . R. Randau : Article cié, Afrique, juillet-aout 1940.

موفوازان، لأنك لينة طيعة وأنه من خلالك أنت، و أنه بالذات أيضا هو ما تتعلق به (1) .

إن وسائل الضغط السياسي لدى هذا الرجل تكون ضمن الجزء المتمم لقوته الاقتصادية . لكنهم كانوا يتمسكون من اللعبة، بالنشوة وبالرغبة الخارقة و بانعدام السلطة الحكومية.

فعلا، فإن المحافظ الإداري بيرنادوت، في الحريق يشرح لمساعدته فيرون دولوم، الوافد الجديد من باريس، أن الإدارة الكولونيالية « هي خاضعة للقدف والقدح، والخداع و المكر لشعب، يكون بالنسبة إليه كل شيء للبيع أو للشراء، بما في ذلك نحن أيضا، يقول، السياسة، الجرائد، المنتخبون الكبار... إذن فنحن دبلوماسيون، خاضعون، مجاملون بإفراط، صبورون... لا تكلف ولا مشكل، كان يوصي مساعدته، ها هي كلمة السر، لا مشكل، لا تدخل » (2) .

حينئذ، موفوازان الذي يقارنه لوكوك بأحد « الفساوسط التأشيرة الثانية (التذكيرة المؤقتة) التي لم يتنازل عنها ميفيستو ولم يتكرم بالإجابة عنها » (3) يمكن أن يكتب في جريدته، بلا عقاب، من أجل « الاستراحة (في بستان) » يوضح بدقة المؤلف : « بعد ثلاثين سنة من الكفاح الأكثر قساوة وعنفا، كنت قد عملت ...، كنت قد قلت ...، كنت قد فكرت ...، كنت، كنت، كنت... » (4) ، كما يكون قد فعل بالتالي مالك وصاحب الحق السماوي الرباني .

1 . L. Lecoq : Couleur d'agrave,p 174.

2 .L. Lecoq : L'incendie, p. 93.

3 . L. Lecoq : Couleur d'GRAVE ? P. 178.

4 . Ibid., p. 179.

وكما يمكن أن يؤكد ذلك، فتاريخ الكولون كان يكتفي بما يسر له، ويصنع بلا تطلع إلى المستقبل، فهو لا يعرف الحصر و الكرب. إن كل أفعاله تبدو مرتبة مسبقا، وهكذا فالكل يبدو ثابتا مستقرا، لا يتغير ومجمدا مسمرا في حياته . يرسمه لوكوك و يصوره منغلقا محبوسا في أنانية مفرطة، فمثلا موفوازان في جنازة زوجته يذعن لحزن متصنع فقط : « كانت قد تمت مصافحته باليد بينما كان يحرك رأسه بهدوء»⁽¹⁾ . وعلى العكس من ذلك ففي نفس الظروف و الأحوال فالمسلمون هم بصراحة أكثر إنسانية . إن تطور لوكوك يتأكد هنا . فالمسلم هو أفضل من الكولون، أو على الأقل « هذا النوع (النموذج) من الكولون» .

لم يعد لوكوك، كاتب الإمبريالية، حينئذ يصب ويحلب في رصيد مصالح الكولونيين . فهو يندد بالعملية الاستعمارية الرأسمالية الكبرى وبالرجال الذين يحافظون عليها و يتعهدونها.

إن لوكوك يوسع، حينئذ، ويطور الموضوع « ما قد ينبغي أن تكون» عملية الاستعمار : فمن رسالة المحافظ الإداري ومن مهمته حماية الأهلي وإرشاد و توجيه الكولون . كان يجب عليه « أن يكون فخورا بخدمة بلده، بالمساعدة على التحضر، لأن حرفته، جميلة ونبيلة بسبب مصلحته ومنفعته العميقة، وبسبب مسؤولياته، في الجملة الحصان، الرمح»⁽²⁾ . كان على الكولون أن يكون الممثل لشعب مستنير، « ناقلا للآخرين محاسن و فوائد الحضارة»⁽³⁾ . لكن الخرافة كانت تصطدم بالواقع، بالنسبة للويس لوكوك الذي ينتهي بالتنديد بالظلم و الجور و التعسف، و الازدراء و الاحتقار لنفس هذا الكولون إزاء الأهالي، فغياب الوسواس والحيرة وحتى العنف

¹ . Ibid., p. 167.

² . L. Lecoq : L'incendie, p. 93.

³ . Ibid., p.93.

و الفظاظة و الخشونة، للعالم الأوروبي، في مجموعه . إن لكوك يتجاوز ويتعدى المرحلة الأخيرة النهائية في برهنته و إقامة دليله ويفكر متأملا في احتمال و إمكانية، آفاق مستقبلية في مواجهة . إن التصادم، والوعي هل ينعقدان و ينطلقان، ويتحرران هكذا، لدى الأوروبيين ؟

3/ إمكانية التصادم (الصدام) بين الجماعتين: الأهلية – الأوروبية: الحريق

إن المواجهة بين الجماعتين تبلغ حدتها و ذروتها في *الحريق* . كان لكوك يلجأ إلى أسلوب أدبي يعثر عليه لدى الكتاب القلائل الذين عانوا وقاسوا، من الشك والحيرة والقلق المتزايد، في ذلك الوقت، من بينهم، لدى ألبرت تريفيموس، في *نزل السرسو*، ولوسيان فافر في روايتها *المشرقي*، في 1930. فيرون دي لوم، فرنسي من فرنسا، مساعد المحافظ الإداري بيرنادوت، الذي كان يتقمصه لويس لوكوك من جديد، يصبح الشاهد على الوضعية، الشاهد الناقم الساخط أولا، ثم شيئا فشيئا، المرعب من العالم الكولونيالي . غير أنه بالمقابل، لا يمكنه أن يمتنع ويتوقف عن معاناة و مكابدة الشعور، بالرحمة والشفقة والعطف بالنسبة للأهالي .

منذ وصوله إلى الجزائر، كان يحكي المؤلف، يصطدم الميتروبوليتاني فيرون بالكولون الكبير

كومتالوكس، لأن كلاهما الاثنان لم يكن لهما نفس النظرة والرؤية للكائنات وللأشياء . ويظهر لكوك في *الحريق*، هذه التباينات والاختلافات: ما كاد الحريق ينكشف بقوة وبوضوح في الغابة حتى كان كومتالوكس يجعل سريعا و في الحال الأهالي مسؤولين عنه، « آه، الجديان، (التيوس) سيكونون مسرورين و فرحين بشغلتهم وعملهم » . إلا أن، فيرون يسترجع و يستعيد لفظة « تيس bic » كأن في الصوت نبرة من اللوم مسجلا هكذا

المعنى المحقر المنقصر لهذه التسمية : « التيوس، تريد أن تقول العرب، الأهالي ؟ هل تعتقد حقا أنهم يكونون هم ؟ ⁽¹⁾ . يظهر أن التلطيف والتصحيح، المقدم من قبل المساعد كان يغضب و يثير كومتالوكس : ملامة و مؤاخذة لدى فيرون، إثارة و غضب لدى كومتالوكس، هي علامات التباين والتباعد بين فرنسي فرنسا والكولونيين . إن لكوك لا يريد أن يندمج في هذا العالم الكولونيالي . فهو يواصل تنديداته . و يدفع بالكولون إلى أن يوضح و يحدد بدقة أكثر فأكثر أفكاره و نواياه، التي كان قد استشعرها و حدسها لدى فيرون، « أحد هؤلاء الإنسانيين الذين كانت طبقتهم المحترقة تفرخ و تنتشر بسرعة ما وراء البحار، من أجل أن يكون كل الناس إخوة ... فهو يهاجم كل محيي العرب في المتروبول، وكل محيي البشر، هؤلاء مكسر و السلاسل و القيود الذي لا يظهر السخاء والكرم و الأريحية منهم إلا في الخطابات » ⁽²⁾ .

وهكذا إذن، فإن كومتالوكس، ليس له عمل إلا القيام بحقوق الإنسان والعدالة. فهو يستفيد من مؤسسات المتروبول، التي كان قد عرف كيف يعدها و يكيفها مع مصالحه. و يحرم منها الجماعة الإسلامية حتى يحافظ على التفوق و السيطرة عليها . بالطبع، كان كومتالوكس معتبرا كمثل طبقتهم. إن لكوك يعبر عن ذلك بشدة عندما أبلغه أياه كلامه : « إن الإيديولوجيين، والمحربين الذين يستحضرون عند كل حديث الحقوق الطبيعية والمساواة، الضرر الذي يلحقونه بهذا البلد، أبدا سوف لن تكونونه، السيد فيرون » ⁽³⁾ . إن كومتالوكس يظهر مرة أخرى نفسه أكثر معاداة للمتروبوليتان (الوطن الأم)، وأكثر معاداة للعرب، وباختصار، ضد كل

¹ . L. Lecoq : L'incendie, p. 97.

² . Ibid., p.98.

³ . Ibid., p. 98.

ما من شأنه أن يجازف بأن يؤدي إلى الإنقاص والتخفيض من تفوقه الاقتصادي والسياسي . يجب مثلا، بأي ثمن، إبعاد الأهلي الذي يحتاج كل الاحتياج إليه، وإلى الغابة . ومع أن كومتالوكس، يعرف ذلك، فهو يقوله لفيرون، « الرحل، يجب أن تفهمهم، يعيشون من القطيع، على الأرض المحروقة فالحشيش والعشب سيكون أكثر كثافة و غزارة»⁽¹⁾ . كان إن كومتالوكس كان يعرف الضرورة بالنسبة للأهالي لحرق العشب . لكنه راح يعاقب بشراسة و بلا رحمة، من أجل المحافظة على مصالحه . لأن الأوروبي عليه للغابة أيضا بقاءها، بصفته معمرًا، يشرح كومتالوكس إلى فيرون . ويتنهم منه الفرصة فورا وفي الحال لتقديم قائمة كاملة من المطالب والاستحقاقات. إن لوكوك كان شاهدا على ذهنية الكولون: كان هذا حقودا انتقاميا ومطالبيا مدعيا.

على الدولة أن تجدد الغابات، وأن تقوم بالتقاط و جلب عناصر المياه، بحفر الآبار، وأن تقوم بإعادة التشجير⁽²⁾ . يجب على السلطات الكولونيالية، حسب رأي كومتالوكس، ألا تنشغل و تهتم في الجملة إلا بالجماعة الأوروبية، وبها فقط . فلكوك يعرف تماما ذهنية الكولون، ألم يكن هو نفسه كذلك، حسب، ذكريات جان بومي ؟⁽³⁾ إن الأهلي، على العكس من ذلك، يجب أن يبقى مقيدا « في أغلاله » يقول كومتالوكس . إن هذا، لا يمكن أن يفكر في « العيش مع بعض الألاف من قطاع الطرق اللصوص المتسكعين على أرض معطلة جرداء ومحلوقة، صفراء كبرانيسهم»، يوضح . فالأوروبيون، يعتقد كومتالوكس وجوب الشرح، هم كانوا منحدرين « من بلد المياه» والآخرين، الأهالي هم آتون « من بلد

¹ . Ibid., p. 98.

² . Charle André Julien : Op , cit , p. 39.

³ . J . Pomier : Lettre du 5 mai 1974, déjà cité .

الرمال»⁽¹⁾. إنها النظرية الموسعة المطورة من قبل الكولون، من أجل تبرير احتكاره و استئثاره بالغابات ثم بعد ذلك بالأراضي. وبالتالي، إن المصلحتين، الأوروبية والأهلية، تقدمان، كأنهما متنافرتان . فعلا، فإن عملية الاستعمار تستبعد الأهلي وتقصيه من القسمة ومن السهمة والتوزيع. هكذا، تقترح المستعمرات الكبرى، حسب رأي لكوك، من خلال كومتالوكس في *الحريق*، « استئصال و إبادة أو استعباد و إخضاع البعض لمصلحة البعض الآخر، إن قانون العالم يدعم الكولون الذي يحدد معركة الشعوب . أن تفكر بطريقة أخرى عندما يحدد لك القدر موقعا في صف الغزاة الغالين، المحتلين، هو أن تكتشف عاهة و نقيصة شائبة لم تكن قط إلا جسيم فاسد و غريب في المجموع، الذي بقي سالما صحيحا»⁽²⁾ . وبصفته كولونياليا فاستدلالة و منطقته متماسك و منسجم، حتى ولو كان هذا يجعلنا نرتعد و نستشيط غيظا . فلويس لوكوك لا ينخرط معه في ذلك ولا يشاطره، إن النفور والتعارض الغريزي الذي يظهره المؤلف ضد كومتالوكس يبرهن ويشهد عليه، أكثر أيضا، موقف فيرون الذي يتقمصه المؤلف من جديد .

إن الميتروبولوتاني، فيرون يصل به الأمر إلى أن يحتقر الكولون : « فعلا، فبقدر ما يتكلم هذا، يعتبره فيرون من غير حنان، فاقد للرافة والعطف»، يضيف لكوك. أكثر بعدا من ذلك، فيرون (والمؤلف، بالتالي) يدينان و يستنكران نهائيا : « نعم، كان يلجم، نزوته متبخرة في الأفكار الحادة المتفوعة المقذعة، نعم، يا رجلي الطيب، ادعهم إلى المحكمة العسكرية العليا، إلى القصاص المثالي، لأحكام القضاء، المجددة للملوك السود،

¹ . L . Lecoq : L incendie , p . 99 .

² .L . Lecoq : Ibid , p. 100.

العقوبات ؟ ضد التعساء المقهورين، المثقلين بكل الإساءات والأضرار،
سأمنحك منها أنا، عقوبات»⁽¹⁾ .

هل كان لفيرون، إذن، نبرات وتشديدات معادية للاستعمار من غير
أن يكون معاديا للاستعمار؟ هل سيكون لكوك معمرا معاديا للاستعمار؟
نعم، إذا اعتبرنا معاداة الاستعمار الأوروبي « بصفته جهدا من أجل
الانفلات هو نفسه من الأكذوبة ومن البهتان ومن التسمم » توضح المؤرخة
يفون تورين وتحدد بدقة⁽²⁾ .

إذن، عملية الاستعمار لا يمكن إلا أن تزور و تزيف و تشوه
العلاقات الإنسانية . من أجل أن يكون هناك مهيمن ومسيطر، يجب أن
يكون هناك مسيطر عليه . إن علاقة و رابطة الجنس و العرق كانت دائما
حاضرة، ومعترف و مصرح بها بوضوح من قبل كومتالوكس . إن الحقد
الكراهية كانت هي أيضا حاضرة لدى الكولون، فلوكوك يشهد بها :
« بالإضافة إلى ذلك، يميز فيرون و يدرك جيدا، ويكشف، أن غضبا
وسخطا، متولدا من إلحاق الأضرار بالمصالح الشخصية، فهو يشعر بالعداوة
العميقة، وبالكره لدى كل الأوروبيين الذين كانوا قد اقتربوا حتى هناك،
إنه نفس الشعور»، كان يسجل⁽³⁾ . في نفس الفترة، كان فيوليت، الحاكم
العام، يكتب : « على فرنسا أن تستنكر وتندد بكل المواقف التي، بإثارته
حقد الأجناس، في المستقبل، يمكن أن تسبب لها أخطر الصعوبات»⁽⁴⁾ .
إن بيار ميل يدعو الموظفين الفرنسيين الجزائري إلى الذهاب « إلى الميتروبول لتعلم
دين الليبرالية »، ويشدد على أنه « إذا لم تعط شرعية الانبساط والارتياح،

¹ . Ibid , p. 100 .

² . Yvonne Turin : Article cité « Cas singulier d Albert Truphémus »
, 1976.

³ . L Lecoq : L incendie , p . 101 .

⁴ . Maurice Violette : Op , cit , p. 18 .

والترضية إلى العرب فإذا (et bien) هؤلاء العرب يمكنهم استغلال أي ضعف و وهن للمتروبول في وقت معين بشكل قبيح ومزعج»⁽¹⁾. إذ أنه، لا شيء جاهز هناك . إن الكولونيايين المتوخين خدمة أنفسهم، يعترفون هم أنفسهم بذنوبهم أيضا بنفس المناسبة . كان لويس لوكوك قد اعتقد أنه وجد العلاج : فهم أنفسهم الذين يطردون من المستعمرة، « يجب كسرهم و نفتيتهم بالتراضي أو بالقوة، كان يوصي »⁽²⁾ . إنهم يجعلون احتمالات وتوقعات، حسب رأي المؤلف، المخاطر التي كانوا قد اعتقدوا تجنبها و تتحاشيها من خلال القوة الاقتصادية والسياسة، ومن خلال السحق البطيء لاقتصاد المستعمرا أهلي، « في الفاقة و العوز و العجز، يقول، إن حسن النوايا المتبادلة، المنظمة الوحيدة التي يمكنها أن تسهر على هذه الغايات البعيدة، إنها الإدارة، لكن الإدارة، هي نفسها، كانت تزيد في تفاقم الفصل و العزل، والفرز الحاد، يوما فيوما»⁽³⁾.

كانت العداوة والكراهية و الحقد والضعينة تصاحب و تلازم الريية و الحذر وعدم الثقة لأنه إذا كان الكولون كومتالوكس يكره و يبغض الأهلي، فلأنه يخشاه و يحذره و يفزع منه . هل لأنه لا يملك ضميرا حسنا و سريرة طيبة ووعيا في أعماق نفسه ؟ ما إن يسقط حجر حتى يظهر المسدس فورا في يد كومتالوكس . « حادث ؟ كلا ... » . الكولون يشك فيه « جريمة، نعم، كمين و فخ ... » . في الواقع، فهو لا يعرف عنه شيئا، لكنه يتقدم « لا بد من أن يكون هذا لونيس»⁽⁴⁾ . إذن، فالمستعمرا أهلي دائما يفترض أن يكون مذنبا جانبا، يلاحظ فيرون . كان هذا يرى أنه

¹ . J.Pomier cite : Pierre Mille dans « De Pierre Mille à l'Algerie », Afrique , octobre 1931.

² . Luis Lecoq : Article « L'Algerie devant La France » , Afrique , 28 juin 1927.

³ . L . Lecoq : L'incendie , p . 104.

⁴ . Ibid , p.104.

« أكيد، أنه من الخطر حتما المشي مع كومتالوكس »⁽¹⁾ لأن هذا كان لديه مركب و عقدة المحاصر المحدق به، مثل كل أي مغتصب.

إن قطيعة لكوك مع هذا المعمر ستكون نهائية . فهو يشعر بنفسه غربيا أجنبيا في هذا العالم تماما مثل فيرون الفرنسي، الذي يؤكد و يسجل فظاظة و قساوة الكولونياليين إزاء الأهالي المنهمكين في التحكم و السيطرة على الحريق: « كان كارملو، الذي كان له مقاولات لقطع الخشب، تقريبا في كل مكان، يكتب المؤلف، يجول بوجهه الفظ⁽²⁾ . حرصهم واسترهم قليلا، كان كومتالوكس يرشد، اصرخ، فهذا يجرحهم ويستدرجهم، ليس لك إلا فعل ذلك، على كل حال »⁽³⁾ . وهكذا، يرسم المؤلف، لوحة و صورة متناولا ومثبنا حيث العلاقات الإنسانية كانت نتيجة استغلال مبالغ فيه ومدفوع به إلى أقصى ما يمكن من طاقته، ومؤسس على عدم المساواة الأكثر تماما، كان الاحتقار والعنصرية الاجتماعية، هما بالذات مضمونتين ومكفولتين من قبل السلطة في المكان و في الحين . إن اتخاذ هذا الموقف كان استثنائيا لدى المعمرين. إن مؤلف *الحريق* يرفض عملية الاستعمار الفظ، الوحشي العنيف وغير الإنساني في زمنه الذي « كان سيؤدي إلى الإفلاس ويفضي إلى الإخفاق و السقوط ».

إن التاريخ الرسمي يؤكد ويشهد على هذه السمات لعملية الاستعمار. كانت الإقدام جريدة *الشبان الجزائريين* تكتب في 17 ماي 1919، كان « جهاز الردع و القمع، المؤسس بقانون 1903، يستجيب لتعليمات الإدارة التي تتصرف و تسلك، من غير فهم و إدراك لضرورة الحياة الرعوية أو الحياة بصفة عامة للأهلي المسلم »⁽⁴⁾ .

¹ . Ibid , p. 104.

² . Ibid , p. 109.

³ . Ibid, p. 107.

⁴ . CH. R. Ageron , Op , cit , p. 790.

وتماما كما في الحريق، فالمسلم المستعمر كان فعلا ملزما ومكرها على القيام بأشغال غابية، مثل العبيد القدامى . فالأوروبيون هم مثل كارميلو، « هم نعاقون صحابون » . لقد سبق أن فتحنا الورشات، عملك و مهمتك ستكون هي التشجيع و التنشيط، كان على كومتالوكس أن يقول لكارميلو⁽¹⁾ . وهكذا فالعربي، تابع، مثل الأرض، من ممتلكات الكولون، لأن السلطة على الأرض والسلطة على الرجال كانتا مرتبطتين و متلازمتين وفي النهاية ، لم تكونا تنجزان إلا مرة واحدة ونفس الشيء .

إن لكوك يدفع بعيدا أكثر بتحليله . فكومتالوكس و كارميلو يكونان لأنفسهما وحدهما إقطاعية حقيقية واقعية سلاية نهابة و متعجرفة متغترسة: إن الغابة تحترق و تلتهب، ومصالحهما المادية تتعرض للخطر وعلى وشك أن تكون متناقصة، و متضائلة، هيجانهما و اندفاعهما و عنفهما لن يعرف الحدود . لا بد لهما من كبش الضحية . إنه قد وجد تماما: الأهلي « فكارميلو انقض و انهال على العرب، بالكلمات وكان يستدير و يلتفت نحو فيرون الذي كان يسكن من روعه . ويمكن أن يفهم، في وجهه المنقبض المتشنج من الهيجان، كم، كانت تعذبه فكرة الانتصار من فيرون ومعه، الإدارة، الحكومة، الجمهورية، كل الشيطان وخدمه⁽²⁾ . وربما، يمكن إضافة هذه الملاحظة لماكسيميليان هيلر، التي تستنتج و تستخلص، في 1923، كل ماكان لكوك قد ندد به و استنكره : « مزارعون فلاحون، أرباب أموال، بعض رجال السياسة يؤسسون في المغرب اتحاد الميولات و النزوعات التي من واجب الحكومة أن تفرض عليها قيودا . فنوابنا للملك

¹ . L.Lecoq : L incendie , p. 101.

² .Ibid , p. 113.

يؤيدون و يؤبدون تقنينا و ميثاقا، يرجع ويبعث ثانية أوابد التشريع الريفي القروي الأقدم» (1) .

إن الكولونياليين يكونون بالفعل « رابطة الشهية، النزوع » يوضح بدقة لوكوك . فعلا، « فذهنيات ونفسيات الكولونياليين، تسكن و تهدأ على إثر التعهد الذي كانت الحكومة ستدفعه تعويضا » (2) . وهكذا فإن الكولونياليين لا يترددون في جعل « المستعمرة في خطر، عندما يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية »، يرثي لوكوك . يكتب ألبيرت تريفيموس : « إن كثيرا من الكولونياليين يعتقدون جيدا أنهم يستحقون من فرنسا ومن الإنسانية الرضى والقبول بالموافقة في الإثراء من الخمر والحبوب» (3) .

إن لويس لوكوك، المثبط الهمة والقلق المنشغل البال، يريد أن يقرع جرس الخطر مرة أخرى، كما فعل فيوليت في نفس الفترة : « من غير التوقع و التكهن بالوقت الذي ستدوم فيه هذه المرحلة من الاستعفاء و الانقياد و الاستسلام و الخضوع ، إنه من المؤكد أنها ستنتهي، وسيكون من غير المجدي حينئذ أن نسمي شيوعيا أو وطنيا، أو متعصبا، انفجارا يمكن أن نخشاه . إن الوضعية مقلقة و مزعجة، وستأخذ كل المشاكل الأخرى المرتبة الثانية في الاهتمام» (4) .

كم كان ،هناك من الأوروبيين آنذاك، قد أثاروا ولفتوا انتباه السلطات الكولونيالية إلى تعسف و تجاوزات و إساءات الكولونياليين حتى في الوقت حيث كانت عملية الاستعمار تمجد، وحتى في الوقت حيث كانت الخطابات الرسمية للولاء، والحكام العاميين والوزراء القادمين من باريس نفسها لا تتحدث إلا عن التفاني وعن التضحية الوطنية، وعن العمل الحضاري

1 . Maximilien Heller :Roman cité la Mer rouge .1923.

2 . Ibid , p. 113.

3 . Albert Trupémus : Hotel du Sersou , p. 129

4 . M. Violette : Op, cit , p. 130.

لهذه المستعمرة ؟ يمكن القول أن الحصر والقلق كانا غير معروفين ومجهولين حينذاك لدى الأوروبيين ما عدا بعض الاستثناءات القليلة . وعلى العكس من ذلك، فالإحساس والاحتقار و الازدراء ضد الإدارة، وكرهية العربي تتقاسم قلب كومتالوكس وأولئك الذين من طبقتهم ومن شيعته، من بينهم كارميلو وجوزيف. « إن رجالنا الرسميين وكثيرا من الأدباء ينظرون في صورة سيئة إلى أمور الجزائر بعيون صيبانية سخيفة أو متواطئة ضالعة . تفاؤلهم المجاني أو المأجور على تبسيط بعض الصور والاستعارات و الانطباعات الرديئة السيئة، يكتب ألبيرت تريفيموس في *نزل السرسو* 1930،⁽¹⁾ .

وبالتالي، فإن فيرون الميتروبوليتاني، الرازح المرهق و المثقل من قبل شعوره بعجزه و عدم قدرته، كان تماما مثل المؤلف نفسه، يحضر صراع و معركة الرجال، المتضاعفة من خلال معركة النار. إن لويس لوكوك، يصنفها هكذا: « في معركة و صراع الأجناس، كان أبناء الرجال يعتقدون من القيد ويثيرون قوة الألهة وخصامهم كان يكتفي و يجتزئ)من الجمال الهادئ للأغصان، و من الظل الظليل الوارف، و من زينة و حلي الينابيع التي ترشح و تتسرب في مغارات الأرض و كهوفها العميقة »⁽²⁾ . إن النار، هنا، تصبح رمزا للمواجهة « المزينة في كل نسق اللون الأحمر، الأورجواني، البرتقالي، عالم جنبي راقص، كانت النار تلوي و تعقف أردادها، تمدداتها واستطالاتها وتعرجاتها، كل هذا المشهد الخارق من الألوان الراقصة، هول المبارزة و المناجزة الهائلة كانت تذهله و تسكره»⁽³⁾ . و يبدو فيرون إذن أنه يعيش كابوسا، يصارع و يعارك بنوع من الهديان و الجنون . « كانت الوحدة تثقله». إن النار بين بين الجماعتين كانت قد اشتعلت و اندلعت .

¹ . A . Truphémus : L Hotel du Sersou, p. 129.

² . Luis Lecoq : L incendie , p. 119.

³ . Ibid , p. 120.

« إن كومتالوكس وكارميلو في نوع من القصف والعريضة، ومن المساواة والفظاظة، يجران خوفهما، وحقدهما ».

فهما يريدان أن يحققا وينجزا في التأجج والتوهج، والهياج، « حلمهما في الاستئصال والإبادة »⁽¹⁾. ويرسمهما المؤلف بواقعية « متسخان وملطخان بالأسود على هذا الأتون بعيون الحقد وبهيئة من العزم والتصميم الثابت والإقدام العنيد، بلا مبالاة، وعدم اكتراث من النار التي كانت تهددهما، كان كومتالوكس وكارميلو يصرعان ويخندلان فلاحا ... العربي كان قد اختطف، وثبت إلى الجذع ... شعلة لهب مرت، صراخ الفلاح غطى على ضجة وضوضاء الطبيعة ... كان هناك رجل آخر على جذع مشتعل، عنيد شرس، قلق من أقصى سخرية (تهكم) في الصمت والسكون الذي كان يحافظ عليه شخير وحسيس الحريق، صوت كومتالوكس تقطع - آه أنت مجنون النار مجاوي مصطفى، جندي الرسول »⁽²⁾. كانت أيضا ماكسيميليان هيلر مستحضرة ومتذكرة لويس لوكوك في 1936، تقول، إنه كان يعمل على إظهار وإبراز في تحليله « بنوع من الواقعية الفظة الوحشية بنوع من المرض متعطشا للفعل الفظ الوحشي العنيف الذي يتصاهر وينتمي، إلى الرسامين الأسبان »⁽³⁾.

وبالتالي، فإن موقف الكولونيين يحمل في ذاته جرثومة وبذرة كل تطرفية. كان المؤلف قد شعر بها، منذ 1921. إن الكراهية والحقد بين الجماعتين تخلق وضعية خطيرة بالنسبة « لاحتفاظ فرنسا بالجزائر ». ويشعر

¹ . voir aussi Luis Bertrand : La concession de Madame Petitgand, op cit , l auteur racontr « L histoire des cuves » : « tandis que les arabes étaient à racler la tarte dans les cuves de fermentation tout ay fonds de la cave , le contremaitre de Philipe met la pompe en train et les inonde d eau bouillante» .p. 205 _ 207 .

² . L . Lecoq : l incendie , p. 122.

³ . Maximilienne Heller : « En ecoutant Raoul Stephan », Afrique , avril 1936.

بطل الحريق، فيرون بذلك بقوة . « كان يبدو له، كأنه كان يغرق في دم، كان الهواء ينقصه، أطلق نداء بالنجدة والخطر، يمد يديه ويسقط منهارا »⁽¹⁾ . لم يكن النداء من أجل النجدة واضحا، قد سمع بما أنه في 1928، كان لكوك يسجل أن المستعمرات الكبرى كانت ما زالت تتوسع و تنتشر. هذه التي، إن صح التعبير، تشتمل إذن على جرائم الفساد و التدهور و الانحطاط، بالنسبة للمتروبول كما، يقول، « النار التي كانت تشدو و تغني خربة و متلفة صنعة البذور و الرشيمات، والتحف والأعمال الرائعة البطيئة التي كانت قد انضجتها الأرض، والشمس، والمطر »⁽²⁾، إن لكوك يصدر و يبدع من خلال الصور . فعملية الاستعمار يجب أن تؤتي ثمارها وتكون براعم جديدة شابة فتية «هم جزائريو المستقبل».

إذ أن الكولونيين من خلال لا شعورهم و لا وعيهم يريدون سلب و نهب، و تخريب كل شيء . يبدو أن ها هنا تكون الرسالة التي يريد لكوك نقلها و تبليغها إلى القراء وإلى فرنسا . ويفهم الروائي و يدرك أن « هذا النوع من الكولون » يغالط نفسه و يقطع نفسه عن التاريخ الذي لا يتحقق ولا يحس، ويشعر معه بعلاقته به إلا في اللحظات حيث يصف، ويعبر فيه عن إرادة إبادة واستئصال، وإفناء المستعمر الأهلي . وهكذا فإن الكولونيين لا يعرفون إلا الخدرة و الفتور و الخمود الناتج عن ثروتهم الضخمة، المتراكمة والمكدسة بمضرة و بأذى للأهالي أو بوسائل غير مباحة وغير مشروعة، مثل موفوازان، أو الجنون والذعر والفرع، إذا كانت أموالهم و ثروتهم مهددة مثل كومتالوكس و كارميلو .

إن هذين الموقفين يميزان الوسط الكولونيالي الأوروبي . إن لكوك و تريفيموس مثل شخصياتهما، فيرون و ماطيبي، يصبحان الشاهدين

¹ . L . Lecoq : L incendie , p. 122.

² . Ibid , p. 120.

على المأساة الكولونيالية، حيث يكون الأهالي، فعلا، هم الضحية . هل كانت الخيبة و الفشل و السقوط تماما ؟ لم يكن لكوك متشائما متطيرا . ولا يمكن إلا أن يرى في ذلك إلا علاقات و روابط، بالتأكيد، بين المستعمرات الكبرى والعالم الأهلي، لكن السلطات تستطيع معالجة وتدارك هذه الوضعية بتطوير وتنمية المستعمرة الصغرى، كما سنرى، من جهة أخرى . إن الأهالي، في الوضعية الراهنة، إذا لم يخدموا مصالح الكولونيين، يصبحون مربكين معيقين، مزعجين . كان الكولونياليون الكبار مثل كومتالوكس و كارميلو، قد سيطروا وتحكموا في الحريق باشتراك محافظ الإدارة بيرنادوت الذي كان الأساس في وجوده، هو « التجنب والاحتراس من الحوادث و المتاعب مع الكولونيين »، كما كان قد شرح ذلك إلى فيرون . فهو قد جعل من نفسه الخادم المتشيع والنصير لمصالح كومتالوكس، فهو نفسه يتصرف كحاكم طاغية (en procosul) من غير اهتمام، وقلق من التعليمات الحكومية المتربوليتانية. فكومتالوكس و بيرنادوت يستطيعان « تدخين سجارتهم متذوقين و متلذذين ببرودة و نداوة و نضارة المساء اللذيذة » يضيف لكوك، لأنهما قد حاصرا و أحاطا هذه المرة، بالحريق . فهما يسجلان رضاهما و ارتياحهما : « ومع ذلك، لقد خرجنا منها ... ليس من دون خسارة، بالتأكيد، لكن أخيرا ... وهل كنت قد لا حظت أنه ليس هناك حرائق أخرى في البلدية ؟ يبدو أن العلاقة الاستعبادية التقليدية، في مثل هذه الحال، كانت قد قطعت ... التجربة القديمة أليس كذلك ؟ - نعم، وافق المحافظ الإداري، التجربة القديمة »⁽¹⁾ حل المشكل بالقوة ؟ فهما قد تبنيا ذلك، لكن القضية هي معرفة ما إذا سيكون لهما ذلك دائما .

¹ . L. Lecoq : L incendie , p. 196.

المحافظ الإداري ألا يجب أن يحمي الأهالي، كما يؤكد هو نفسه . لكن، أية حماية يمكن أن ينتظرها هؤلاء الآخرون من رجل حاد هائج تماما مثل كومتالوكس الكولون، من الاحتقار والكرامية والضغينة إزاء المجتمع الإسلامي الذي يصفه هو نفسه إلى فيرون بكونه « كمجتمع ذي النفس الغشاشة المكارة، ذي العقل الكسول والاستطراذي بعقم، المتزمت المتعصب، القدري الجبري، الطامح و التواق إلى الأولوية والتفوق، والمعتبر نفسه من جنس مختار...»⁽¹⁾. وبالتالي، فيرنادوت يتقاسم نفس الأحكام المسبقة مثل الكولونياليين .

و الأشراف حينئذ ؟ هل كانوا قادرين على مساعدة المسلمين؟ لم يكن لهم أية إمكانية لحماية جماعتهم ، وهم أنفسهم يريدون تجنب المسؤوليات . «فهؤلاء، من جهة أخرى، هم الناس الذين كانوا قد أشعلوا النار و الحريق»⁽²⁾ .

يكتب ملاحظ عسكري، في نفس الوقت الذي يطبع وينشر فيه لوكوك الحريق، التقرير الآتي الذي نعتبره مهما بما أنه يلتقي و يتفق مع ما يندد به ويستنكره لوكوك، وتريفيموس، ولوسيان فافر، وماكسيميليان هيلر، هم أنفسهم، « مرة أخرى، لو كان هناك منذ الغزو و الاحتلال، تطور منتظم وبطيء، للعلاقات بين الكولونياليين والأهالي، فإن الوضعية سوف لن تكون متوترة و حرجة إلى هذا الحد، لكن لم يكن يوجد هناك تطور، بل هناك ثورة بالمعنى، حيث كان فيستال يقول، إن ثورة ما لم تكن إلا إصلاحا وتعديلا لحكم القانون إلى حكومة فعلية . على الحكومة أن تمثل في الجزائر ليس الفرنسيين فحسب، بل فرنسا، والاختيار بين الحل الحكم وبين ذلك الحل الذي يقترحه البعض من الكولونياليين الذين يرتكزون

¹ . Ibid, p . 93

² . L . Lecoq : L incendie , p . 112.

ويعتمدون على العودة وعلى الرجوع بالقوة ليس باثنتي عشرة سنة إلى الوراء، بل بستين سنة . ويبقى على الحكومة أن تلعب بين العنصرين دور الحكم . ألا يوضع ويحدد قانون أساسي للأهالي فحسب . بل يجب تحديد ووضع قانون آخر للكولونيين «⁽¹⁾ . لكن المحافظ الإداري، الممثل للسلطة، المأخوذ والمأسور، المنشغل بجو ابتهاج و مرح المستعمرة، لم يكن يستطيع أن يلعب دور الحكم كما كان لكوك قد سجل بالضبط .

وهكذا، كان سلوك الكولونيين ضد تيار كل تطور في علاقاتهم مع الأهالي . « كانت الهوة، من يوم لآخر تتسع و تتعمق بين الأجناس و الأعراق، وكانت الميولات، و النزوعات الشخصية الفردية تعرض كل أمل للتفتح الفكري، والتقارب للخطر »⁽²⁾ . إن العلاقات بين الجماعتين لم تتغير منذ القرن الماضي . وهكذا كان عميد الجزائر قد توصل إلى هذه المعايينة، « إنه في 1873، بالنسبة إلى العرب خاصة، يجد الكولونياليون أنفسهم في وضعية الملاك القدامى للعبيد، بالنسبة للاستعباد والرق، كانت رؤيتهم مضطربة »⁽³⁾ . كان على لويس لكوك أيضا أن يقف ضد هذا النوع من العلاقات، في 1921، في الحريقتى، كما قد رأينا. كان ألبيرت تريفيموس ولوسيان فافر يتبنيان نفس الموقف، فيما بعد بقليل .

أما لويس لكوك، في 1927، فإن كان إنشغاله كان أكبر، بالأحرى أكبر من الأوروبيين الذين كانوا يستسلمون من خلال "المرح و الشعور بالخفة والغبطة للمثوية"⁽⁴⁾ . كان روبيرت راندو، وجان بومي، و شارل عقون، و لويس لكوك، يرضخون لأمر الواقع، إن الجماعتين كانتا قد ظلتا أجنبيتين عن بعضهما البعض، كانت حذرتين ومعاديتين، الواحدة بالنسبة

¹ .M. Violete , Op :, cit , p. 470.

² . L. Lecoq : L incendie , p. 102.

³ . Y. Turin , Op , cit , p. 414.

⁴ . L. Lecoq : Article « L algerie en France », Afrique , juin 1927.

للأخرى، فالمسلمون يحرصون ويحتفظون بوفاء وبإخلاص لاعتقاداتهم وعاداتهم، وكانوا لا يرغبون ولا يريدون «الإدماج» في غالبهم .

غير أن ذلك، كان لا يكفي أيضا للروائي للتخلي و للعدول عن خرافة «تحويل الإفريقي إلى غربي»⁽¹⁾. لم يكن مصير الجزائريين المسلمين في أي وقت من الأوقات، مرتبطا، حتى بوجود الوضعية الكولونيالية، بالنسبة للمؤلفين، لكن الأحرى بالتطبيق الحسن أو السيء لسلطة المعمرين . كان مع الاحتفال بتمجيد الإمبراطورية الفرنسية تماما، يسحب و يحجب ثقته عن الرجال المحسوب عليهم أنهم هم القائمون على الحفاظ و حمايتها . لم يكن هؤلاء الأخيرون من « جوهر ومن ذات عالية متفوقة راقية»، ومن ثم، كانوا لا يستطيعون خلق مستقبل أفضل بالنسبة للأهلي . « مما لا يلغي لا الاتصالات، لأن الأوروبيين لا يتخلون ولا بسهولة عن اللعبة، ولا التاريخ قد يكون سلبيا⁽²⁾ .

غير أنه، إذا كانت الإبادة المنهجية مستحيلة وكان لابد أن تبقى كحلم مخبأ و مدفون في قلب العديد من الكولوناليين، وإذا كان الاستعباد و الإخضاع، حسب مختلف المؤلفين، خطيرا بالنسبة للاحتفاظ بالمستعمرة، إذا كان هذا أو ذاك لا يمكنهما إلا أن ويؤديا إلا إلى « الكره الذي كان قد ضرب أطنابه وأقام »⁽³⁾، هل كان الإدماج، أمل البعض من الأوروبيين، بالمقابل ممكنا ؟ صحيح ، أن النخبة المسلمة، في هذه الفترة، كانت تطالب بتمثيل برلماني للمسلمين، لكنها كانت ترفض كل التخلي و التنازل عن شخصيتها . إن «الإدماج» كان مطلوبا خوفا من أن تسلم في عجز مطلق وتجعل تحت رحمة الكولوناليين في إطار « دومينيون فرنسي» .

¹ . Ibid.

² . Y . Turin Op , cit , p. 29.

³ . L . Lecoq : L incendie , p. 101.

إن المشكل كان لا بد أن لا يكون له حق إلا حلا... محتما، لا مفر منه . ألم يكن لكوك أيضا، هو نفسه، يصل إلى طريق مسدود، عشية المئوية . لكن، بالنسبة للمؤلف، سيكون هناك وميض من الأمل .

هـ / خلق خرافة الكولون الصغير 1932 أو المأزق والطريق المسدود.

إن إيديولوجية الإدماج كانت النهاية والنتيجة الحتمية للجزائريانية، يؤكد لويس لكوك، المنحدر هو نفسه من الإمبريالية . كانت هذه الإيديولوجية تولد الوهم عن انفتاح وانفراج ليبرالي للنظام . إذ أن، تماسك وتلاحم الجماعتين كان لا بد أن يلتقي، دائما، ويوجد، حسب رأي الجزائريانيين في تصور و اعتبار ثقافي: « يجب التقرب من العرب في نفس الهدف الأعلى للثقافة، الثقافة الفرنسية»، لكن نظرية الوحدة الاجتماعية من خلال الثقافة لا يمكن إلا أن تخفق و تفشل، لأنها لم تكن تمنح أي « مستقبل » حقيقي وملموس. « إن التهيئة كانت مستحيلة، لأن المستعمرة كانت تحمل في ذاتها تناقضاتها الخاصة بها. كما يظهر جيدا في روايته الأخيرة *باسكوليت الجزائري*، المتصورة، في 1931. إن لويس لكوك، يظهر، لا شعوريا، بالتأكيد، أنه هو نفسه لا يملك أقل ثقة في طوباويته، في « جزائر مختلطة حيث يجب أن يكون للأهالي سهمهم ونصيبهم وحظهم، وللأوروبيين سهمهم ونصيبهم، وحظهم». فهو يصف، فعلا، الكولون الصغير، المهاجر من فالانس، الشديد في بذل الجهد، القادر على العمل الخارق، تلك الأعمال التي تقدم، مثلا في « سقي حقل الشعير، من الفجر إلى المساء، دلو في كلتا يديه». لكن باسكوليت، ألم يكن قد سبق له أن حلم في أن يصبح كولونياليا قويا ؟ « كان في طويته الداخلية، يروي لكوك، حسودا وغيورا، كونه من نفس الجنس ومن نفس الطبع، من هؤلاء الغالبيين

المحتلين»⁽¹⁾. إذ أنه في 1936، كان الجزائريون يصرحون خلال انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي كان يجمعهم: «كفى منه، لا قيصر ابتداء من هذا اليوم، تعال إلينا (يتعلق الأمر بالأوروبي) لتتقاسم الحقوق في الحياة، كما نتقاسم واجبنا في الموت والتضحية»⁽²⁾. نحن نتساءل حينئذ إن كان باسكوليت هذا المهاجر الصغير من إسبانيا الفقير الأمي هو نفسه، الذي هدفه الأول هو أن يتساوى مع الكولون الكبير، هل كان سينشغل ويهتم «بقيادة الأهالي نحو التقدم والتطور؟» وهل كان سيساعدهم على الاعتلاء والتسلق إلى «نفس المستوى» معه؟ وخاصة أن التقاسم، سيكون ذلك ضد مصالحه الخاصة.

لكن باسكوليت الجزائري كان قد تأمل و تنمذج من قبل لوكوك . فمن أجل شراء القطعة الصغيرة من الأرض التي كان يفلحها منذ خمس سنوات، للسيدة راميت التي تعيش في فرنسا، ألم يبيع باسكوليت كل أثاث زواجه؟ «نحن نعيش على صناديق، زوجتي، الصغار، وأنا»⁽³⁾. فهو لا يظهر التصلب و المعاندة فقط، بل الضراوة والاستبسال، و السعي الحثيث أيضا. «سأجد الماء، حتى ولو توجب أن أنزل إلى خمسين مترا، إلى مائة متر، سأقرع و سأحفر حتى أبلغ إليه»⁽⁴⁾. كان لدى باسكوليت استحواذ فكرة البلوغ إلى الهدف لدى باسكوليت يخفف من صرامة المبادئ: «إن كل الباسكوليين الذين كانوا يستطيعون ذلك، كانوا قد باشروا العمل لدى الآخرين»⁽⁵⁾. إن زهوه و كبريائه، كان يتحالف و يتآلف

¹ . L.Lecoq : Pasculete I Algerien , 191.

² . El – Bassair journal du 14_ 15 mai 1936. Cf, M. Kaddache : Op , , cit ,p. 219. Il s agit du congrés musulman de 1936.

³ . L. Lecoq : Pascualette I Algerien ,p. 34.

⁴ . L . Lecoq : Pascualette I Algerien , p. 61.

⁵ . Ibid ,p. 237.

مع الضرورة . ومرة أخرى، فكل هذا ما هو إلا مجرد استراتيجية، من أجل العمل على إدامة وضعية فعلية للاستعمار .

يبدو أن إصلاح الأراضي من خلال العمل الشخصي، من غير استغلال الأهلي، أفضل في التأسيس للحق في أن يكون هنالك . إن خرافة الكولون الصغير تتدخل في الفترة حيث تنمو الوطنية الجزائرية و تتطور . إن لكوك كان يحاول ساعيا أن يصادق و يقر شرعية مصالح و مزايا الكولون، كان هذا قد دفع و سدد بالعمل، و بالمشقة والكد و الصعوبة، وبالموت أيضا، و من ثم « كان من حقه في الدخل من الدراهم »⁽¹⁾ . كان المؤلف يقترح باسكوليت كنموذج : كان باسكوليت لا يستغل الأرض بجشع و بشراسة لأن لكوك « كان بالتأكيد قد سئم من الأوغاد النصايين القرويين ومن الرائحة الفوسفاطية »⁽²⁾، كان يقول في روايته *شيطان العدل الحق*. إن الكولونياليين الكبار، كان يسجل ويؤكد لا يعانون ولا يحسون بأي حب للأرض . كانت روايته الأخيرة، مرة أخرى، رسالة، إلى السلطة الكولونيالية، كان بطله جواشيم باسكوليت يجب الأرض، « كان لا يشعر بنفسه سعيدا جدا حقا، إلا وسط حقله »⁽³⁾ . و نتساءل، حينئذ، إن لم يكن هذا وسيلة للخداع أيضا، ولحاولة النسيان والعمل على تناسي حقائق المرحلة، يعني الاستعمار الرأسمالي واللاإنساني (كانت التبادلات مجرد وظيفية محضة، القوة الشغيلة وحدها فقط، قوة العمل للأهلي هي التي تعني المستعمرة) وخاصة التهديد الذي أثاره نمو و توسع الوطنية الجزائرية ؟

ماذا كان مغزى وأهمية هذا العمل (في معاكسة تيار الواقع)، في العالم الكولونيالي؟ كان إيمي دبيي، في *باسكوليت الجزائري*، يلاحظ أن مشكل

¹ . Ibid ; p. 240.

² . L Lecoq : Le Démon du bon Droit , p. 23.

³ . L. Lecoq : Pascualette l Algerien , p. 240.

الاستعمار، « صحيح و صائب »⁽¹⁾ . كان بالنسبة للجزائريين، وأكثر تدقيقا بالنسبة لألفريد روس، هذا العمل الأدبي يرمز إلى كل المأساة في المستعمرة الجزائرية⁽²⁾ . أما، لويس بيرتراند، فهو كان يكتب في مقدمة هذا الكتاب الصادر و المنشور في المجلة العالمية : « كان قد افتقر إلى عنصر الحالية والفعلية، كان عليه أن يظهر بالمناسبة المثوية »⁽³⁾ . كان فيوليت يلاحظ، في 1931، « أن نجاح وازدهار المستعمرات الصغيرة والمتوسطة هو أساسي إذا أردنا أن نحقق استقرارا وطيدا قويا ودائما في إفريقيا »⁽⁴⁾ . كانت هذه الشخصية السياسية، تطور وتوسع نفس الفكرة مع لكوك، « إن إعمار الأرياف و القرى كان ضروريا من أجل إحكام القبضة على البلد من عجزه، ومن أجل تجديد الذهنية الجزائرية المسلمة »⁽⁵⁾ . كان مارسال موسي، في رواية *عرقول أو الأرض الموعودة*، يتحدث على لسان الكولون الصغير بجلاء وهذا في سنة 1953، « لقد جئنا من أجل الإعمار »⁽⁶⁾ . وكان فيوليت يشير، هو نفسه، إلى أنه على ثمانية آلاف عائلة مستقرة قادمة، من قبل الإدارة ما بين (1920 — 1930) لم يبق منها إلا ألف ومائتان، والباقي كونهم استعيدوا من قبل المستعمرة الكبرى . كان فيوليت يتقاسم إذن نفس القلق والانشغال مثل لكوك وكان يقترح « نفس العلاج » . كان باسكولايت الجزائري، في هذا السياق، عملا أدبيا نضاليا، لكن هذه الرواية، لا يمكن أن تكون، في النسق الإمبريالي، حاملة لأي وعد بتغيير العلاقات الإنسانية في الجزائر، ولا لأي تحويل اجتماعي . إن ألبيرت

1 . Aimé Dupuy , op ; p.36.

2 . Alfred Rousse : « Pascualette 1 Algérien » , Afrique , mars 1935 , p. 14 _ 15 .

3 . Charle Delp : Dépêche algerienne , cite la preface de Luis Bertrand à « Moloch », 22 mars 1933.

4 . Maurice Violette : Op, cit , p. 22.

5 . Maurice Violette : Op, cit , p.27.

6 . Marcel Moussy : Arcole ou la terre promise , Paris , Table ronde , 1953, p. 143.

تريفيموس يلاحظ بحق، إذن « أن الكولونيين يبقى بالنسبة إليهم (هؤلاء المعنيون بالأدب سوى النسخ والنقل الرديء)، هذا البطل الخرافي من عهد بيجود: الذي يحمل البندقية في يد وأداة العمل في اليد الأخرى »⁽¹⁾.

كانت إن اشتراكية لوكوك، مثل اشتراكية فيوليت، كانت تفضي وتؤدي إلى تعارض و تناقض، لأن المبحثين، كانا يتشابهان ويتداخلان معا: فمن جهة يكون الدفاع عن المصالح المادية للكولونيين الصغار، ضد المستعمرات الكبرى، وضمنا أيضا يكون الدفاع ضد المنافسة الإسلامية، من جهة أخرى، خطاب إنساني. كان على باسكوليت أن يساعد الأهلي الذي لا يزال عديم المهارة، لأنه لم يكن قد قدم له تعليما أبدا، لم يكن الكولون يستعجله، لكن كان يبدو متسامحا صبورا معه. كان لوكوك يزعم أنه إصلاحي بغموض و بغير وضوح، إنساني، لكن « هذه الإصلاحية » أو « تعديل الإحكام المذهبي » بالأحرى، هو بصراحة تافه، لا معنى له .

هل كان، في 1931، قد أدرك أن هناك تموقعا للتناقض في نظريته؟ كان الإدماج تركيبيا وبناء خرافيا، لأنه كان يعني إلغاء الامتيازات، وبالتالي، إزالة وإلغاء تلك الامتيازات التي كانت للعلاقة الكولونيالية . كان لوكوك، في بناء وتركيب خيالي، يعارض، إذن حلا، خياليا طوباويا. فقد راح يجد نفسه سجيناً، مغلقاً عليه في النظام الكولونيالي مرة أخرى ...

إن لوكوك كان قد أصبح داعية من أجل قضية: هي قضية عظمة فرنسا الإمبريالية. كان يريد « تمجيد القيم الأخلاقية والفكرية للفعل الاستعماري كمصدر للتطور وليس خدمة للمصالح الشخصية ». على الأقل، إن هذا ما كان يطالب به ويدعيه . لهذا كان أقل انسجاما من الكولون الذي كانت له نظرة شمولية ومنهجية للأشياء، بما فيه الكفاية.

¹ . Albert Truphémus : L Hotel du Sersou , op,cit , p.129.

إلا أن إيديولوجية لكوك بصفتها إيديولوجية للأمبريالية، كان لابد أن تلتقي مع إيديولوجية بيرتراند، بما أن هذا كان يحكم على *باسكوليت* هكذا : « إنه رعية فقير المظهر، لكن يسمح للمؤلف بأن يجيم و يعسكر في نقيض النقيض الحاد، فالنشاط العنيد الضاري والطوعي للأوروبي في مقابل الكسل والخمول القدري الجبري للأهلي، فهذا الذي يستبسل و ينكب على العمل في إيجاد الماء المخصب اللقوح، هو الإسباني، أما هذا الذي يشبك اليدين ويستسلم و ينقاد لعقم و جذب الأرض، فهو الإفريقي » ⁽¹⁾. فلنعد إذن إلى نقطة البداية. إن النظام، من جهة أخرى، نادرا ما يكون محررا، والتاريخ الكولونيالي لا يمكن أن يتحول سلميا إلى تاريخ وطني. إن الانشغالات التي كان لكوك قد عبر عنها، كانت تحذيرا، ونداء إلى التغيير و التعديل وإلى تطهير المؤسسة الاستعمارية التي كان يريد لها أن تبقى . لكن هل كل التناقضات التي كنا قد رأيناها تسمح بالتفكير، في أنه كان يعتقد حقا في الإدماج ؟ يبدو أنه كل، لأن هذا كان قد قدم كهدف، دائما للتأجيل والإرجاء، دائما بقصد الإنجاز، لا يتحقق أبدا. إن كل الجزائريين الذين كانوا يقترحون الإدماج « بسخاء » كانوا يصلون إلى الطريق المسدود، إنه السقوط والفشل لنظريتهم. إن التناج الأدبي «الجزائرياني» على العموم، هو نتاج الآداب الكولونيالية التي تعكس الالتباسات والغموض والتناقضات للوضع الكولونيالية . ومع ذلك، فهي جديرة بأن ترسم لنا مختلف المظاهر المتعددة للمجتمع الكولونيالي . فالآداب السابقة « الدخيلة الغربية ليست أكثر من آداب « مدرسة الجزائر » التي تليها، فهي، لا تعيد في الغالب، إنتاج « جو الابتهاج والمرح » للجزائر الكولونيالية إلا بمقدار من الواقعية .

الخلاصة

إن تحليل الروايات، وقراءة المجلات، وأخيرا معرفة إيديولوجية مختلف الروائيين الأوروبيين قد سمحت لنا نهائيا بتحديد المغزى الدقيق والصحيح لمختلف الشهادات. وسوف تكون هذه الشهادات على مستويين: أولا وقبل كل شيء على مستوى الروايات، بل أيضا على مستوى "الحالة الذهنية" للرجال الذين قد كتبوا هذه الروايات. فعلا، لقد استطعنا أن نتعرف على البعض من مظاهر المجتمع الكولونيالي من خلال الأعمال التي تناولت الجزائر. غير أن هذه الأعمال لم تكن محايدة ولا مجانية. فهي تحمل أيضا إيديولوجية، كما قد رأينا ذلك. ومن ثم، فإن الكتاب الكولونياليين الممثلين لطبقة معينة من الطائفة الأوروبية (لاسيما منها طبقة الموظفين مثل روبرت راندو، حاكم المستعمرات، جان بومي، رئيس المقاطعة بعمالة الجزائر، ولويس لكوك، وشارل هاجل، وشارل كورتان...) سوف يخبروننا عن "الذهنية" إن لم يكن عن مجموع السكان الأوروبيين، على الأقل، عن طبقاتهم الخاصة.

ويتبادر إلى الذهن سؤال: هل كان من الممكن أن تعرف الجزائر المسلمة من خلال الروايات؟ فالصورة التي يقدمها لنا البعض من الكتاب الكولونياليين مثل روبرت راندو، ولويس لكوك، وشارل كورتان، وأنا كولنات، وفرديناند دوشين لا يمكن أن تكون قد رسمت كما هي ولا أن تكون قد اعتبرت، صورا كاريكاتورية. يكتب فرديناند دوشين في هذا الصدد: "لقد اخترت الحالات القصوى، والعادات الفظة، والممثلين ذوي الملامح والسمات الملحة المسندة..."⁽¹⁾. فعلا، فكل استراتيجية هؤلاء الفاعلين الممثلين قد ارتكزت على تسجيل "نوعيات" الجماعة المسلمة

¹ . giraud Marcel : « Un magistrat algerien, homme de lettres, Ferdinand Duchêne », article cité, 1961.

من أجل تبرير سيطرة جماعة على أخرى . فهم يتحدثون إذن عن الخرافات، عن تعدد الزوجات، عن أطقم اللباس، وعن ضرورة التعلم . فهم يستطيعون إذن أن يقدموا المصادرة و المسلمة التي، حسبها، تكون "الحضارة الغربية أعلى و أرقى من حضارة الأهالي" .

غير أن لوسيان فافر وألبيرت تريفيموس (هما كاتبان فرنسيان من فرنسا، صادقان بوجه خاص) يلتحقان من أجل وصف اهتزاز و زعزعة المجتمع الأهلي في مجموعه . هذه الزعزعة تترجم من خلال البؤس البيولوجي، وكثرة الأطفال المشردين في الشوارع، ومن خلال المهن والحرف الصغيرة . فالأهلي هو قن مألوف" في الريف وفي البادية، وفقا، للألفاظ الخاصة للويس لوكوك ولشارل كورتان، وماكسميليان هيلر وألبيرت تريفيموس . إنه مستنزف معاصر، ومستغل من قبل الكولون الذين أصبحوا "والة طغاة"، ومن قبل الإدارة المحلية، ومن قبل الوجاهة الأهلية . ويظهر رد فعل المسلمين من خلال رفض القوانين الفرنسية، ومن خلال الامتثال و الإذعان لتقاليد الأسلاف، وإلى قواعد الإسلام . إنه بإجمال عدم الاعتراف بالنظام الكولونيالي ومقاومة التدخل الأجنبي . ويفرغ فرديناند ولويس لوكوك على الخصوص، جهدهما في وصف وتصوير، هذا الشكل من المقاومة السلبية، في عدد من أعمالهم . كان عليهما كلاهما، أن يظهرها و يبرزها أيضا محافظة المرأة المسلمة، إذن، في وقت حيث كانت تفرض فيه روح التماسك أكثر من أي وقت آخر في المجتمع الإسلامي .

لم يكن الكتاب الكولونياليون يتمكنون من فهم ذلك تماما لأن لا أحد من بينهم، لم يكن لوسيان فافر أكثر من ألبيرت تريفيموس، ولويس لوكوك وفرديناند دوشين، يفكرون في أن يضعوا النظام الكولونيالي نفسه موضع الاتهام، لكنهم كانوا يقترحون فتح مقطع " من الحياة الجزائرية " . فهم يصرحون كلهم بالرغبة في إدماج الجزائريين . وترجم نظرية الإدماج هذه

نوعاً من حقيقة السياسة الكولونيالية . يجب إبراز و تحرير نواة، في حضان
 جموع الكتلة الأهالية، انطلاقاً من بعض المعايير في الاختيار، " تسمح بإقامة
 علاقة بين المجتمع الأهلي المستعمر والقوة المستعمرة " . وقد تكون المدرسة
 هي المكان المفضل للتقارب المرجو و المحبذ . إنه في هذا الاتجاه كانت فيه
 كتابات لويس لوكوك، ولوسيان فافر وألبيرت تريفيموس، بالأخص، تعكس
 جزءاً من التاريخ الثقافي والفكري و العقلي للمسلمين . هؤلاء الآخرون
 لا يرفضون التعليم الفرنسي قط. بل بالعكس يطالبون به . فالعلاقة بين
 تحسين ظروفهم المعيشية والمدرسة كانت قد اكتشفت وصنعت من قبل
 الجزائريين . غير أن الطلبة المسلمين، يوضح لويس لوكوك بدقة، في خمسة في
 عينك (1925)، وألبيرت تريفيموس في فرحات، المعلم الأهلي،
 (1935)، يرفضون إيديولوجية المدرسة الفرنسية المعدة و الجاهزة من
 الليبرالية والشمولية الكونية لأنها لا تناسب ولا توافق الواقع و الحقيقة
 في المستعمرة . لقد وقع هؤلاء " المتطورون " بين ثقافتين، و حضارتين
 في سياق كولونيالي. فهم لا يتبنون، في الواقع، من الحضارة الغربية إلا
 العلامات والإشارات الخارجية . فبطل ألبيرت تريفيموس يتحرر، في حين
 يظهر و يبين لويس لوكوك أن الطلبة المسلمين، ينطوون و ينكفئون على
 ماضيهم الخاص و يبحثون عن ملاذ في مجتمعهم الخاص، من أجل الاضطلاع
 والنهوض بهويتهم و شخصيتهم الخاصة، فلنقلها . إنه النقل والتسجيل
 للواقع في المستعمرة . بالنسبة للمثقف المسلم، فليس هناك مخرج آخر.
 فالمجتمع الأوروبي مغلق و موصد أمامه، وفقاً لعدد من الكتاب. وتصف
 الروايات الأهليانية " الرفض في أحضان الجماعة المسلمة للتيارين، الاتجاه
 التقليدي والديني، المعارض لكل إدماج، و لكل اتصال حتى مع " الروامة
 " واتجاه المتطورين المتحضرين". هؤلاء الآخرون يقتربون من الأوروبيين . فهم
 يريدون " التعاون " من غير التخلي عن شخصيتهم . وأخيراً، يتأكد لويس

لوكوك ولوسيان فافر من أن المؤسسات الدينية والأسرية للمجتمع المسلم تقاوم بشدة . " فالجماعة المسلمة معادية للحضارة المستوردة المجلوبة "، تستخلص وتستننتج لوسيان فافر في *المشركي* (1930). ويصبح هذان الكاتبان الشاهدين على تجانس و ترابط المجتمع الإسلامي . ومع أن لويس لكوك، خاصة، كان قد اعتقد أن التشابه في الأخلاق و السلوك بين المسلمين والأوروبيين، وهو تشابه يعزى إلى انتمائهم و انتسابهم المشترك إلى العالم المتوسطي، قد راح يقرب بين هذين الطرفين من السكانين . إنما هي معاناة فشل قام بها فهو إذن يحترم ويراعي الحقيقة التاريخية . في هذه النقاط الأخيرة بالضبط.

عندما يتناول الروائيون الفرنسيون رسم و تصوير الطائفة الأوروبية، فهذا من أجل أن يكون وصفها وتصويرها بشكل مجمع عليه بأنها " طماعة جشعة و عملية إجرائية، وفضة خشنة الطبع، عنيفة. هذه العلامات والسمات من الخلق و الطبع هي " التي يجب أن يمتلكها الأسياد والمحتلون الغالبون"، وفقا لرأي لويس بيرتراند وروبيرت راندو . بيد أن، لويس لكوك، وماكسيميان هيلر، ولوسيان فافر، وألبيرت تريفيموس ينددون بالعنصر الأوروبي في مجمله . إلا أن لويس لكوك كان غامضا مبهما. فهو يصف في 1923 بوجدانية وبتعاطف، بروميتش، مالطي الأصل، ممثل الشعب الصغير للأحياء الشعبية الأوروبية، غير المندمجة تماما، لكنه " مع ذلك " متفوق على الأهلي " حسب رأي المؤلف، مجرد أنه ينتسب وينتمي إلى الطائفة المسيطرة . كان الإعمار و الإسكان الأوروبي الصغير (لقد ذكرناه) قد حلل بإسهاب من قبل ميسات، ولويس بيرتراند وبول أشارد، وجبريال أوديزيو وجيل روي. كان على لويس لكوك أن ينفصل عنهم في 1928، ويندد بذلك . فعلا، بالنسبة لهذا الأخير، كما بالنسبة من جهة أخرى لجان بومي، وشارل كورتان، وبيار فالان، وشارل عقون، وجزائريانيين آخرين أيضا، إن هؤلاء

هم الموظفون " فرنسيو الجزائر" (عموما من أصل فرنسي) الذين يشكلون " الهيئة الأكثر وطنية بالتأكيد" ⁽¹⁾ . كان على لويس لكوك، ولوسيان فافر، وألبيرت تريفيموس كان عليهم أن ينفصلوا حينئذ عن جوقة المديح إزاء عملية الاستعمار في الذكرى المثوية، والخضوع " لفرنسيي الجزائر"، في روايات نقدية بمنهجية بالنسبة إليهم .

من أجل ذلك، كان كل الثلاثة يرجعون إلى " فرنسي فرنسا" . إنه فعلا، هذا الأخير الذي في سردهم، يجب اكتشاف الواقع الكولونيالي . كانت هذه المعاملة و التصرفات متبناة في الحريتي 1921، وفي شمس في 1928، من قبل لويس لكوك . ويستعملها ألبيرت تريفيموس في نزل السرسو في 1930، ويجعل شارل كورتان الفرنسي من فرنسا فيلبياي يتدخل، في مقهى المور 1939، وتتوجس لوسيان فافر خيفة من الحقائق بصفتها " فرنسية من فرنسا"، هي نفسها .

من يكون هؤلاء أوروبيو الجزائر، حسب رأي مختلف هؤلاء الروائيين ؟ إنهم "مغامرون جاءوا من كل ضفاف المتوسط، لا من أجل أية رسالة ولكن من أجل جمع الثروة و تكوين المال" . كل الكتاب الأوروبيين لما بين الحربين العالميتين يصرحون بذلك باتفاق و بإجماع: "أن الجزائر هي مرآة لطيور القبرة" تقول أنا كولنات. لم يعد المتربوليتاني، منحطا وساقطا، كما في روايات لويس بيرتراند وروبيرت راندو . وابتداء من 1921، "ستكون للفرنسي من أصل فرنسا مكانة مفضلة و متميزة في مختلف الحكايات. إنه مستقيم ونزيه، إنه مغرم ومولع بالعدالة والإنسانية"، فهو يمد يده إلى الأهلي المستعمر الذي يبدي ويظهر وتبنيه. وبالمقابل، فإن لويس لكوك

¹ . L. Lecoq : « L'Algérien en France », juin 1927. « La métropole doit réserver ses faveurs aux cadres français immigrés. L'Algérie n'est française que parce qu'il sont la . »

وماكسيميليان هيلر، ولوسيان فافر، وألبيرت تريفيموس ينهضون ويقفون ضد البلاهة و الحماسة، والتبجح والتفاخر، والعنف والفظاظة والخشونة، الوحشية حتى من بعض العناصر للسكان الأوروبيين. ليس هناك من جديد حتى الآن بما أن لويس بيرتراند وروبيرت راندو كانا قد أوضحا هذه السمات وهذه الميزات من أجل التحميس لها و تفخيمها. وزيادة عن ذلك، يلاحظ لويس لكوك أنه لا يوجد هناك تماسك وتلاحم اجتماعي، بل هناك علاقات وروابط ما بين الأشخاص، وتدرج تصاعدي وحتى صراع طبقات داخل هذا المجتمع. وكان جان بومي وشارل عقون وبيار فالان يكون و يرثون، هم أيضا، انعدام هذا التماسك الاجتماعي. غير أننا نجد ثلاثة عناصر أساسية مشتركة، وفقا لشهادات الروائيين، تقريبا كل الكولونيين لهم: أولا وقبل كل شيء اتحاد ضد الأهالي، ثم معاداة السامية الاقتصادية المؤسسة على وقائع وأفعال تقريبا حقيقية وأخيرا الريبة و الحذر، بالنسبة لفرنسيي فرنسا المعترين من محبي الأهالي وإنسانيين. فعلا، فالحقيقة قد احترمت وروعت، مرة أخرى، لأنه بين 1924 والجهة الشعبية 1936" سيكون العرب والإسرائيليون مرمى وهدفا للمعادين للسامية. إنه من غير المجدي التذكير بنتائج هذه المعاداة للسامية حين الحرب العالمية الثانية.

وتوضح ماكسيميليان هيلر، بالشهادة أيضا، في *البحر الأحمر*، معارضة الجيلين من إسرائيليي الجزائر. مع أن الجيل القديم كان مختلطا و مندججا بالأهالي⁽¹⁾ فهي معادية لكل "اختلاط وامتزاج للأجناس". هذا الجيل لا زال يحمل في ذاكرته الأحداث المعادية للسامية في نهاية القرن. على العكس من ذلك، فإن الجيل الشاب، "المفرنس" يريد أن يندمج في العنصر الأوروبي. وتظهر ماكسيميليان هيلر أن الأصل اليهودي كان معوقا في النجاح

¹ . M. Heller : La Mer rouge, op. cit., p. 17.

الاجتماعي والمهني. إذن فالجيل اليهودي الشاب ينضم و يصطف إلى جانب المنتصر الغالب بالأمس، بما أنه هو أيضا كان مهانا محققرا ومزدريا. وتستحضر لوسيان فافر، هي أيضا، هذا العالم المفصول المليء بالحواجز لما بين الحربين، عالم من دون إمكانية كبيرة للاتصال والتواصل. إنهم الميزابيون هذه المرة، الذين سيكونون مع الإسرائيليين معرضين، تقول، إلى العقاب والانتقام الجماعي الشعبي. "وتضيف أن" هاتين الطائفتين من السكان، لا يمكن أن يكون لهما، حسب باقي المجتمع الكولونيالي، إلا الاشتغال بالأمور المالية والماركتتيلية التجارية فقط". ومن ثم فالأوروبيون ليسوا أكثر من المسلمين، فهم لا يريدون الانصهار و الاندماج .

كان المشكل المطروح للمناقشة في 1921، آنذاك هو مشكل الإدماج إذ أنه، حسب رأي لويس لوكوك، وماكسيميليان هيلر، وألبيرت تريفيموس، ولوسيان فافر، أن الكولونيين كانوا لا يزالون مع القهر والإخضاع والاستعباد. كان هؤلاء الكولونياليون، إذن، متأخرين عن السياسة الكولونيالية الفرنسية بمرحلة. فالروائي لويس لوكوك لا يجب الملكيات الزراعية الكبرى" على الخصوص. فهو يتمسك إذن بالخطابات التي تعكس الطبيعة الحقيقية للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية التي تحافظ عليها المستعمرات (المستثمرات) الكبرى مع الفلاحين.

كان هؤلاء الآخرون مستغلين بكيفية " غير إنسانية وفضة وحشية". إنهم كانوا محبوسين ومقفلًا عليهم، يقول لوكوك، بصفتهم يدا عاملة في الأشغال الأقل تخصصا، في حين أن امتلاك الأراضي تمنح الكولونيين الكبار السلطة السياسية. ول هؤلاء الآخرين نزعة في التصرف والتعامل كأسياء إقطاعيين مما لا يمنهم، طالما أنهم يعيشون على أراضيهم، من أن تكون لديهم عقدة المحاصر، المحدق به. وترجم هذه العقدة بالفظاظة والخشونة المفرطة المبالغ فيها بالنسبة لعمالهم ومستخدمهم. ويكون هؤلاء

الكولونياليون الكبار، يوضح لوكوك، مجموعات ضغط سياسية متصلبة عنيدة ومتكتمة على تعليمات السلطة الحقيقية العاجزة. هذا الوصف للكولونياليين الكبار المنجز في 1921، سيعاد تناوله ثانية في 1928، بنفس الأسلوب.

يمكننا أن نقول أن هذه المستعمرات (المستثمرات) الأرضية هي قريبة جدا من تلك المستثمرات التي يجدها ويتحمس لها لويس بيرتراند في امتياز واحتكار السيدة بيتيجاند في 1912، وروبيرت راندو في الكولونياليون 1926. وإيديولوجية الروائيين هي وحدها التي تتميز وتختلف من الواحد إلى الآخر. وتصبح الرواية الكولونيالية في هذا المنحى، رواية الخيبة والفشل والسقوط. "ومع أن العالمين، المسلم والأوروبي، مشتركان بالفاصل، فهما لا ينفذان إلى بعضهما البعض و منعدا التأثير من جراء سوء النية المتبادلة. إنه هكذا يستخلص ويستنتج أغلب الكتاب الأوروبيين حتى ألبرت كاموس سنة 1958، في وقائع جزائرية (1939 - 1958).

كان عليهم كلهم أن يطالبوا بإنسانية وعدالة اجتماعية أكثر في المستعمرة إلا أنه باستثناء لويس بيرتراند. فهذا كنا قد رأيناه، يتجاهل الأهالي.

وهكذا، من الخطابات الأدبية الكولونيالية للإنكار والرفض، والسلب في بداية القرن، سيخلف ويعقب الخطاب الإنساني منذ 1920. ويحضر ويشاهد حتى في بداية نقاش و مجادلة غداة الذكرى المئوية. فعلا، فشارل عقون يعلق في 1931، في الإفريقية عن كتاب لأحد المثقفين المسلمين، فرحات عباس، الشاب الجزائري⁽¹⁾. ويصدر كاتبان من المستعمرة، أحدهما

¹ . Charles Akoun : « Le jeune algerien, livre de ferhat abbès », Afrique, n°72, 1931, p. 12.

مسلم، عبد القادر فكري، والآخر فرنسي، روبرت راندو، في 1933 عملا كتابيا بالاشتراك *رفقاء الحديقة*، الذي كان، في الواقع، كما قد أشرنا إلى ذلك، "حوارا سياسيا". كانا يريدان كلاهما البرهنة أن الأخوة والوئام الفرنسيين/ المسلمين كانا يمكنهما أن يصبحا حقيقة "وأن المسلمين والمسحيين كان لا يمكنهم إلا أن يكونوا شعبا واحدا"⁽¹⁾. قد شارك عبد القادر فكري في *إفريقيتنا* بمصنف من ثلاث عشر حكاية، في 1925، وكان له مكانة و موقع في المجلة *الإفريقية*. فهو يعبر عن فكرته بكل صراحة في "مجادلة الجزائر" *الإفريقية*، جويلية - أوت 1932، من أجل الدفاع عن دينه الخاص، الإسلام⁽²⁾. كان هناك، إذن، تقارب مؤكد، في هذه الفترة بين الأوروبيين والمثقفين المسلمين. لكن كان هذا لا بد أن يكون محدودا لأن روبرت راندو كان عليه أن يتعجب ويندهش، في 1940 "أن ليس هناك إلا أسماء للفرنسيين والأوروبيين، وليس أسماء أهالي مسلمين"⁽³⁾ من أجل تأليف مصنف من الأشعار (للإصدار) .

¹ . Laurent Ropa : « Commentaire du livre les compagnons du jardin », Afrique, janvier 1934.

² . « Controverse d'algerie », article dans Afrique, juillet-août 1932. La publication d'Alceste, roman de Claude Maurice Robert a motivé de la part de Fikri, les réflexions suivantes : « l'auteur d'Alceste a-t-il observé les colons ? sont -ils aussi ardent au labeur que les cultivateurs de France ? qu'il lise alors l'Hotel du Sersou, étude de mœurs de truphémus.... Si être latin et chrétien, c'est être supérieur, la modestie est une qualité recommandée par toutes les religions Le Deutsch land uber allés ?.... L'article est long et abd-el- Kader fikri réfute point par point « les thèse » de l'écrivain colonial.

³ . R. Randau : « pour un recueil de poème à paraître », Afrique , juillet-août 1940.

يمكننا القول إذن أن دراسة الآداب الكولونيالية لما بين الحربين تهمنا و تعيننا بالقدر الذي تسمح لنا به بالتعرف و الاطلاع على البعض من مظاهر المجتمع الكولونيالي. هذه الآداب تعلمنا و تجربنا أيضا أن صنفا و فئة من فرنسيي المستعمرة قد أحسوا و شعروا بالحاجة إلى الكتابة من أجل تبرير العملية الاستعمارية التي، حسب رأي جان بومي، " ما زالت لم تكن أبدا قد حكم عليها بالفضاحة و الفضاة إلا في تجاوزاتها و تعسفاتها"⁽¹⁾. وهكذا، فإنه تحت تأثير الأحداث و الوقائع التاريخية، كان هؤلاء الكتاب يبحثون و يفتشون عن " التعزيم على الحظ " واقفين ضد تعسف و تجاوز النظام الكولونيالي مع أنهم لم يقوموا أبدا بالعمل على التقارب مع نفس هذا النظام . فهم راحوا، بالتالي، ينزلون و يترهبون في التناقض و من المشاهدين الموضوعيين، يصبحون ممثلين فاعلين ذاتيين . كيف يقيم منذ ذلك الحين لدى الكتاب الكولونيين هذا الاتحاد في الإيديولوجي و الملاحظ المراقب ؟

فعلا، كانت معظم الروايات الكولونيالية مطبوعة و موسومة بطابع الإيديولوجية . ماعدا روايات لوسيان فافر و ألبيرت تريفيموس التي تصنع الاستثناء . على العكس من ذلك فلويس لكوك يعمل على إدخال الخرافات و الأساطير من أجل الشرح و التفسير في 1925، أنه إذا كانت كتلة جموع المسلمين بئيسة، فهذا يعود و يعزى إلى " ذهنيته و عقليته المتخلفة " . مع أنه كان قد ندد و استنكر في 1921، إذن من قبل بكثير، باستغلال الأهالي من قبل الكولون الكبير. كان عليه أيضا أن يقوم، في 1925، بإنجاز الصورة الشخصية (البورتريه) الخرافية الأسطورية للمستعمر الأهلي و المعمر و كان يقدم و يعرض على الجماعة الأوروبية " الصورة المقيمة و المقدرة لها بالذات كأنها في مرآة " . و بإجمال، فهو يخلق

¹ . Jean pomier : Cronique d'alger (1910_1957), p. 30.

و يخترع و يبتكر وهما وتلفيقا ميالا و هادفا إلى تأمين الأمن الذي يعاينه و يكابده، هو نفسه " . فهو يؤلف، في 1925، ويكون إذن عالما مختلفا عن العالم الواقعي الحقيقي، عالما كان قد "جلده و سوطه و وجحه " في 1921 والذي سيندد به أيضا في 1928 . هذه التناقضات تؤدي بنا وتقودنا إلى أن نتساءل إن كان حقا الروائيون الكولونياليون يؤمنون بنظرية إدماج أغلبية مسلمة في أقلية أوروبية؟ ما هي، في الواقع، إذن، التعليقات و الحوافز العميقة لإيديولوجية هؤلاء الكتاب ؟ لقد لاحظنا (كما قد سبق أن قلنا آنفا) إن ما يؤدي إلى مشكل، فهذا بسبب ما يكتبون، إنه قبل كل شيء " تطور القضية الأهلية، التهديد و صعود و انبعاث الوطنية الجزائرية، لكن أيضا القلق والانزعاج، الذي يكابده ويعاني منه و يشعر به البعض منهم في حوض ووسط جماعتهم الخاصة، من بينهم لويس لوكوك على وجه الخصوص. وستكون هذه حال ألبرت تريفيموس وألبرت كاموس، فيما بعد. هذا القلق والانزعاج والضجر، يشعر به لويس لوكوك في 1921، قبل الذكرى المئوية بكثير. إنه كان متأصلا فيه و راسخا دائما في نفسه في 1928، في الوقت حيث كان التهيؤ والاستعداد " لتمجيد " هذه الذكرى المئوية . لم كانت تعزى هذه الأصوات الناشزة المخالفة؟ كان الأمر يتعلق حينئذ بتوجيه قرارات الحكومة الفرنسية . كان هذا الهدف المشترك لكل الجزائريانيين من جهة أخرى . هذا ما يبرز بوضوح و بجلاء إيديولوجية لوكوك، في هذا الوقت بالتحديد (ما بين 1920 - 1930). إنه يناضل من أجل " الحفاظ على مستقبل المستعمرة " وأنه يكافح ضد الشعور بالمستقبل المريب الغامض . لم يكن هناك أيضا قلق و إزعاج و انشغال لدى الجزائريانيين الآخرين . كان لويس لوكوك عارفا و مدركا و واعيا بالتطور الذي كان يجري تحت عينيه، في الجزائر المسلمة لسنة 1930 . أما جان بومي، فكان عليه، أن يقول كثيرا فيما بعد، في 1972، " إنه فيما بين 1931

1940 الذي كنت قد بدأت أشك في المدخر والمخبأ المنتظر لمغامرتنا و مجازفتنا الخاصة...⁽¹⁾ .

لقد عاينا و سجلنا لدى مختلف المؤلفين، القلق والضجر والانزعاج بل أيضا الانطباع والشعور والتأثر من الاقتلاع والاجتثاث والاستئصال . ويعبر روبيرت راندو عن هذا التأثر والانطباع والاقتلاع في الإفريقية في 1940. "إن المهاجر، يقول، سوف لن يكون مقتلعا مستأصلا في إفريقيا)⁽²⁾ .

ومع أن كل الجزائريين يستعيدون و يتناولون ثانية فكرة الإدماج المستوردة المجلوبة من فرنسا، لا لمحاربتها مثل لويس بيرتراند وشارل كورتان مثلا، بل من أجل إعادة استعمالها و استخدامها . إلا أننا نسجل، أنه إذا كان هؤلاء الكتاب يججلون، ويطرون، و يمدحون، في كتاباتهم التقارب بين جماعات و طوائف الجزائر، فهم لم يكن عليهم أن يساعدوا و يسهموا قطعا، في هذا التقارب . من خلال القراءة السريعة للمجلة الافريقية، المجلة حيث ينشر أغلبية الجزائريين، لقد قمنا ببعض المعينات و التأكيدات، والتسجيلات . يريد شارل عقون، و بيار فالان، و جان بومي، و من بينهم آخرون "وحدة الروح، الروح الجزائرية" لكنهم يستعملون و يستخدمون في أغلب الأحيان لفظة "السكان الجزائريون" مؤكدين هكذا على التعدد والتنوع والاختلاف المحلي . ويتعلق الأمر بداهة بالسكان الأوروبيين . فالأهالي لم يكونوا مدمجين ضمنهم . فهؤلاء هم "السكان الأصليين"، عندما كان الأوروبيون لا يزالون لم يغتصبوا و يمتلكوا و يقتطعوا هذه الكلمة لأنفسهم بالذات . كان على السكان الأوروبيين أن ينصهروا فيما بينهم أولا

¹ . J. Pomier : Chronique d'alger (1910_1957), p.30.

² . R. Randau : « pour un recueil de poèmes à paraître », Afrique , juillet-aout1940.

قبل التفكير والحلم في جر واجتذاب الأهلي وأيضا... فليس أي كان . وبالتالي فإن الإدماج لا يمكن أن يكون إلا "إدماجا بطيئا" . ويجب أن يكون التطور و المساق و المدرج طويلا، حتى طويلا جدا لأنه، يوضح بدقة، روبرت راندو إلى الأهالي من خلال الوسيط بطله كسارد، "نحن نذيع و نشر الفجر السرمدى للعقل وأنتم غسق و انحطاط" (1)

إن مبدأ الإدماج البطيء كان في الواقع ذريعة مستعملة ومستخدمة لتأبيد و لإدامة الاستعمار والحراسة و حفظ المصالح لأجل ولمدة طويلة ولجعل المستعمر الأهلي "يتصبر و يتجلد" إذا صح التعبير .

لم يكن المؤلفون الكولونياليون مقتنعين و واثقين بميلهم وبنزعتهم الحضارية، على الإطلاق . لكن الحركة الجزائرية كان عليها ألا تنفلت من النفوذ و من التأثير الإيديولوجي لزمناها و وقتها .

يبدو ذلك واضحا وجليا في الحكايات خمسة في عينك في 1925 و باسكولايت في 1932 للويس لكوك . في أسطورة "المستعمر الأهلي الكامل التام" الذي يعترف و يقر بتفوق المعمر، في 1925، ستأتي و تترث بعد أسطورة "الكولون الصغير" في 1932 . هذا كان عليه أن يحل محل المالك الإقطاعي و المتغيب و يصلح، بذراعيه و بتضحية و بثمن ألف من الصعوبات الجمّة، قطعة صغيرة من الأرض . كان عليه أيضا أن يساعد الأهلي "على الاندماج". كان، في الواقع، عامل الزمن ضروريا للمستعمر من أجل، حسب رأي لويس لكوك، التطهير و التصفية لعناصرها "ملاك الأراضي الكبار" على وجه الخصوص، وبتدعيمها بإقامة و تنصيب معمرين أفضل . إنها بالطبع جولة ... التي تلعب هنا كما قد فهم

1 . R. Randau : les Algérienistes, roman cité, p. 16.

ذلك المؤلف جيدا . كانت إيديولوجيته بالتأكيد إيديولوجية هيمنة و سيطرة قلقة منشغلة و منزعة، إيديولوجية التعويض " إجمالا . كانت العقيدة، والمذهب الجزائرياني، في النهاية، يدافع عن الوضع الراهن(الحالي) .

كان هذا الموضوع " للكلون الصغير" في اتجاه التيار المعاكس للواقع الكولونيالي، قد طور ووسع حتى نهاية الجزائر الكولونيالية . فهو يعكس حقيقة أخرى يريد كل الكتاب الأوروبيين الفرار منها . كان شارل كورتان يوسع و يفصل هذا الموضوع في 1930، وأنا كولنات في 1936، ولويس جرواسارد، وكتاب كولونياليون آخرون، في 1939، في *كولون جبل سلمو*، ومارسيل موسي، في 1954، في *الأرض الموعودة*. إن تركيز و تجميع الأراضي، في الواقع، قد قلل و خفض كثيرا من المستعمرات (المستثمرات) الصغيرة . لكن هؤلاء الكتاب كلهم يؤسسون، للحق في الاحتلال والاستيلاء على الأرض، بناء على مزاعم وافتراضات "العرق والدم المراق المدفوع" ، في حين أن هذا الحق كان قد اعترض عليه في هذا الوقت بالذات من قبل الوطنيين الجزائريين .

وستبحث " مدرسة الجزائر " التي تخلف و تراث الجزائرية " ابتداء من 1935، عن ملاذ كما قد سبق أن سجل و لوحظ أنفا، في التجريد وعن الرجوع إلى موضوع الحياد للرجل المتوسطي". هذا الأخير ينتمي إلى حضارة عالمية كونية، ليس له، بالتالي، لا جنس ولا دين. وهذا يكشف مصاعب الكتاب الفرنسيين في إيجاد حل للنزاع الكولونيالي من غير أن يكون لهم الرجوع والعودة إلى الخرافة والأسطورة. فهم لا يبالون ولا يقيمون وزنا للمشاكل السياسية الحقيقية. إلا أن، "مدرسة الجزائر" مع جبريال أوديزيو، وألبيرت كاموس، وإيمانويل روبلس، تفتح السبيل إلى

الحوار⁽¹⁾. كان على ألبيرت كاموس أن يبدي رأيه ويعلن موقفه، هكذا في 1939: "إذا كنا نريد حقا الإدماج، يجب ألا يفصل المسلم عن الفرنسيين"⁽²⁾ فهو يعترض حتى على الإيديولوجية الكولونيالية. "فنحن نتكئ ونعتمد، يقول، على الذهنية و العقلية من أجل إيجاد أعذار للوضعية الحالية (الراهنة)... لا أجد شيئا أكثر احتقارا من هذه الحجج والأعذار"⁽³⁾.

لكن، في المستعمرة الأوروبية، لا يهتم قط بالملاحظات الدقيقة لأفعال ووقائع الجزائريين". كان لوران روبا، كاتب جزائرياني، يسجل ويبين في مقاله لسنة 1933: "كان المؤلفون الذين كانوا قد عالجوا وتناولوا رعايا شمال إفريقيا، بعد أن كانوا قد حاولوا رسم وتصوير الروح الإسلامية، يستعدون ويتأهبون لترك عرق المعدن هذا، خائبين ومنهزمين. "وكان يضيف" لقد نسينا أنه إذا كانت الأخلاق والسلوكات تتنوع، فإن الرجال في كل مكان هم أنفسهم"⁽⁴⁾.

كانت أعمال الكتاب الكولونياليين، منذ الذكرى المثوية، تميل وتتجه إلى الشيء الأساسي، نحو الماضي، إلى بدايات الاستعمار. إن هذا ما سيؤدي إلى القول لإيميل هينريوت للأكاديمية الفرنسية حين تسلم الجائزة الأدبية

¹ . Mouloud Feraoun écrivait à E. Robeles et A. Camus en 1959 : « Vous les premiers, vous nous avez dit : voila ce que nous somme , alors nous, nous avons répondu : voila ce que nous somme de notre coté. Ainsi a commencé entre nous et vous le dialogue. » (j. Dejeux, op. cit., p. 65).

² . A. Camus : op. cit., p. 64.

³ . A. Camus : Op. cit., p. 40.

⁴ . Laurent ropas : « commentaire du vice à la vertu », Afrique, 10 décembre 1933.

من قبل مارسيل موسي، في 1954، "إن الرواية الجزائرية تبقى للكتابة أدبيا، فيما يخص الأخلاق والطباع، وفيما يخص الذكاء والفطنة وتعايش الأرواح والعقول"⁽¹⁾.

لكنها القطيعة، في ذلك الوقت، مع "القوة الكولونيالية" التي تتحدد بوضوح وتزف ثلاثية محمد ديب، وعمل مولود فرعون آمالا أخرى غير آمال الشبان الجزائريين" للذكرى المئوية. كان مولود فرعون يقول بجلاء وبوضوح "الحقيقة أنه لم يكن هناك زواج أبدا. كلا، لقد بقي الفرنسيون باحتقار وبازدراء بعيدا على الحياد. لقد ظل الفرنسيون أجنب. فهم كانوا يعتقدون أن الجزائر هم... نقول لهم "كلا، يا سادة، الجزائر نحن. أنتم أجنب غرباء على أرضنا"⁽²⁾. فالرواية الكولونيالية، كالمستعمرة نفسها سيريان أنفسهما مقتنعين واثقين بالخبية والفشل والسقوط.

ستدخل هذه الآداب الكولونيالية، بالتالي، في التاريخ وتصبح هي نفسها موضوعا للمناقشة، يلاحظ في جريدة لوموند ليوم أول نوفمبر 1979. "هل هي حقيقة تاريخية؟" و"ثقافة (خائبة، مخففة، أجهضت)؟" إنها حقيقة تاريخية بالنسبة لجان بيار كاستيلاني⁽³⁾ وثقافة خائبة بالنسبة لأندري باسيرون.

¹ . E. Henriot : « Marcel Moussy , Grand prix d'Algérie », Dépêche Algérienne, 28 mars 1955.

² . mouloud Feraoun : journal 1955_1962, Paris le seuil 1962, p. 45.

³ . J. P. Castellani : Professeur agrégé des lettres à l'université de Tours.

مراجع:

1) References bibliographiques :

Arnaud (jacqueline), DEJEUX (jean), ROTH (Arlette) : _ Anthologie des écrivains français du Maghreb, sous la direction d'Albert Memmi, Paris, Présence africaine, 1969.

Grenaud (Pierre) : _ notre Algérie littéraire, Oran, Fouque, Essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924, paris, champion, 1925 (thèse).

TAILLART (Charles) : _ l'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924, paris, champion, 1925 (thèse).

AUDISIO (Gabriel) : _ Lettre personnelle du 16 mai 1974.

POMIER (jean) : _ lettres adressée à jean Dejeux, mai 1974.

2) Texte originaux :

a) Œuvres littéraires

ACHARD (Paul) : _ L'Homme de mer, Paris, Ed. de France, 1931.

Achard (paul) : _ salouetches, évocations pittoresques de la vie algérienne en 1900, alger , baconnier, 1941, rééd. Paris Balland, 1972.

Anthologie de 13 conteurs algériens, notre afrique, préface de louis bertrand, paris, monde moderne, 1925.

Audisio (gabriel) : _ cagayous de musette , textes recueillis par gabriel audisio, paris balland, 1972.

Audisio (gabriel) : _ jeunesse de la méditerranée, paris, gallimard, 1935.

_le sel de la mer, paris, gallimard, 1936.

_ amour d'alger, alger charlot, 1938.

Benoit (pierre) : _ l'atlantide, paris, albin michel, 1919.

Bertrand (louis) : _ le jardin de la mort, paris, ollendorf, 1904.

_ pépète le bien -aimé, paris, fayard, 1904.

_ les villes d'or, 15^e éd, paris , arthème fayard, 1927.

- _ Pépéte et Balthazard , Paris , Albin Michel , 1920.
- _ La concession de Madame Petitgand ,Paris , Fayard ,1912 ,avec avant-propos.
- _ Le Sang des Races, Paris ,G.Grés ,1921,édit. Copléte revue et corrigée . La première édition , Paris , Ollendorf,1889.
- _ Préface à l'Anthologie des conteurs algériens ou *Notre Afrique* , Paris , édit. Monde Moderne , 1925.
- _ Le Roman de la conquête , Paris , Fayard, 1930.
- _ Africa, Paris , Albin Michel, 1933, réédit. *Du Jardin de la mort.*
- _ *sur les routes du Sud* , Paris , Fayard , 1936.
- BUGEJA (Mrie) : _ *Nos sœurs musulmanes*, Paris , Argo, 1921.
- _ *Du vice à la vertu* , roman d' une Naila , Paris , nouvelle édition , Argo,1932.
- BRUA(Edmond) : *Les Fables Bonoises* , Paris , A. Balland , 1972, 3é édition revue et corrigée de 1946.
- CHASERAY(s) : « *La Rek'ba* », Paris , Monde Moderne, 1925.
- _ *Lettres de l'Oued Melhouf* , Alger , Mallebay 1894, réédité sous le titre : *Chroniques de l' Oued Melhouf* , Alger , Mallebay , Paris , éd. De la France africaine , 1913.
- CLUZIERE(Marte) : _ « Un Bicot » , Paris , Monde Modrne, 1925.
- COLNAT (Anna) : _ *Virginie Duparc*, Terrienne d'Algérie , philippeville ,A. Constantini,1936.
- COURTIN(Charles) : _ *La Brousse qui mangea l'homme* , Paris , Edition de France , 1929.
- _ *Au Pays de la paresse*, Paris , Lemere ,1933.
- _ *Café Maure* , Paris , édition de France , 1939.
- DINET(E) et BAMER(S) : _ *Scènes et tableaux de la vie Arabes* , Paris , Edition d'art ,1928.
- DUCHÉNE(Ferdinand) : _ *Les barbaresques : Au Pas lentdes Caravanes* , Paris ,Albin Michel , 1922.

- _ Au Pieds des monts éternels, Paris, Albin Michel,1925.
- _ Kamir, roman d' une femme arabe, Paris Albin Michel, 1926.
- IBERHARDT (Isabeelle) _ Dans l' ombre chaude de l' Islam , préface de V. Barrucand, Paris , Fasquelle , Grasset
- BERHARDT(Isabelle) : _ Pages d' Islam , Préface et notes de V.Barrucand,Paris , Fasquelle , 1920.
- FAVRE(Lucienne) :_ Bab-El –Oued ,Paris, G.Grés,1926.
- _ L'Homme derrière le mur , Paris, G.Grés, 1926.
- _ L'Oriental, Bernard Grasset,1930.
- _ Tout l'inconnu de la casbah d Alger, Alger, Baconnier, 1933.
- _ La Casbah , Paris, Grasset, 1937.
- _ Le Bain Juif, Paris , Bernard Grasset,1939.
- _ Mourad, Paris, Denoel ,1944.
- FEKRI (Abdelkader) (Hadj Hammuo) : _ « Le Frère d' Elthous », dans Notre Afrique , Paris, Monde Moderne, 1925.
- FEKRI(Abelkader), RANDAU (robert) , en collaboration :_ Les Compagnons du Jardin, Paris , Lovitan, 1933.
- FROMENTIN (E) : _ un été dans le Sahara, Paris, Lévy ,1857.
- FROMENTIN (E) : _ Une année dans le Sahel , Paris , Lévy, 1859.
- GIDE (André) : _ Les nourritures terrestres ,Paris, Edition de la Nouvelle revue française , 1921.
- GIDE (André) : _ Journal(1889-1939),Paris ,Gallimard, 1951.
- HAGEH(Charles) : _ « Pas d'Histoire Casbah », dans Notre Afrique,Paris Monde Moderne , 1925.
- HELLER (Maximilienne) : _ La Mer rouge , Paris, Bernard Grasset,1923.
- _ « L'incarnation » ,Notre Afrique , Paris, Monde Modene, 1925.
- LECOQ (Luis):_ Les lumières, Paris, la mediterrannée Française, 1908.

_ Anthologie de Treize Poètes algériens , réunis par les soins de Luis Lecoq , (Alger, A.E.A. 1920, 315, p. œuvres Depliazzo , Raoul Genella , Annete Godin, Admond Gojon , Charles Hagel, Maximilienne Heller, Luis Lecoq, Leo Loups , Lucien Pelaz, Robert randau, Alfred Rousse , Albert Tuste).

_ Broumitche et Le Kabyle, (écrit en collaboration avec Charles Hagel), comprend 4 contes , : « Broumitche et le Kabyle » « La levéedes Morts », « L’Incendie » « Shoroq », Paris Arthème Fayard ,1921.

_ Sidi Ghorab, Surcorbeau, Paris , Albin Michel , 1923, (avec Charles Hagel),

_ L’Empire du monde , Avec Charles Hagel, Paris, Albin Michel , 1923.Cinq dans ton œil , Paris, Reider, F. E Cie , 1925.

_ Tout liquide suit la pente,Paris , Monde Moderne,1925, *Notre Afrique*.

_ Soleil , recueil de 4 contes : « Le Démon du bon Droit », La marque », « Couleur d’agave », « Les deux Paradis »,Paris , Reider E Cie , 1928.

_ Cain , Paris , Denoel and steele , 1930.

_ Pascualette l’Algérien, titre original *Moloch*,1932,Paris, Albin Michel,1934.

MOUSY(Marcel) : _ Arcole ou la Terre Promise, Paris, Table ronde , 1953.

MUSETTE(pseudonyme de Maurice Robinet) : _ Cagayous ses meilleurs histoires ,_ Choix et introduction de Gabriel Audisio, Paris ,Gallimard, 1931.

RANDAU (Robert) (pseudonyme de Arnaud) : _ Le Roman de la patrie algérienne ,

1/ Les Algérienistes , Paris Sansot, 1911.

2/ Cassard le Bérébere , Paris, Les Belles Lettres, 1921, réédition .

3/ Les Colons , Paris, Albin Michel , 1926, réédition.

_ Préface à de treize poètes algériens , 1920.

_ Les Anarchistes , Paris, Monde Moderne , 1925.

_ Le Grand Patron , Paris, Monde Moderne,1925._ Les Exploiteurs , Paris, Albin Michel, 1929.

_ Les Compagnons du Jardin , en collaboration avec Fikri,Paris, Lovitan, 1933.

_ Le Professeur Martin, petit bourgeois d' Alger, Alger, Baconnier, 1936.

STEPHAN(Raoul) : « La Retraite de l'Emmamed », notre Afrique, Paris, Monde Moderne, 1925.

THARAUD(J.J) : _ La fête arabe, Paris, Emile Paul, 1912.

TRUPHEMUS(Albert) : L'Hotel de Sersou, Roman du Sud-algérien, Alger, Soubiron, 1930.

_ Les Khouans du Lion noin ,scenes de la vie de Biskra, Alger, Soubiron, 1931.

_ L Arrière cour de La Paisible , Alger, Soubiron, 1931.

_ Ferhat , Instituteur indigène , Alger, France-Afrique Esquirol,1935, avec préface.

ZENATI(Rabah et Akli) _ Bou El Nouar Le jeune Algérien, Alger, La Maison du Livre, 1945.

B) Periodiques

1) Revue Afrique

AKOUN(Charles) :_ « Nécessité des méthodes algérianistes », juillet,1929.

AUDISIO(Gabriel) : -« Littératures algérienne »,mars 1945.

BRIMONT(Marc) :_ « Les livres, Le Colon du Djebel Selloum , de Luis Groisard, Edition la Kahéna, Tunis, mai, 1939.

CORNETZ(V) : « Critique de l'Hotel du Sersou , d Albert Truphemus et de l'hotel de du Nord,de Dabit Eugène »,avril1930.

_ « Les Revues , février1933.

CUSIN(Pierre) :_ « Courtin Charles , poète, autant que romancier »,mars 1940.

FAURE SARDET(Jeanne) : _ « Les livres , Un Mariage arabe dans le Sud algérien, par Léon Lehuraux »,mai 1939.(Léon

Lehuraux :Directeur du cours préparatoire aux sevices des affaires étrangères).

FIKRI(Abelkader) : _ « Controverse de l' Algérie, reponse à Claude Maurice Robert, auteur d'Alceste au désert », juillet-aout 1932.

GROISARD(Luis) : _ « Littérature Nord –Africaine »,juin 1934.

HELLER(Maximilienne) :_ « En écoutant Raoul Stephan »,mais 1936.

JEAN DARUOY(Lucienne) : _ « Un salon de poètes d'Alger », avril 1934.

LECOQ (Luis) :_ « Les Journaux et Les Revues , problème de l'émigration »,mai 1924.

_ « La littérature impérialiste et l'Agérianisme »,juillet 1924.

_ « Commentaire de l'article :Pérennité de la vie méditerranéenne »,de Geniaux Charles ,avril1925.

_Commentaire de L'Histoire de France, de Jacques Bainville »,aout 1925.

« Commentaire du roman Ulysse Cafre , de Leblond Marius-Ary »,aout 1925.

_ « Considérations algérianistes » ,septembre-octobre 1926.

_ « L'Algérie en France », juin 1927.

_ « Couples », septembre-octobre 1927.

_ « Expérience Coloniale », février 1928.

_ « Les livres à lire »,janvier 1930.

_ « Forums et basiliques , l'Algerie romane »,mars 1930.

_ « Commentaire de L'Expédition d'Alger du Général Azan Paul », avril 1930.

_ « Commentaire de l'Afrique Francaise », de Victor Piquet »,juin 1930.

_ « Commentaire du Prix de la Littérature algérienne : La Brousse qui mangea l'Homme, de Charle Courtin », juin 1930.

_ « Hagel Charles ,écrivain », janvier 1931.

LEFRANC (Jean) :

_ « Commentaire du Pèlerin de l'Espace, de Claude Maurice Robert », janvier 1935.

OLIVAINT(Maurice) :

_ « Les livres : Soleil, par Luis Lecoq », février 1928.

PELAZ(Lucien) :

_ « Le Grand Prix littéraire de l'Algérie en 1924 : Cinq dans ton œil », novembre 1925.

_ « Pour Luis Lecoq , in Mémoriam », avril 1932.

Pomier (Jean) :

_ « Algériennement , avril 1924.

_ « Les Algériens de Paris vu par un Parisien d'Alger », avril 1924.

_ « Gouverner », avril 1924.

_ « L'Algerie devant la France », mai 1924.

_ « L'Algérianisme, sa theorie, ses applications », juillet-aout 1924.

_ « D'une poétique algérianiste »,aout 1924.

_ « Sur un barbarisme », javier 1925.

_ « Le Maraboutisme », février 1925.

_ « Du Prix d'un Prix »,janvier 1926.

_ « Sur les écrivains d'Algerie »,février 1926.

_ « Intellectualité et Politique Nord Africaines », juin 1927.

_ « Robert Randau, son art, sa pensée », juillet 1929.

- « Attitude devant l'Islam , celle d' Etienne Dinet »,février 1930.

- « Critique de l'Hotel du Sersou , roman de Truphémus Albert », mars 1930.

- « Cain ,roman par luis Lecoq », janvier 1931.

- « Prélude à l' exposition coloniale de Paris »,avril 1931.

- « De Pierre Mille à Algérie », octobre 1931.

- « Echos : La Maison coloniale de poésie et le salon de poète algériens », décembre 1933.

- « Jeux étymologiques », décembre 1933.

- « Les livres : L'Arrière cours de la paisible , esquisse de la vie simple ,par A.Truphémus »,janvier1933.
 - « Echos », mai 1933.
 - « Les livres : Le livre de consolation, par Luis Bertrand »,février 1934.
 - « Un salon de Poètes à Alger », mars 1934.
 - « Commentaire de poemes de Pierre Valin : La vie intérieure, 1933 », avril 1934.
 - « La mémoire de Luis Lecoq »,décembre 1934.
 - « Pascualette l'Algérien , roman de Luis Lecoq,selon le commentaire de Henri Pourat »,janvier 1935.
 - « Une Fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord », juin 1935.
 - « Gabriel Audisio et Luis Bertrand , vers syréne », aout 1935.
 - « Après l'exposition du livres algérien »,juin 1936.
 - « Edmond Brua , les Fables Bonoises », janvier 1939.
 - « Luis Bertrand à Alger »,juin 1939.
 - « Luis Bertrand et Algérianisme », janvier 1942.
 - « En mémoire de Luis Lecoq »,juillet-aout 1942.
 - « Algerien ? Un mot qui se cherche »,octobre –novembre 1951.
 - « L'AEA »,février-mars 1953.
 - « PELLEGRIN(Arthur) : _ « Sur un barbarisme et Nord-Africanisme, controverse de A.Pelligrin et J.Pomier », janvier 1925.
- RANDAU (Robert) : _ « Le Roman picaresque dans l'Afrique du Nord »,janvier 1933.
- _ « Le Professeur E.F.Gautieret les Vandales »,juin 1933.
- _ « Géographie et Colonisation « , décembre 1933.
- _ « La Nouvelle Méditerranée dans la littérature algérienne »,janvier 1940.
- _ « Pour un recueil de Poèmes d'Algérie à paraître »,juillet-aout 1940.

- _ « Constitution de l'Association des Ecrivains algériens », septembre 1940.
- _ « La vie Intellectuelle de l'Afrique du Nord », septembre 1940.
- _ « A propos d' un livre de Gabriel Audisio »,décembre 1940.
- _ « Gabriel Audisio : La vie littéraire en Algérie », 1945-46.
- _ « Revue Afrique : _ « Le Prix littéraire algérien et la politique du Prix »,mai 1924.
- _ « Les Enquetes d'Afrique : La représentation des Indigènes algériens au Parlement francais », juin 1924.
- _ « Bulltin de A.E.A. Association des Ecrivains algériens « ,juillet-aout 1924.
- _ « Les Romanciers coloniaux « , mai 1925.
- _ « A propos du Prix littéraire », mars-avril 1926.
- _ « Les Revues »,juin 1927.
- _ « Echos », mars 1931.
- _ « Echos », décembre 1931.Création du Comité des Amis de Luis Lecoq », avril 1933.
- _ « Un indigène ,Abdelkader Hadj Hamou, Vice –président de l'Association des écrivains algériens », avril 1933.
- _ « Echos : Nomination de Fikri », novembre 1933.
- _ « Echos :La Maison coloniale de Poésie », novembre 1933.
- _ « Les Journées du livre à Alger , initiative de l'A.E.A.mai 1933.
- _ « Echos : Les Jeudis littéraires de la maison des livres « , novembre 1933.
- _ « Concours littéraire :Office algérien de médecine préventive et d'Hygiène », avril 1934.
- _ « Gabriel Audisio : Le Sel de la Mer »,novembre 1936.
- _ « Echos : Societé d'auteurs dramatiques « , mai 1937.
- _ « Echos :Societé des Bea-arts, Alexandre Chevalier », juillet-aout 1952.
- « A.E.A.,février-mars 1953.

ROBERT(Claude-Maurice) :_ « Alceste au désert »,avril-mai 1932.

_ « L' Amazone des Sables, pour le Grand Prix », janvier 1935.

_ « Les livres : Virginie Duparc, une épopée de la Terre algérienne ,par Anna Colnat », janvier 1940.

_ « Un livre impie : Les Heures marocaines », avril 1930.

ROPA(Laurent) : _ « Pour les Ecrivains algériens »s 1933.

_ « Commentaire du roman Nos Sœurs musulmanes de Marie Bugéja », septembre 1933.

_ « Commentaire du roman Du Vice à la Vertu », décembre 1933.

_ « Commentaire de l' essai les Compagnons du Jardin , de Randau et de Abdelkader Fikri », janvier 1934.

_ « Le Culte de la Méditerranée », juillet-aout 1935.

ROUSSE (Alfred) : _ « Les Revues »,novembre 1934.

_ « Pascualette l' Algérien par Luis Lecoq », mars 1935.

ROY (Jules) : _ « Choses et Gens d'Alger : l'Épopée de Cagayous »,mai 1933.

_ « Commentaire du roman l'Homme de Mer , de Paul Achard », mai 1933.

STEPHAN(Raoul) : _ « Luis Lecoq », avril 1932.

_ « Souvenir sur Luis Lecoq »,novembre 1933.

_ « Trois Grands Africains : Isabelle Eberhadt, Luis Lecoq , et Robert Randau,conférence chez Gibert Jeune à Paris », avril 1935.

TUSTE(Albert) :_ « Intellectualité et politique Nord-africaines» ,juin 1927.

_ « Avec les poètes , Luis Lecoq », février 1932.

_ « Article de Charles Collomp : Les Vérités nord – africaines »,juin 1933.

_ « Questions Africaines », février 1934.

VALIN(Pierre) : _ « L' Ame algérienne », novembre 1931.

2/ Autres Revues et Journaux

a) Les Revues

AUDISIO (Gabriel) : _ « Les Ecrivains algériens », Documents algériens , série culturelle n°67, 10 décembre 1952.

CAZENAVE(Jean) : _ « Le Grand Prix littéraire d' Algérie , Charles Courtin », L' Afrique du Nord illustrée n° 352, 28 février 1928.

DEJEUX(Jean) : _ « DE l' Eternel méditerranéen à l' Eternel Jugurtha », Revue algérienne des sciences juridiques , économiques et politiques n°4, pp. 658-727, décembre 1977.

DEJEUX(Jean) : _ Les Revues culturelles en Algérie de 1937 à 1962 », Alger Présence francophone n°19, automne 1979.

GIRAUD (Marcel) : _ « Un magistrat algérien , homme de lettres, Ferdinand Duchéne », Algéria , Alger , noel 1961.

GODCHOT(Simon)(Clonel) : _ « De Treize Poetes algériens », Alger , Bulletin de la Societé de Géographie d' Alger et d' Afrique du Nord , pp. 204 à 233, 1921.

GOURDON (H) : HENRY(R) , HENRY LORCERIE (E) : _ « Roman colonial et l' Idéologie coloniale en Algérie », Revue algérienne des sciences Juriques, économiques et politiques Alger n°1 , mars 1974.

RANDAU (Robert) : _ Littérature coloniale hier et aujourd' hui », revue Des Deux Mondes , 15 juillet 1929.

VIGNAUD (Jean) : _ « L' Algérie intellectuelle et romanesque », La Revue des Vivants , n°39 , numéro spécial sur le Centenaire de l' Algérie , septembre 1929.

_ « Inauguration du Monument de Luis Lecoq », Afrique du Nord illustrée n° 653, novembre 1933.

b) Les Jounaux

1. La Dépêche algérienne : article du :

_ 22 janvier 1932 : DELP(Charles) : _ « Chronique des lettres , l' œuvre de Luis Lecoq ».

_ 22 mars 1933 : DELP(Charles) , cite , la Préface de Luis Bertrand au roman de L. Lecoq Moloch, « Un écrivain algérien , Luis Lecoq » ».

_ 7 décembre 1934 ;DELP(Charles)et CRESPIBARRUCAND(Lucienne) ;_ « notre Amis Luis Lecoq », (article e commun).

_ 23 février 1954 « Le Prix algérien du roman (100.000f) à Paris , fondé par l' A.E.A et Afrique ».

_ 26 mai 1954 ; « Les Ecrivains d'Algérie devant le micro parisien ».

_ 30-31 mai 1954 : « Le Prix Rivage », à Claude de Freminville pour le Manège et la Noria ».

_ 28 mars 1955 :HENRIOT(Emile) : _ » Marcel Moussy, Grand Prix littérature de l' Algérie ».

2.Le monde (journal)du jeudi 1^{er} novembre 1979 ;deux articles

_ CASTELLINI (J.P.)_ « L'Algérianisme une realite historique .

_ PASERON(André) :_ « La Littérature Pied-noir , une culture avortée ».

3.Algérie- Actualité du 25 au 31 octobre 1979 :

_ Djeghlol , Abdelkader « L'Emir Khaled 1875-1936, le catalyseur de la reprise historique »,pp. 16-17.

4. EL Moudjahid du mardi 10 septembre 1974,p.11 : _ « Les Préhistoriques »,article signé I.T.

III) ROMANS POSTERIEURS A LA PERIODE ETUDIEE

Pour une meilleure appréhensions de la realité algérienne.

CAMUS(Albert) :_ Œuvres complètes , paris , Gllimard , 1950.

DIB(Mohamed) :_ La Grand Maison , Paris , Seuil , 1952.

DIB (Mohamed) : _ L'Incendie , Paris ,Seuil, 1954.

KATEB(Yacine) :_ Nedjma, Paris seuil, 1956.

MAMMERI (Moulod) : _ La Colline oubliée , Paaris , Plon, 1952.

ROBLES (Emmanuel) :_ Travail d'homme , Alger , Charlot, 1942.

_ Les Hauteurs de la ville d'Alger ,Charlot, 1948, réédité Seuil en 1960.

IV) HISTOIRE DE L' ALGERIE

Les Ouvrages historiques concernent toute la période coloniale. Dans cette partie, on trouve aussi des témoignages sur la colonisation.

AGERON(Charle-Robert) :_ Les Algériens musulmans et la France , 1871-1919. Paris , P.U.F, 1968.

AGERON (Charles Robert) : _ Histoire de l' Algérie contemporaine, Paris , P.U.F, Coll . « que sais-je ? », n° 400, 1974.

AGERON (Charles –Robert) : _ France coloniale ou parti colonial ? Paris , P.U.F., 1978.

BERQUE (Jacques) : _ Le Maghreb entre deux Guerre, Paris, Seuil, 1962.

BERQUE (Jacques) : _ Les Arabes d' hier à demain , Paris seuil, 1960.

CAMUS (Albert) : Actuelles III , Chronique algérienne (1939-1958), Paris Gallimard , 1958.

COLONA(Fanny) : _ Instituteurs algériens 1883- 1939, Algger, office s de l' Algérie , des publications universitaires , Paris, Fondation nationale des sciences politiques ,1975.u Centenaire

DELONCLE (Pierre) : _ La vie et les mœurs en Algérie livre X , cahiers de Centenaire de l' Algérie , publication du Comité national métropolitain du Centenaire de l' Algérie , 1930.

DEPONT (Octave) : _ Les Troubles insurrectionnels de l' arrondissement de Batna en 1916, Cabinet du Gouverneur général de l' Algérie , confidentiel 60, le 1^{er} septembre 1917.

FNON (Frantz) : Les Damnés de la terres , Paris , Maspero, 1979.

FERAOUN (Mouloud) : _ Journal 1955- 1962, Paris , Seuil ,1962.

GGAUTIER (E.F) : _ L'Evolution de l' Algérie de 1830 à 1930, cahiers Centenaires de l' Algérie , publication du comité national métropolitain, Orléans , imp. Pigelet , 1930.

GENDZIER (Irène) : _ Frantz –Fanon , Paris , Seuil,1976.

JULIEN (Charles-Adnré) : _ Histoire de l'Algérie contemporaine, Paaris , , P.U.F., 1964.

JULIEN (Charles –André) : _ L' Afrique du Nord en marche, nationalisme musulman et souveraineté française , Paris , R. Julliard,1972.

KADDACHE (Mahfoud) : _ La Vie Politique à Alger , 1919_ 1939, Alger , S.N.E.D., 1970.

KHALDI (Dr) : _ Le Problème algérien devant la conscience démocratique , Alger, 1946, édité par les soins de l' Algérien en Europe.

Le Comte D'HERISSON : _ La Chasse à l' Homme , Guerre d' Algérie , 2^e éd., Paris , Ollendorf, 1891.

LACHERAF (Mostefa) :_ L'Algérie Nation et Société , Paris , Maspero, 1965.

LARAOUI (Abdallah) : _ L'Histoire du Maghreb , Paris , Maspero, 1976, T.II.

LETOURNEAU (Roger) : _ Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane , 1920-1961.

MASSIGNON (Luis) : _ Parole données , Paris , Julliard ,1962.

MEGHERBI (Abdelghani) : _ La Paysannerie face à la colonisation , Alger , éd . En A.P., 1973.

MELIA (Jean) : _ Le Triste sort des Indigènes musulmans d' Algérie , Paris ,Mercure de France , 1935.

MELIA (Jean) : _ Dans la Patrie française , la Patrie algérienne , Alger , la Maison ddes livres, 1952.

MEMMI (Albert) : _ Portrait du colonisé,Précédé du Portrait colonisateur, Préface de Sartre , Collecion Libertés , 1996.

MERCIER (Gustave) : Le Centenaire de l'Algérie , Alger , Soubiron , 1931., 2 vol., Gouvernement général de l' Algérie . Commissariat général du Centenaire .

MONTEIL (Vincent) : _ Les Arabes , Paris , coll. « que sais-je ? », P.U.F., 1964.

NORA (Pierre) : _ Les Français d'Algérie , Paris , Julliard ,1961.

NOUSHI (André) : _ Correspondance du doctuer Vital avec Urbain, 1845-1874 , Alger , Collection de Documents inédits et d' Etude sur l'Histoire de l'Algérie , 1958.

NOUSHI (André) : _ La naissance du Nationalisme algérien , 1914-1954, Paris , Edit. de Minuit ,1962.

SARI (Djilali) : _ La Dépossession des fellahs , Alger , S.N.E.D., 1977.

TURIN (Yvonne) : _ Affrontement culturels dans l' Algérie coloniale , (Ecole, Médecines, Religions , 1830-1880), Paris , Maspéro,1970.

VIOLETTE (Maurice) : _ L'Algérie vivra-t-elle ? Paris, F. alcan, 1931. (Notes d' un Gouverneur général).

V) ETUDES SUR LA LITTERATURE FRANCAISE D' ALGERIE

ANGELELLI (Jean Paul) : _ L'Opinion Française et l' Algérie de 1930, à travers la Presse et le livre (Thèse de lettres 3^e Cycle , Paris Xe, 1973).

ARNAUD (Robert ,Randau) : _ Précis de politique musulmane , Algér ,Jourdan , 1906.

ASTIER-LOUFTI (Martine) : _ Littérature et Colonialisme , 1871-1914 , Paris , Edit. Mouton ,1971.

BERTRAND (Luis) : _ Préace à Notre Afrique ,Paaris Monde Moderne ,1925.CELLY (Raoul) : _ « Une littérature algérienne », Initiation à l'Algérie , Paris , A. Maison-neuve, 1957.

DUPUY(Aimé) : _ L'Algérie dans les lettres d' expression française, Paris , Edit. Universitaire , 1956.

DEJEUX(Jean) : _ La littérature algérienne , contemporaine , Paris , Collection « que sais-je ? » , P.U.F., 1979., 2^e édition.

DEJEUX (Jean) : _ Littéraature maghrébine de langue française, Sherbroke, naaman(Québec) , 1978, 2^e édition.

FERDJ (Roland) : _ La Revue Afrique, 1924_ 1960, Thèse de Lettres , 3^e cycle Bordeaux III, 1979.

LEBLOND (M.A) : _ Préface aux Colons de Robert Randau, Paris , Sansot, 1907.

LUCAS (Philippe) : _ et VATIN (Jean-Claude) : _ L' Algérie des Anthropologues, Paris ,François Maspéro, 1975.

MARTINO (P.) : _ « La littérature algérienne » Histoire et historiens de l' Algérie , Paris, Alcan,1931.

MERAD (Ghani) : _ La littérature algérienne d expression française , Paris , Ed. P.J. Oswald, 1976.

POMIER (Jean) : _ Chronique d'Alger 1910-1957 ou le temps des Algérienistes , Paris , Pensée Universelle, 1972.

RANDAU (Robert) : _ Isabelle Eberhardt , notes et souvenirs,Alger , Charlot, 1945.

RICORD (Maurice) : _ Luis Bertrand , l'Africain, Paris , A. Fayard,1947.

TURIN (Yvonne) : _ Littérature engagée et anicolonialisme : le cas singulier d'Albert Truphémus , Paris , Revue Modene et contemporaine, 1976.

Nous ajoutons ,ci-après, à notre bibliographie des ouvrages et études cités , quelques titres paru depuis 1980.

BELAMRI (Rabah) : _ L' Œuvre de Luis Bertrand , miroir de l' idéologie, colonialiste, Alger, O.P.U., 1980, 280 pages.

BRAHIMI (Denise) : _ Requem pour Isabelle , Paris Publisud 1983, 182 pages. Cahiers de littérature générale et coparée (Paris) , n° 5, automne ,1981 : « Littérature coloniale »,134 pages.

CALMES (Alain) : _ Le Roman colonial en Algérie avant 1914, Paris , L' Harmattan , 1984,272 pages.

CHEZE (Marie – Hélène) : _ Emmanuel Roblés témoin de l' homme , Sherbroke , Naaman , coll. « A.L.F. » , n°2, 1979, 112 pages.

CHRISTIN(Anne – Marie) : _ Fromentin conteur d' espace , Paris le Sycomore , 1982, 231 pages .

Débat (le) n° 18, janvier 1982 : « Regard colonial , regard ethnologique », pp.93-111.

DEJEUX(Jean) : _ Bibliographie de la littérature « algérienne », des Français, Paris,C.N.R.S., coll. « Les Cahiers du C.R.E.S.M. », n°7, 1979, 116 pages ; « De l'éternel méditerranéen à l' éternel Jugurtha , Mythe , et contre -mythe », Studi maghrebini (Napoli, Istituto universitario , orientale), vol, XIV,1982,pp. 67-162(estratto 96pages) .

France colonisatrice (La) : _ Paris , S.Messinger , « Les Reporters de l' histoire » , textes réunis par Nicole Priollaud, 1983, 253 pages. Préface de Patrice de beer.

LECONTE(D) : _ Les Pieds -noirs , hisoire et portrait d une communauté, Paris , Seuil, 1980,(coll . L'Histoire immédiate).

الفهرس

9 مدخل
25 الفصل (الباب) الأول : الآداب الكولونيالية
25 أ/ تقديم موجز للروائيين
25 (1) كتاب " جزائريانيين" و كتاب " غير جزائريانيين " 1895-1935.
49 (2) كتاب " المدرسة الجزائرية" 1935-1939
54 (3) اختيار لويس لوكوك بالأخص (عمل 1905-1932)
 ب/ قائمة (كشف) بالفائزين بجائزة الآداب الجزائرية (1921-
60 (1961).
65 الفصل الثاني : السياق التاريخي
65 أ/ حياة سياسية مزدوجة في المستعمرة : حياة إسلامية واخرى أوروبية
66 (1) " الشبان الجزائريون" والأمير خالد.
69 (2) رفض سياسة الإدماج من قبل الطائف (الجماعة) الفرنسية للجزائر
 (3) تدعيم (تعزيز) عملية الاستعمار: انطباع الرخاء (الازدهار) عشية
73 المتوية.
76 ب/ مميزات (سمات) السكان الفرنسيين للجزائر.....
77 (1) الاندماج البطيء لمختلف العناصر الأوروبية.
78 (2) التفوق (السيادة) المطالب به (الملزم) من قبل الأقلية الأوروبية...
82 ج/ وضع (حال، ظرف) الجزائريين المسلمين.
82 (1) فقر (عوز، إملاق، فاقة) الفلاحين.....

- 87 (2) تزامح (تراكم، ازدحام) المدن : الوفيات بشدة (بقوة)،مشاكل
الأولاد" الياولد".
- 89 (3) التعليم (التثقيف) لدى المسلمين.
- 91 كبح (فرملة) السياسة المدرسية الأهلية من قبل المتخين الأوروبيين.
الشك (الاشتباه في، عدم الثقة) في " الشبان المثقفين " من قبل الحكومة
الكولونيالية.....
- 94 د/ إحياء (بعث، تجديد، إصلاح) الإسلام وتطوير الوطنية
- 96 (1) الحياة الثقافية والتجديد الديني : النهضة
- 97 (2) الإسلام عامل الهوية الوطنية.....
- 101 الفصل (الباب) الثالث: الجزائرية 1921-1937.....
- 104 أ/ تقديم الجزائرية " فكرة ما عن الجزائر".....
- 105 (1) التعريف والتموقع (موقع) بالنسدة إلى " الأدب الدخيل
(الغريب)" أحكام وأراء مختلفة عن عمل إيزابيل إيبيرهاردت .
- 105 (2) تياران جزائريان : "استقلالي" و"اندماجي".....
- 108 ب/ الحركة الأدبية الجزائرية وإيجاد (تنصيب) هياكلها.....
- 109 (1) تنصيب (إيجاد) الهياكل (1921-1924).....
- 112 (2) النضالية الأنتنصيب (إيجاد) الهياكل (1921-1924).....
- 115 (3) النضالية الأدبية للكتاب الكولونيين(1921-1937) " مجرد فعل
الكتابة فهو فعل نضالي".....
- 115 ج/ الجزائرية : أداة الاختراق الإيديولوجي.....
- 119 (1) " مشاريع وأهداف" الجزائريين.....
- 120

- 123 (2) إيديولوجية الجزائرية حتى 1927.
- 124 الجزائر، إرث شرعي.
- 127 تفكيك (تفتيت، تجزئة) الجماعة الأهلية.
- توطيد (تدعيم) تنصيب (إقامة، زرع، التأصيل، الإنشاء)
- 130 الاستعمارية.
- 132 "نظرية الإدماج".
- 136 إنكار (رفض، نفي) الأبعاد الاجتماعية/الثقافية والدينية للجزائري.
- 145 معاينة الفشل (الإخفاق، الخيبة): مقاومة الجماعة الإسلامية.
- 147 (3) تطور الإيديولوجية الجزائرية ابتداء من 1927.
- (أ) عوامل هذا التطور : صعود (نهوض) الوطنية الجزائرية _ الذهنية
- 148 الخاصة لفرنسيي الجزائر _ لا اختزالية الأهالي.
- (ب) مظاهر هذا التطور : التنديد بالكولون _ حقائق (واقع) المجتمع
- الإسلامي _ موضوع (مبحث، مسألة) "الإنسانية والتقدم" والإدماج في
- 154 إطار احترام الشخصية الإسلامية.
- 159 الفصل الرابع : تحليل الروايات.
- 159 (أ) الجماعة الإسلامية : الحقائق وتأويلاتها.
- 163 (1) مظاهر تدهور (انحطاط) المجتمع الأهلي.
- 163 البؤس (الشقاء) البيولوجي و تلامذاته (متعلقاته).
- 171 "المسولون الحقيقيون": أوروبيو الجزائر والإدارة الكولونيالية.
- 177 (2) المقاومة الروحية والمعنوية للمجتمع الإسلامي.
- 179 خاصيات (نوعيات) الأخلاق الأهلية.

- 182 النهوض (النهضة) الروحية والنهضة المعنوية.
- 193 معارضة "التقليديين" و"الدينيين" لعملية الاستعمار.
- (الدين : القيمة الملجأ) الملاذ) للمسلمين .لا إمكانية علاقة، وليس،
 199 في عالم لائكي علماني.....
- 203 (ب) إمكانية العلاقات الأهلية / الأوروبية في الجزائر الكولونيالية
- 203 (1) الانتماء المشترك للمتوسط.....
- 209 (2) حقائق وأساطير: " لا تطور" لكن تدمير (تخريب).....
- 216 (3) التعليم الفرنسي مقبول وحتى مطالب به.....
- 220 (4) التأكيد على شخصيتهم الإسلامية من قبل المثقفين.....
- (ج) تصوير (رسم) الجماعة (الطائفة) الأوروبية: حقائق الأقلية
 229 المسيطرة (المهيمنة).....
- 230 (1) تفوق (علو)فرنسي الجزائر أسطورة : عنصرية ومضاد للسامية.....
- 235 (2) مجتمع مركب ، منقسم، مقطع (مفصول عن بعضه).....
- (3) شعور (مشاعر) "المضاد للفرنسيين" من قبل أوروبيي
 240 الجزائر.لمصلحة.....
-(د)التطهير (التصفية) الضروري العالم الأوروبي الكولونيالي أو " وضع
 245 المصلحة الوطنية الفرنسية في خطر".....
- (1) التنديد (التشهير) بالمستعمرة الكبرى: الأصل الوضع، الشعور
 248 (الإحساس) المزيف بالأمن (الطمأنينة، الثقة).....
- 255 (2) الكولون الكبير: السلطة الحقيقية للمستعمرة.....
- 260 (3) إمكانية التصادم بين الجماعتين : الحريق.....

276	هـ) المأزق (الانسداد، الردب) أو اختلاق أسطورة الكولون الصغير(1932-1954)
282	الخلاصة.....
298	المراج البيلوغرافيا.....
315	الفهرس (المحتوى).....

تم إخراج وطبع بـ :

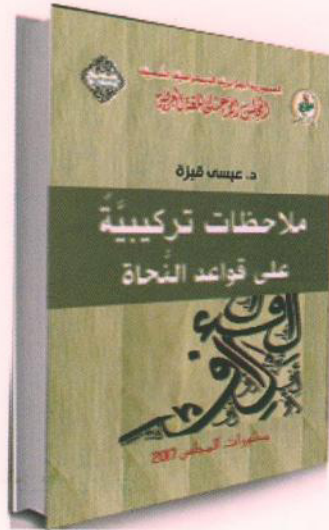
دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة-الجزائر

الهواتف: 05.42.72.40.22-021.68.86.48-021.68.86.49

البريد الإلكتروني: khaldou99_ed@yahoo.fr

من منشورات المجلس



المجلس الجزائري للغة والعربية

شارع فرنكلين روزفلت، الجزائر

الهاتف : 25 / 213 021.23.07.24 الفاكس : 07.07.213 021.23

ص.ب : 575 الجزائر - ديدوش مراد

www.csla.dz

البريد الإلكتروني : manchourat.csla@gmail.com

ISBN : 978-9947-821-89-3



9 789947 821893 >